نشأة الحضارة

" أحب أن أعلم الخطوات التى سارها
الإنسان فى طريقه من الهمجية إلى المدنية "
ڤولتير (١)

الباب الاول

عوامل الحضارة(*)

تعريف – العوامل الجيولوجية – والجغرافية – والاقتصادية – • الجنسية – والنفسية – أسباب انحلال الحضارات

لحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى ، تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم ية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ؛ وهى تبدأ حيث الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف ، تحررت سه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفكّ الحوافز ية تستنهضه للمضىّ فى طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها .

الحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هى التى تستحث خطاها أو تعوق ها ، وأولها العوامل الجيولوجية ، ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط ين من جليد ، فتيار الجليد قد يعاود الأرض فى أى وقت فيغمرها من ، بحيث يطمس منشئات الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ، ويحصر فى نطاق ضيق من سطح هـذه الأرض ؛ وشيطان الزلازل الذى حواضرنا فى غفوته ، ربما تحرك حركة خفيفة بكتفيه فابتلعنا فى غير آبه .

ثانيها العوامل الجغرافية ، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك ار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهيئ للمدنية أسبابها ، فما يسود لأقطار من خمول وأمراض ، وما تُعرف به من نضوج مبكّر وانحلال

•) سيجد القارئ فى نهاية هذا الكتاب بياناً بالمراجع التى تشير إليها الأرقام التى ا أثناء القراءة فى أعالى الكلمات .

سنستخدم فى هذا الكتاب كلمتى « مدنية » و « حضارة » بمعنى واحد . (المعرب)

مبكّر ، من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التى هى قوام المدنية ، ويستنفدها جميعاً فى إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تَذَرُ للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه فى ميدان الفنون وجمال التفكير ؛ والمطر كذلك عامل ضرورى إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران ، مثل نينوى وبابل ؛ أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هى — فيما يبدو للعين — بعيدة عن الطريق الرئسىّ للنقل والاتصال ، مثل المدن فى بريطانيا العظمى أو خليج پيوچيت (*) Puget Sound وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن ، وإذا كانت أنهاره تهيئ له طريقاً هينة للتبادل مع غيره ، وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التى تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجارى ، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسية للتجارة العالمية ، كما كانت حال أثينا وقرطاجنة وفلورنسة والبندقية — إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقا ، إلا أنها تستطيع أن تبتسم فى وجهها ، وتهيئ سبيل ازدهارها .

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك ؛ فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقى رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هى الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظلّ فى مرحلة الصَّيْد البدائية ، واعتمد فى وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص ، فإنه يستحيل أن يتحول من الهمجية إلى المدنية تحولا تاماً ؛ قد تكون قبيلة البدو — كبدو بلاد العرب — على درجة نادرة من الفتوة والذكاء ، وقد تبدى من ألوان الخُلق أسماها كالشجاعة والكرم والشمم ، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذى لابد منه ، وبغير اطّراد موارد القوت ، ستنفقه فى مخاطر الصيد ومقتضيات

(*) خليج غرب الويالات المتحدة . (المعرب)

التجارة ، بحيث لايبقى لها منه شىء لوَشْى المدنية وهُدّابها ولَطائفها وملحقاتها وفنونها وترفها ؛ وأول صورة تَبَدّتْ فيها الثقافة هى الزراعة ، إذ الإنسان لايجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لايجد فيه مورداً لطعامه ؛ فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة – وأعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام – ترى الإنسان يبنى لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلم كيف يعمل فى نظام واطّراد ، ويحتفظ بحياته أمداً أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلا أميناً .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة(*) كما ترتبط المَدَنيّة بالمَدِينَة ؛ إن المدنيّة فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة(**) ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن – وهم الذين صاغوا حكمة المدنية – من خصائص المدينة وحدها(†) ، ذلك لأنه تتجمع فى المدينة – حقا أو باطلا – ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول ؛ وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ؛ وفى المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار ؛ وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول ، يُرْهف الذكاء وتُستثار فيه قوته على الخَلْق والإبداع ، وكذلك فى المدينة يُسْتغنَى عن فئة من الناس فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، لكنها لا تزدهر إلا فى المدن .

(*) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط اللفظى بين الكلمتين فى الإنجليزية وهما Agriculture & Culture

(**) هنا كذلك بيان لعلاقة الفظية بين كلمتى Civilisation ومعناها مدنية ، وكلمة Civility ، ومعناها رقة المعاملة . (المعرب)

(†) كلمة مدنية حديثة الاستعمال نسبيا ، فعلى الرغم مما اقترحه « بوزول » على « چونسن » لإدخالها فى قاموسه سنة ١٧٧٢ ، فقد رفض « چونسن » أن يدخلها ، وآثر عليها الكلمة التى معناها « رقة المعاملة » Civility .

وليست تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر فى هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ؛ قد تنهض مدنيّة فى پكين أو دلهى ، فى ممفيس أو بابل ، فى راڤنا(†) أو لندن ، فى پيرو أو يوقطان . فليس هو الجنس العظيم الذى يصنع المدنيّة بل المدنية العظيمة هى التى تخلق الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذى يصاغ عليه . ليست المدنيّة البريطانية وليدة الرجل الإنجليزى ولكنه هو صنيعتها ، فإذا ما رأيته يحملها معه أينما ذهب ويرتدى حُلّة العشاء وهو فى « تمبكتو » ؛ فليس معنى ذلك أنه يخلق مدنيته هناك خلقاً جديداً ، بل معناه أنه يبيّن حتى فى الأصقاع النائية مدى سلطانها على نفسه . فلو تهيأت لجنس بشرى آخر نفس الظروف المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هى ذى اليابان فى القرن العشرين تعيد تاريخ إنجلترا فى القرن التاسع عشر ، وإذنْ فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجىء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطىء بين شتى العناصر ، ذلك التزاوج الذى ينتهى تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبيا(*) .

وما هذه العوامل المادية والبيولوجية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لا تكوّن مدنيّة ولا تنشئها من عدم ، إذ لابد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلا بد أن يسود الناسَ نظامٌ سياسى مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من الفوضى ، كما كانت الحال فى فلورنسة وروما أيام النهضة . ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف فى طريق حياتهم ، ولا مندوحة كذلك

(†) مدينة على الساحل فى الشمال الشرقى من إيطاليا . (المعرب)

(*) قد يؤثر الدم – لا الجنس – فى المدنية بمعنى أن الأمة قد يعوقها أو يدفعها إلى الأمام كونها تنشأ عن عناصر من الناس أدنى أو أعلى من سواها ، وإنما تكون تلك العناصر أدنى أو أعلى من الوجهة البيولوجية (لا الجنسية) .

عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار . ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقى يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها ، حتى تكون هناك فى لعبة الحياة قاعدة يرعاها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها ؛ وبهذا يطّرد سلوك الناس بعض الشىء وينتظم ، ويتخذ اه هدفاً وحافزاً . وربما كان من الضرورى كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود ، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت . وأخيراً لابد من تربية — وأعنى بها وسيلة تُتَّخذ — مهما تكن بدائية — لكى تنتقل الثقافة على مرّ الأجيال ، فلابد أن نورّث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فنورثّهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها ، سواء كان ذلك التوريث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين ، وسواء فى ذلك أن يكون المربّى هو الأب أو الأم أو المعلّم أو القسّيس ، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تحوّل هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

ولو انعدمت هذه العوامل — بل ربما لو انعدم واحد منها — لجاز للمدنية أن يتقوّض أساسها . فانقلابٌ جيولوجى خطير ، أو تغيُّرٌ مناخىٌّ شديد ، أو وباء يفلت من الناس زمامه كالوباء الذى قضى على نصف سكان الإمبراطورية الرومانية فى عهد « الأناطنة » (جمع أنطون) ، و « الموت الأسود »(*) الذى جاء عاملا على زوال العهد الإقطاعى ، أو زوال الخصوبة من الأرض ، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف ، بحيث ينتهى الأمر إلى اعتماد الناس فى أقواتهم على ما يرد إليهم متقطعاً من بلاد

(*) وباء تفشى فى أوروبا فى القرن الرابع عشر . (المعرب)

أخرى ، أو استنفاد الموارد الطبيعية فى الوقود أو المواد الخامة ، أو تغيرٌ فى طرق التجارة تغيراً يُبْعِد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم ، أو انحلالٌ عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة فى الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التى كان النظام الاجتماعى يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها أو انهيارُ قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو بسبب ما يسود الناسَ من فلسفة أبيقورية متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدراء الكفاح ، أو ضعفُ الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء وبسبب القلة النسبية فى أفراد الأسرات التى كان فى مقدورها أن تورِّث الخَلْفَ تراث الجماعة الفكرى كاملا غير منقوص ، أو تركزٌ للثروة تركزاً محزناً ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالى . هذه هى بعض الوسائل التى قد تؤدى إلى فناء المدنيّة ، إذ المدنية ليست شيئاً مجبولا فى فطرة الإنسان ، كلا ولا هى شىء يستعصى على الفناء ؛ إنما هى شىء لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير فى عواملها الاقتصادية أو فى طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملا على فنائها . إن الإنسان ليختلف عن الحيوان فى شىء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل :

والمدنيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التى تنقل تراث الآباء للأبناء ، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التى تربط الصلات بين الناس ، قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا ، فلنجمع تراثنا قبـــل أن يلحق بنا الموت ، لنُسَلِّمَهُ إلى أبنائنا .

الباب الثانى

العناصر الاقتصادية فى الحضارة(*)

« الهمجى » هو أيضاً متمدن بمعنى هام من معانى المدنية ، لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه — وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التى هذبتها أثناء جهادها فى سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل فى هذا الصدد أن نلتزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم « الهمج » أو « المتوحشين » فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر بها عن حبنا العارم لأنفسنا لا أكثر ؛ وعن انقباض نفوسنا وانكماشها إذا ما ألقينا أنفسنا إزاء ضروب من السلوك تختلف عما ألِفناه ؛ فلا شك أننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب الساذجة التى تستطيع أن تعلّمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق ؛ فلو أننا أحصينا أسس المدنيّة ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العُريانة قد أنشأتها أو أدركتها جميعاً إلا شيئاً واحداً ، ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة ، ومن يدرى فلعلهم كذلك كانوا يوماً متحضرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوه فيها من شقاء للنفس ؛ وعلى ذلك فينبغى أن نكون على حذر حين

(*) على الرغم من الاتجاه الحديث الذى يخالف رأينا مخالفة شديدة(١) فسنستخدم كلمة « مدنية » أو « حضارة » فى هذا الكتاب لتدل على النظام الاجتماعى والتشريع الخلق والنشاط الثقافى ؛ وسنستخدم كلمة « ثقافة » لتدل إما على ما يمارسه الناس فعلا من ألوان السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وفنون ، وسيدل السياق على أى المعنيين هو المقصود ؛ فإذا ما كانت الإشارة فى الحديث إلى المجتمعات البدائية أو جماعات ما قبل التاريخ فإن المعنى لكلمة « ثقافة » هو المقصود .

تستعمل ألفاظا مثل « همجى » و « متوحش » فى إشارتنا إلى « أسلافنا الذين يعاصروننا اليوم » ؛ ولقد آثرنا أن نستعمل كلمة « بدائى » لندل على كل القبائل التى لا تتخذ الحيطة ، أو لا تكاد تتخذها ، بحيث تدخر القوت للأيام العجاف ، والتى لا تستخدم الكتابة أو لا تكاد تستخدمها ؛ وفى مقابل ذلك ، سنطلق لفظ التمدن على الأقوام التى فى وسعها أن تكتب ، وأن تدخر فى أيام يسرها لأيام عسرها .

الفصل الأول

من الصَّيْد إلى الحرث

ما للشعوب البدائية من قصر النظر – بداية الحيطة – الصيد والسَّماكة – الرعى – استئناس الحيوان – الزراعة – القوت – الطهى – أكل اللحوم البشرية

« إن نظام الوجبات الثلاث فى كل يوم نظام اجتماعى غاية فى الرقى ، أما الأقوام الهمجية فهى إما أن تتخم نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام »[٢] وإنك لترى أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يدخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق[٣] ، وكذلك ترى أهل استراليا الأصليين لايستطيعون العمل كائنا ما كان ما دام جزاء العمل لايجيئهم فور أدائه ؛ وكل فرد من قبائل « الهوتنتوت » Hettentot هو بمثابة السيد الذى يعيش عيش الفراغ ، والحياة عند قبيلة « البوشمن » Bushmen فى أفريقيا « إما وليمة وإما مجاعة »[٤]. وإن فى قصر النظر هذا لحكمة صامتة ، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند « الهمج » ، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم ، وحلَّتْ به صُفْرة الغمّ ، وهاهنا يشتد فيه الجشع ، ونبدأ المِلْكية ، ويزول عنه البِشْر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول « الخلىّ من كل تفكير » ؛ إن الزنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال ، فقد سأل « پيري » أحد أدلاَّئه من الإسكيمو قائلا « فيم تفكر ؟ » فكان جوابه : « ليس لدىّ ما يدعو إلى التفكير لأن لدىّ مقداراً كافيا من اللحم » فكون الإنسان لايفكر إلا إذا اضطر إلى ذلك ، قد يكون بجُمَّاع الحكمة ، وقد يكون لهذا الرأى سند قوىّ يدعمه .

ومع ذلك فتلك الحياة التى خلت من الهموم ، كانت لها صعابها ؛ والأحياء

التى استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة فى تطورها ، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها فى تنازع البقاء ؛ فالكلب الذى اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته ، وإنها لشهية الكلاب ، والسنجاب الذى ادّخر البندق لوجبة أخرى فى يوم مقبل ، والنحل الذى ملأ خليته بالعسل ، والنمل الذى خزن زاده أكداساً اتقاء يوم مطير — هذه جميعاً كانت أول منشئ للمدنية ، فقد كانت هى وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علّم أجدادنا فن ادخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد . أو اتخاذ الأهبة للشتاء فى أيام الصيف الخصيبة بخيراتها .

فيالها من مهارة تلك التى استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعاما كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة ! لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعا ما يستطيعون أكله مما يبديه سطح الأرض من أشياء ، وكنت تراهم يقلدون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشبّاك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عدداً لا يحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء ؛ لقد كان لأهل پولينزيا شباكٌ طولها ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جنبا إلى جنب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس فى تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة ، انظر إلى السمّاك من قبيلة « تِلِنْجِتْ » Thlingit إذ كان يضع على رأسه غطاء يشبه رأس عجل البحر ، ثم يخفى نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان ، فتأتيه عجول البحر ، فيطعنها بسنان رمحه ، لا يجد فى ذلك ما يؤنبه عليه ضميره ، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال فى صورته البدائية ، وكان من عادة كثير من القبائل أن يلقى سمّاكوها مادة مخدرة فى مجرى الماء ليهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره ؛ فأهل تاهيتى — مثلا — كانوا يلقون فى الماء سائلا مسكرا يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

لديهم من النبات ، فتسكر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر ، فيمسك منها السَّمَّاك ما أراد ؛ والاستراليون الوطنيون يسبحون تحت سطح الماء ، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب ، فيتاح لهم أن يجذبوا البطَّ السابح من سوقه إلى جوف الماء ، ويظلون ممسكين به هناك فى رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة ؛ وأبناء قبيلة « تاراهيومارا » كانوا يمسكون الطير بأن يلقوا لباب البندق على ألياف قوية ويربطوه بتلك الألياف التى يغرسونها إلى نصفها فى التراب ، فيقتات الطير من اللباب ، ثم يقتات « التاراهيوماريون » من الطير (٥) .

إن الصيد عند كثرتنا الغالبة اليوم ضرب من اللهو ، نستمد فيه اللذة — فيما أظن — من بعض الذكريات الغامضة الراسخة فى دمائنا والتى تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلا إلى طلب القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حرباً لو قَرَنْتَ إليها كل ما عرفه التاريخ المدوَّن من حروب ، ألفيت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغَط اليسير . وما يزال الإنسان فى الغابة يقاتل فى سبيل الحياة ، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهاجمه مختاراً إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهرباً يلوذ به ، فليس فى الغابة قوت يكفى الجميع ، وأحياناً لا يظفر بطعامه إلا المقاتل أو الذى يستخدم لنفسه حيواناً مقاتلا ، وها هى ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التى نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية ، إذ تعرض أمامنا المُدَى والهراوات والرماح والقسىّ وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التى استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض ، ويمهد السبيل أمام خَلَفٍ لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة آمنة من كل حيوان إلا الإنسان . وحتى فى يومنا هذا ، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقى على القادر ، انظر كم من صنوف

الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى ! لقد يحدث أحياناً إذا مامشى الإنسان خلال الغابة متريضاً ، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما سمع هنالك من لغات ، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وآكلة اللحوم والطير . إن الإنسان ليحسُّ عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا المشهد بما فيه من زحمة الأحياء ، وأنه مخوف يخشاه الحيوان جميعاً ويمقته الحيوان جميعاً مقتاً لا ينتهى . ومن يدرى فلعل يوماً يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع فى دمدمة أصواتها ، وهذه الحشرات التى كأنما هى اليوم تستدرعليها عطف الإنسان، وهذه الجراثيم الضئيلة التى تنوّه بما عساها أن تصنعه ، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتهم الإنسان التهاماً بكل ما صنعتْهُ يداه وأنشأتْ ، فتنقذ الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يجول ناهباً سالباً ، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة ، وهذه الأقدام التى تجوس فى غير حذر !

لم يكن الصَّيْدُ والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادى ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التى كتب لها أن تظل باقية فى أعلى صور المجتمع المتحضر . لقد كانا ذات يوم مركز الحياة ، وهما الآن بمثابة أساسيْها الخبيئين ، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشدّاء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ، فكأنما نؤدّى اليوم صَيْدنا بوساطة غيرنا نُنيبُه عنا ، إذ تعوزنا جرأة القلب التى نقتل بها طرائدنا علناً فى الفضاء المشكوف ؛ لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغتبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار ، بل إنها تعاودنا فى ألعاب أطفالنا — حتى الكلمة التى نطلقها اليوم على اللعب هى نفسها التى تدل على الصيد(*) وإذن فآخر ما نصل إليه فى تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه فإن رأيت فخامة الفن فى الكاتدرائية

(*) لفظة Game بالإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعب أيضا . (المعرب)

أو مبنى الكابيتول ، وإن شهدت متحفاً للفن أو حفلة موسيقية ، وإن صادفت مكتبة أوجامعة ، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التي تخفى وراءها أشلاء القتال .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالا واطّراداً ، وأعنى بها حياة الرعى ، التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . إننا لا نعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ — فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل فى حلبة الصيد ، حين لم يروا لهاتيك الصغار حَوْلاً ولا قوّة ، فساقوها إلى مقرّ سكناهم ليتخذها أطفالهم لُعباً يلهون بها[٦] ، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذى يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ؛ وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه فى مجتمعه الإنسانى كأنما هو منهم ، فهو زميل ، وهو شريك فى العمل والإقامة ؛ ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزه التناسل بين صنوف حيوانه ، فأخضعها لإشرافه ، استطاع بعدئذ من ذكر وأنثى يمسك بهما أن ينشئ لنفسه قطيعاً كاملا ، كذلك خفّف عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة ، بأن استعملن لأطفالهن ابن الحيوان بعد سنٍّ معيّنة ، وبهذا قلّت نسبة الوفيات فى الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام ؛ أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطّراداً ، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحْدَث الوجل ، أعنى الإنسان ، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً .

وكانت المرأة أثناء ذلك فى طريقها إلى أكبر كشف اقتصادى بين تلك الكشوف جميعاً ، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات ؛ فبينما

كان الرجل فى صيده كانت هى تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول ؛ ففى استراليا كان العرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج فى رحلات صيده ، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبندق من الشجر ، وتجمع العسل والفُطْر والحبّ والغلال التى تنبتها الطبيعة[٧] ؛ ولا تزال بعض القبائل فى استراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التى تنبت بالطبيعة دون أن تحاول دَرْسَ الحبوب وبذرها ؛ ولبث هنود وادى نهر ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً[٨] وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بَذْرها فى الأرض ، فهذه البدايات هى أسرار التاريخ التى سنظل نضرب حولها بمجرد الإيمان والحَدْس ، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين ، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان فى جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسقط منها حبّات وهو فى طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنبّهته أخيراً إلى السر العظيم الكامن فى نمو النبات ، فألقى الناسُ من قبيلة « چوانج » البذور فى الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها إلى الفضاء ، وأما أهالى « بورنيو » فكانوا يضعون الحبّ فى حفرات يحفرونها بعصاة مدببة إذ هم سائرون عَبْرَ الحقول[٩] ، فكانت هذه العصاة أو « الحافرة » أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض ، وقد كان الرحّالة فى مدغشقر منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتشقن هذه العصىّ المدببة ، ووقفن فى صف كأنهن الجنود ، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذن فى حفر الأرض بعصيّهن ، وقَلْب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعدئذ يمضين إلى خطٍّ آخر من خطوط الحقل[١٠] ، والمرحلة التى تلت ذلك فى تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استُعملت فيها الفأس فى الحرث ، وذلك بأن ركّب الإنسان عظمة فى طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة

لضغطها بالقدم ، فلما وصل « كونكيوستادورس » إلى المكسيك وجد الأزاتقة لايعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُرقت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل ، فكبرت الفأس حتى أصبحت محراثاً يضرب فى الأرض أعمق مما كانت تضرب الفأس ، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة ، بحيث تغيرت سيرة الإنسان تغيراً كاملا ، فزرع أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل ، واستنبت أنواعاً أخرى ، وأصلح الأنواع التى كان يزرعها قبل ذاك .

وأخيراً تعلم الإنسان عن الطبيعة فن التحوط للمستقبل ، وفضيلة التبصر فى العواقب(*) كما تعلم فكرة الزمن ؛ فلما لاحظ الإنسان الطيور النقّارة تخزن البندق فى الشجر ولاحظ النحل تخزن العسل فى الخلايا ، أدرك — وربما جاء إدراكه هذا بعد ألوف من سنين قضاها فى همجية لا تعرف للتحيطة معنى — أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ؛ وكشف عن بعض السبل التى تمكّنه من حفظ اللحم ، بتدخينها وبتمليحها وبتبريدها ؛ وخير من ذلك فى سبيل التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص ، فكان يحتفظ فى تلك الأهراء بطعام يأكله فى أشهر السنة العجاف ؛ وهكذا تبين على مر الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت أجود نوعا وأثبت اطّراداً من الصيد ، فلما أن تحقق الإنسان من هذا ، تخطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التى نقلته من الحيوانية إلى المدنيّة — وتلك الخطوات هى الكلام والزراعة والكتابة .

ولا يجوز لك أن تتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، فكثير من القبائل — مثل الهنود الأمريكيين — جملوا فى مرحلة

(*) تلاحظ العلاقة اللغوية بين الألفاظ الثلاثة التى معناها على التعاقب « حيطة للمستقبل » و « تدبير » و « تبصر » وهى بالإنجليزية Prudence و Providence و Provision

الانتقال لا يتحولون عنها ، فلبث الصيد مهنة الرجال والحرث مهنة النساء ؛ لا بل لا يكفي أن تقول عن هذا التحول إنه تم بخطوات متدرجة ، إنما ينبغي أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه ، ولك أن تقول إن الإنسان بحرثه للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة القديمة ، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية ، ويمكننا أن نصوّر لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التى تخرجها له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألمَّ بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب فى مزج هذه الصنوف بالفاكهة والتمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل ؛ لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقا لأكل غنائم الصيد ؛ وإنك لترى الشعوب البدائية محبة للحم فى طعامها إلى حد الافتراس ، حتى وإن كان طعامهم الرئيسى فى الواقع هو الغلال والخُضَر واللبن[١١] فإذا ما صادفهم حيوان ميِّت لم يَطُلْ أمد موته ، فالأرجح أن يهجموا عليه فى نهم فظيع ، وكثيرا ما يستغنون فى ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من وقتهم شيئاً ، فيأكلوا فريستهم نيئة ، مسرعين فى ذلك ما أسعفتهم أسنانهم القوية فى تمزيقها والتهامها ، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم كومة عن عظام ؛ وإننــــا نسمع عن قبائل بأسرها تمرح فى طعامها أسبوعا كاملا على حوت يلقيه البحر على الشاطئ[١٢] ؛ وعلى الرغم من معرفة الفويجيين للطهى فإنهم يفضّلون اللحم نيئا ، وإذا أمسكوا بسمكة قتلوها بِعَضِّها خلف خياشيمها ، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها ، لا يقومون إزاءها بشىء من الإعداد إطلاقا[١٣] : إن الشك فى اطّراد موارد الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفى تقريبا ؛ يأكلون السمك وقنافذ البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران

كبيرها وصغيرها والعناكب والديدان والعقارب والعُثّة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخيل وجذور النبات والقمل واليرقات وبعض الزواحف والطير — ليس بين هذه الأنواع نوع إلا وكان فى مكان ما لوناً من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية[١٤] ؛ وبين القبائل فريق متَهَرّ فى صيد النمل ، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات فى الشمس ويخزنها لتُؤكل فى وليمة ، وقوم آخرون يلتقطون القمل بعضهم من رءوس بعض ويأكلونه مستمتعين بما يأكلون ، وإذا ما تجمع من القمل عدد كبير أقبلوا عليه يلتهمونه وهم يصيحون صيحات الفرح باعتباره عدواً للإنسان[١٥] ، إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف فى شىء عنها عند القردة العليا[١٦] وجاء الكشف عن النار فحدد هذا النَّهم الذى لا يفرّق بين طعام وطعام ، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد ؛ فطهىُ الطعام أذاب للإنسان مادتى « السليلوز » والنشاء الموجودتين فى آلاف الأصناف من النبات فتجعلانها غير قابلة للهضم إذا ما تُركت فجّة على حالتها ، وأخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسى ؛ ولو أن الطهى بتليينه لمواد الطعام الصُّلْبة ، قلّل من الحاجة إلى المضغ ، فبدأ فساد الأسنان الذى هو من وصمات المدنية .

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التى أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها — وهو زميله الإنسان ، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخاً مثل سكان إيرلندة وإيبريا وجماعة الپكْت ، بل بين أهل الدانماركه فى القرن الحادى عشر[١٧] ؛ كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز ؛ بل قد كان الأحياء فى الكنغو الأعلى يُباعون ويُشْترون رجالا ونساء وأطفالا ، كانوا يباعون ويُشترون

علنا على اعتبار أنهم من مواد الطعام[١٨] ، وأما فى جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يباع فى دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم ؛ وكذلك فى بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من يقع فى أيديهم من الضحايا البشرية — وخصوصاً النساء — ليولموا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير[١٩] ؛ وكان الفويچيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن « الكلاب كان مذاقها رديئاً » كما كانوا يقولون ؛ ولما مرَّ « پيير لوتى » بجزيرة تاهيتى ، أخذ رئيس كهل من رؤساء البولينزيين يشرح له طعامه فقال : « إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أُحْسِنَ شواؤه كمذاق الموز الناضج » ، أما الفيچيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد فى ملحه عما ينبغى ، وقوىّ الألياف ، فالبحّار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد فى رأيهم ألا يصلح للطعام ، وعندهم أن الرجل من پولينزيا ألذ طعماً[٢٠] .

فما أصل هذه العادة ؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت — كما ظن الناس من قبل — بسبب قلة فى أنواع الطعام الأخرى ، ولو كان ذلك كذلك إذن فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط فى مواد الطعام الأخرى ، لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل[٢١] وها هى ذى الطبيعة ، أَرْسِلْ فيها البصر تَرَ الدم البشرىّ طعاماً شهياً لا يُقدم عليه اللاعق فى جزع قط ، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه بشغف عظيم ؛ ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان ، مع أنهم يكونون فى غير هذا الظرف رقيق القلوب كرام النفوس — يشربونه تارة باعتباره دواء ، وطوراً باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد ، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى الشارب القوة الحيوية التى كانت للمأكول[٢٢] . ولم يكن أحد ليشعر بشىء من الخجل فى إيثاره للحم البشرى ، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون فى حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان ، بل إنه لمدعاة للفخار فى ميلانيزيا أن يدعو

الرئيس أصدقاءه إلى أكلة يُقدَّمُ فيها إنسان مشوى ، وفى ذلك قال رئيس برازيلى فيلسوف : « ما دمتُ قد قتلتُ عدوّى ، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارةً لا يفيد منها أحـــد . . . ليس أسوأ الحالات أن يؤكل الإنسان ، لكن أسوأها أن يموت ، فإذا ما قُتِلتُ فسواء لدىّ أأكلنى عدو القبيلة أم تركنى ؛ على أنى لا أجد بين صنوف الصيد جميعاً ما هو ألذ مذاقا من طعم الإنسان . والحق أنكم أيها البِيض قد بلغتم الغاية فى حسن المذاق »(٢٣)

ومما لا يب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة ؛ فقد سبقت إلى الوجود الخطّة التى اقترحها « سوِفْت » فى شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجــة ، ثم أفسحت أمام الكهول مجالا وهو أن يموتوا موتا فيه نفع للآخرين ؛ أضف إلى ذلك وجهة النظر التى لاترى فى الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة ؛ ولقد كان من رأى « مونْتينْى » أن تعذيبَ الإنسان حتى يُسلم الروح تحت قناع من الورع والتقوى — كما كانت الحال فى عصره — أفظع وحشية من طهيه وأكله بعد موته ؛ إنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر .

الفصل الثانى

أسس الصناعة

النار – الآلات البدائية – النسج وصناعة الخزف – البناء والنقل – التجارة وشئون المال

لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنيَّة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالاً ؛ ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار استخدمها على ألف صورة ، أولها فيما نظن أن اتخذ منها شعلة يقهر بها عدوّه المخيف ، ألا وهو الظلام ، ثم استعملها بعد ذلك للتدفئة ، وبذلك استطاع أن يتحرك مُبْعداً عن مناطقه الاستوائية إلى مناطق أقل منها إرهاقاً للقُوى ، وبهذا الانتقال أخذ شيئاً فشيئاً يعمر الكوكب الأرضىّ فيجعله مسكناً للإنسان ، ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار فى المعادن فيلينها ويطرقها ويمزجها فى هيئة أشد صلابة وأكثر مرونة مما وجدها عليه أول ما وجدها ؛ لقد بلغت النار فى أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حداً جعلها لديه إحدى المعجزات التى تستحق أن تُتَّخذ إلـهاً وتُعبد ، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبُّدية ، وجعل منها مركزاً لحياته وبيته ؛ وكان كلما انتقل من مكان إلى مكان ، حملها معه معنياً بها ، لا يرضى لها قط أن تخمد ؛ بل إن الرومان أنفسهم أعدموا العذراء الطاهرة عقاباً لها على إهمالها الذى كان من شأنه أن تنطفىء النار المقدسة .

على أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والرعى والزراعة ، ما انفكَّ

مخترعاً ، فكان الإنسان البدائى يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل ؛ فقد كان الإنسان بادئ ذى بدء راضياً — فى ظاهر الأمر — بما تقدمه له الطبيعة — كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ، فيما نظن (فمعظم التاريخ ظن وبقيته من إملاء الهوى) أن أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته ؛ فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها السدود والطيور تهيئ الأعشاش والعرائش ، والشمبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ؛ فحسدها على ما لها من قوة فى مخالبها وأسنانها وأنيابها وقرونها ، وعلى صلابة جلودها ، فأخذ من فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها ، بل تفوقها ، فالإنسان — كما قال فرانكلن — حيوان صانع للآلات(٢٤) لكن هذه الميزة أيضاً — كسائر ما نضفيه على الإنسان من ميزات نزهى بها ونفخر — إن هى إلا تفوّق على الحيوان فى الدرجة وحدها لا فى النوع .

وكان النبات الذى يحيط بالإنسان البدائى مصدراً لكثير من الآلات ، فمن الخيزران صنع الإنسان السهام والمدى والإبر والقوارير ؛ ومن فروع الشجر صنع الملاقط والماسك ؛ ومن لحاء الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب فى صنوف شتى ؛ وفوق هذا كله صنع الإنسان لنفسه العصا ؛ ألا ما أبسطها اختراعاً لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزاً للقوة والسلطان ، من العصا السحرية عند عرائس الجن وعكازة الراعى إلى عصا موسى أو هارون ، والعصا العاجية التى كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان ، والقضيب الذى يلوّح به المنبئون بالغيب ثم الصولجان يمسك به القاضى أو الملك ؛ ولقد انقلبت العصا فى الزراعة فأساً ، أما فى الحروب فقد أصبحت حربة أو سهماً أو رمحاً أو سيفاً

أو سُنْكياًّ(٢٥) . وكذلك استغلّ الإنسان المعادن وصاغ الصخر أسلحة وأدوات هي اليوم تحفة المعارض ، فصنع منها المطرقة والسندان والوعاء يغلي فيه الماء ، والسكين ، ورأس الرمح ، والمنشار ، والصفائح ، والخوابير ، والروافع ، والفئوس ، والمثاقب ؛ وكذلك من دنيا الحيوان صنع أدواته ، فصنع المغارف ، والملاعق ، والأواني والأطباق ، والأقداح ، والمواسي ، والمشابك ؛ صنع هذا كله من قواقع الشاطئ ، كما صنع غير ذلك من الأدوات الغليظة والدقيقة من قرون الحيوان وأنيابه وأسنانه وعظامه وشعره وجلده ؛ وكان لمعظم هذه الأدوات المصنوعة مقابض من خشب شُدّت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها ، فقد كانوا يربطون هاتيك المقابض بضفائر من الألياف أو الحبال أو عصب الحيوان ، وأحياناً كانوا يلصقونها بغراء مصنوع من مزيج عجيب من الدماء ؛ إن مهارة الإنسان البدائي توازي على الأرجح — بل ربما تفوق — مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث ، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين ، فما ذاك إلا بفضل ما تجمّع لدينا من معارف وأدوات ومواد ، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوّق فكريّ امتازت به طبائعنا من دونهم ؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغتبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقفٍ اعترضهم ، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة ؛ فبين وسائل اللهو المحبّبة إلى الاسكيمو أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة ، ثم يتسابقون هناك في ابتكار الوسائل التي يواجهون بها ضرورات الحياة التي ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات(٢٦) .

وتبدّت مهارة الإنسان البدائي في فن النسيج على صورة جديرة منه بالفخر ، وها هنا أيضاً اهتدى الإنسان بالحيوان في طريق السير ، فنسيج العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الألياف والأوراق وتقاطعها في النسيج الطبيعي الذي تراه في الغابة ، كل ذلك أقام للإنسان نموذجاً بارزاً يحتذيه ، وإنه لنموذج بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نرجح أن قد كان النسج من أول الفنون التي اصطنعها الجنس البشري ،

فنسج اللحاء والأوراق والألياف والحشائش ليصنع منها ثياباً وبُسُطا وأغطية لجدرانه ، ولقد أتقن صنعها فى بعض المواضع بحيث لا تجد من صناعة اليوم ما يفوقها بكل ما للصناعة اليوم من مُعينات وآلات ؛ فنساء « ألوشيا » قد ينفقن عاماً كاملا فى نسج ثوب واحد ؛ والهنود فى أمريكا الشمالية يصنعون البطاطين والأردية فيزخرفونها بالهُدّاب ويوشُّونها بالشعر وخيوط القصب المصبوغة بناصع الألوان التى استقطروها من التوت ، حتى لقد قال عنها « الأب ثيودى » Father Théodut : « إنها من النصوع بحيث لا أظن أن ألواننا تدنو منها »[27] ؛ فقد بدأ الفن حيث انتهت الطبيعة ؛ فهذه هى عظام الطيور والأسماك ، وهذه هى قصبات الخيزران الدقيقة ، قد تناولها الإنسان بالصقل حتى جعل منها إبراً ، ثم هذه أعصاب الحيوان قد شُدّت خيوطاً بلغت من الرقة حداً تنفذ به من سَمِّ الخياط مهما بلغ هذا من دقته وضيقه ؛ وكذلك جعل الإنسان من اللحاء فراشاً وقماشاً ، وجفف جلود الحيوان ليصنع منها رداء وحذاء ، وضفر الألياف نسيجاً قوياً ، ونسج الغصون اللينة والألياف الملوّنة سلالا أجمل مما ينتجه العصر الحديث فى هذا الباب[28]

وصناعة الخزف قريبة الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة عنها ، فهم يصنعون العجينة على إطار من أغصان الصفصاف المجدولة حتى لا تحترق هذه الأغصان ، وبذلك يتصلّب الطين غلافاً لا يقبل الاشتعال ، ويحتفظ بهيئته بعد أن يزال عنه إطار الصفصاف[29] ، ربما كان هذا أول مرحلة من مراحل طريق أخذ يتطور حتى بلغ القمة فى الصناعة الخزفية المثلى المعروفة باسم « البورسلان » أو ربما جففت أشعة الشمس قطعاً من الطين ألقيت فيها ؛ فكان ذلك منبها للإنسان إلى فن الخزف ؛ فما عليه بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة واحدة ، وهى أن يستبدل بالشمس ناراً ، ثم يَصنع لنفسه من تربة الأرض آنية مختلفة الصور يستخدمها فى شتى جوانب العيش — يستخدمها للطهى ، وللخزن ،

وللنقل ، وأخيراً يستخدمها للأبهة والزينة ، والزخارف التى كان يطبعها بأظفاره أو بآلاته على الطينة وهى بعدُ عجينة طرية ، كانت إحدى صور الفن فى أول نشأته ، وربما كانت كذلك فى إحدى مصادر الكتابة الأولى .

ومن الطين الذى جففته الشمس صنعت القبائل البدائية الآجرّ وأقامت الدُّور ، ثم سكنت فيما يصح أن نسميه بيوتا من خزف ، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء ، التى أخذت تتطور فى رقيها من الكوخ الطينىّ الذى سكنه « الهمجى » إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية فى مبانى نينوى وبابل ؛ ولقد تسلسل هذا التطور حلقة بعد حلقة يتماسك بعضها ببعض بحيث تؤدى الواحدة إلى التى تليها ؛ فبعض الشعوب البدائية — مثل الفيداويين فى جزيرة سيلان — لم يكن لهم دُور للسكنى ، واكتفوا بالأرض وطاء ، والسماء غطاء ؛ وبعضها — مثل أهل تسمانيا — أوَوْا إلى جذوع الشجر الخاوية ؛ وبعضها — مثل سكان جنوبى ويلز الجديدة — اتخذوا الكهوف مسكناً ؛ وبعضها — مثل البوشمن — كانوا يتقون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر ، وأحيانا نادرة كانوا يغرزون فى الأرض أحجاراً ثم يغطونها بالطحلب وفروع الشجر ؛ ومن هذه الحواجز التى أقيمت لاتقاء الريح ، خرجت الأكواخ حين أضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها ، وإنك لترى الكوخ فى كل مراحل تطوره ماثلا بين سكان استراليا الأصليين ، تراه من بدايته حيث كان يقام صغيراً من الغصون والأعشاب والتراب ، ولا يسع إلا شخصين أو ثلاثة ، إلى الأكواخ الكبيرة التى تؤوى ثلاثين شخصاً أو يزيد . وأما البدوى ، صائداً كان أو راعياً ، فقد آثر لنفسه خيمة فى مستطاعه حملها معه أينما انتهى به طِرادُه لصيْده ؛ لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية ، مثل الهنود الأمريكيين ، استخدمت الخشب فى بنائها ؛ وكذلك كانت قبيلة «إراكوا» تبنى من الحطب الذى لا يزال مغطى بقشوره ، أبنيه فسيحة طولها خمسمائة قدم ،

وتؤوى عدداً كبيراً من الأسر ؛ وأخيراً ترى أهل « أوقيانوسيا » يشيدون دُوراً حقيقية من ألواح الخشب التى اتقن قَطْعها وبهذه الدُّور وصل التطور فى المساكن الخشبية أكمل مراتبه(٣٠) .

لم يبق أمام الإنسان البدائى إلا ثلاث خطوات فى طريق التطور لتتم له ضرورات المدنيّة الاقتصادية كلها : آلات النقل ، وعمليات التجارة ، ووسائل التبادل ، إنك إذا أبصرت بالحمّال يحمل المتاع من طيارة حديثة لينزله على الأرض ، فقد رأيت صورة النقل فى أول مراحله وفى آخر مراحله معا ؛ فلا شك أن قد كان الرجل فى بداية الأمر يحمل أثقال نفسه بنفسه ، اللهم إلا إذا تزوج (فتكون الزوجة حاملة أثقاله) بل إن الإنسان إلى يومنا هذا ، فى آسيا الجنوبية والشرقية ، تراه فى الأعم الأغلب عربة وحمارا وكل شىء ؛ ثم اخترع الإنسان الحبال والروافع وبكَرات الجرّ ؛ سيطر على الحيوان واستخدمه ناقلا لأحماله ؛ ثم صنع أول ما شهد التاريخُ من جرّارات حين جعل ماشيته تجر على الأرض غصونا طويلة وضع عليها متاعه(*) ؛ ثم وضع جذوعا من الشجر تحت الحرارة كأنها عجلات ؛ ثم قطع الجذوع شرائح مستعرضة وابتكر بذلك أعظم اختراع آلى ، وهو العجلة ، لأنه وضع العجلات تحت الحرارة وصنع بذلك عربة ؛ ومن جذوع الشجر كذلك صنع الأطواف بربط الجذوع بعضها ببعض ، كما صنع الزوارق بحفر الجذوع وتفريغ أجوافها ، ولما تم له ذلك أصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل ؛ وأما على اليابس فقد شق لنفسه الطريق بادئ ذى بدء عبر المروج والتلال التى لم يكن فيها طريق ؛ ثم عبّد لنفسه سِكّة ثم رصف آخر الأمر طريقاً ، ودرس النجوم وأخذ بعدئذ يسير بقوافله عبر الجبال والصحراوات مهتديا إلى طريقه بالنظر إلى السماء ؛ وطفق الإنسان يسبح بزورقه دافعا إياه بالمجداف والشراع حتى عبر البحر فى شجاعة من جزيرة إلى جزيرة ، وأخيراً قطع

(*) الهنود الأمريكيون قد اكتفوا بهذه المرحلة ولم يستخدموا العجلات .

المحيطات لينشر ثقافته المتواضعة من قارة إلى قارة ؛ ففى هذا الصدد أيضاً حُلَّتْ المشكلات الرئيسية قبل أن يبدأ التاريخ المدوَّن .

ولما كانت الكفايات البشرية والموارد الطبيعية موزَّعة على الأرض فى غير مساواة ، فقد ترى شعبا من الشعوب قادراً بفضل ما تطور لديه من استعدادات خاصة ، أو بفضل قُرْبه من المواد المطلوبة ، تراه قادراً على إنتاج أشياء معينة لا يكلفه إنتاجها ما يكلف جيرانه ؛ فيمضى فى صنع هذه الأشياء حتى يصنع منها أكثر من حاجته ، وعندئذ يقدِّم فائض إنتاجه لجيرانه فى مقابل ما ينتجونه هم ، وهــذا التبادل هو أصل التجارة ؛ فهنود شِبْشا فى كولومبيا كانوا يصدرون صخور الملح التى تكثر فى بلادهم ، ويستوردون مقابل ذلك الغلال التى يستحيل استنباتها فى أرضهم القاحلة ؛ وبعض القرى التى يسكنها الهنود الأمريكيون كاد أن يتخصص فى صناعة رءوس الرماح ، بينما يتخصص بعض القرى فى غانة الجديدة فى صنع الأوانى الخزفية ؛ كذلك فى أفريقيا ترى من هذه القبائل ما يجعل الحدادة صناعته ، ومنها ما يجعل صناعته الزوارق أو الرماح ؛ ومثل هذا التخصيص فى القبائل أو القرى كثيراً ما أكسبها اسم صناعتها ، (فيطلق عليها الحدّاد ، أو السمّاك أو الخزّاف ...) ، ثم انتقلت هذه الأسماء مع الزمن إلى الاسر التى اختصت نفسها بهذه الصناعة أو تلك (١٣٠) ؛ والتجارة بفائض الإنتاج كانت فى أول أمرها تبادلا بالهدايا ، بل إنك لترى فى أيامنا هذه التى تحسب كل شىء بالأرقام أنه قد تكون الهدية (حتى ولو كانت دعوة على طعام) مقدِّمة لصفقة تجارية أو خاتمة لها ؛ ومما يَسَّرَ التبادل الحروبُ والسرقات والجزية والغرامات والتعويض ، فكل هذه وسائل عملت على انتقال السلع من مكان إلى مكان ، إذ لم يكن للإنسان مندوحة عن ذلك ؛ ثم أخذ نظام للتبادل ينشأ رويدا رويدا ، فأقيمت مراكز التجارة والأسواق والمتاجر — أقيمت أول الأمر آناً بعد آن فى غير نظام ، ثم أقيمت على فترات معلومة ، ثم أصبحت دائمة — وفى هذه الأماكن جَعَلَ مَنْ يملك

سلعة فائضة عن حاجته يعرضها مقابل سلعة هو بحاجة إليها[٣١] .

لبثت التجارة أمداً طويلا وهى لا تزيد عن هذا التبادل ، ومضت قرون قبل أن تخترع وسيلة متداولة ذات قيمة فتعمل على سرعة الحركة التجارية ؛ فقد كان الرجل من قبيلة « دياك » يجوز له أن يظل جائلا فى أنحاء السوق ممسكا بيده كرة من شمع العسل ، وباحثاً عن زبون فى مستطاعه أن يقبلها منه مقابل شىء يمكن أن يكون أنفع له[٣٢] ؛ وأول وسائل التبادل كانت سلعاً يطلبها كل إنسان ويقبلها كل بائع ثمناً لبضاعته : كالبلح والملح والجلود والفراء والحلىّ والآلات والأسلحة ؛ وفى مثل هذا التبادل كانت المدْيتان تساويان زوجا من الجوارب ، والثلاثة معاً تساوى بطانية ، والأربعة كلها تساوى بندقية ، والخمسة جميعاً تساوى جواداً ؛ كذلك كان أيّلان صغيران يساويان مُهْراً ، وثمانية أمْهُرٍ تساوى زوجة[٣٣] ؛ إنك لا تكاد تجد شيئاً لم يستعمله الناس استعمالهم للنقود هنا أو هناك ، وفى هذا الزمن أو ذاك : الفول وشصُّ السمك والقواقع واللؤلؤ والخرز وجوز الهند والحبوب والشاى والفلفل ، وأخيراً الأغنام والخنازير والأبقار والعبيد ؛ وكانت الماشية معياراً مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة ، فهى تربح بالتربية وهى سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها ؛ فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يقوّمون بالماشية : فدرع « ديوملديز » قيمتها تسعة رءوس من الماشية ، وعبدٌ ماهر يساوى أربعة ؛ واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان ، فللأولى استعملوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia ؛ وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة ؛ بل إن الكلمة التى تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهى Capital ترتد فى تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها مِلْك ، وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التى تعنى « رأس » والمقصود رأس من الماشية ، فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل سائر الأشياء فى استعمالها معياراً للقيمة ، مثال ذلك النحاس والبرونز والحديد ، وأخيراً الذهب

والفضة لأنهما يمثلان قيمة كبيرة فى حيز صغير ووزن قليل ، فأصبحا وسيلة التعامل للإنسان كافة ، وهذا الانتقال من السلع المعيارية فى التبادل إلى العملة المعدنية لم يتم على أيدى البدائيين فى أرجح الظن ، إنما هى خطوة خطاها الناس إبان التاريخ المدون ، فاخترعوا العملة وابتكروا الدين ، وهكذا زادوا ثروة الإنسان ورخاءه حين يسروا تبادل فيض ما ينتجون(٣٤) .

الفصل الثالث

التنظيم الاقتصادى

الشيوعية البدائية – أسباب زوالها –
أصول الملكية الخاصة – الرق – الطبقات

كانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائى ، لأنه لم يكن هناك مِلْك ، وبالتالى لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل فى حياة الناس وتجرّ وراءها ذيولها من أموال وأرباح ، ففى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة – فى الأعم الأغلب – فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالباً ما دفنت معه فى قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التى لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى ، فلا يكفى أن تقول إن فكرة الملكية ليست فطرية فى الإنسان ، إنما يجب أن تضيف إلى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر .

فتكاد تجد الأرض فى كل الشعوب البدائية ملكا للمجتمع بأسره ، فالهنود فى أمريكا الشمالية ، وأهالى بيرو ، وقبائل الهنود التى على تل تشيتاجونج ، وأهل بورنيو ، وسكان الجزر فى البحر الجنوبى ، مثل هؤلاء – فيما نرجح – كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرثونها جماعة ويقتسمون الثمار جماعة ، وفى ذلك قال هنود أوماها : « إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع » ، وكذلك لم يكن بيع الأرض معروفا فى ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض ، ولقد وجد الأستاذ رِفرز

شيوعية الأرض لا تزال قائمة فى مالينزيا وپولينزيا ، ويمكنك أن تلحظها اليوم قائمة فى داخل ليبريا [٣٥] ؛

وأما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشاراً ، فمن المألوف عند « الهمج » أن من يملك طعاما يقتسمه مع من لا يملك منه شيئاً ؛ كما كان من المألوف كذلك للمسافرين إذا ما أرادوا طعاما أن يقفوا عند أى دار يشاءون فى طريقهم ، بل كان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها [٣٦] ، وكان إذا ما جلس إنسان فى الغابة ليأكل وجبته ، توقع منه الناس أن يصيح لمن أراد أن يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو فى تناوله ، وبغير ذلك لا يكون الصواب فى جانبه [٣٧] ؛ فلما قص « تيرنر » على رجل من « ساموا » قصة فقير فى لندن ، سأله « الهمجى » فى دهشة : « وكيف هذا ؟ أليس هناك طعام ؟ أليس له أصدقاء ؟ أليس فى المكان بيت للسكنى ؟ أين إذن نشأ هذا الفقير ؟ أليس لأصدقائه منازل » [٣٨] ؟ والجائع من الهنود ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء ، فمهما يكن مورد الطعام ضئيلا عند المعطى ، فإنه لابد أن يعطى منه هذا السائل ما دام محتاجا ؛ « فيستحيل أن تجد إنسانا يعوزه القوت مادامت الغلال موجودة فى مكان بالمدينة » [٣٩] ؛ وكانت العادة عند الهوتنتوت أن يقتسم من يملك أكثر من سواه هذه الزيادة حتى يتساوى الجميع ؛ وقد لاحظ الرحالة البيض أثناء رحلاتهم فى أفريقيا قبل أن تدخلها المدنية ، لاحظوا أن « الرجل الأسود » إذا ما قدمت له هدية من طعام أو غيره من الأشياء ذوات القيمة ، فإنه يقسمها بين ذويه فورا ؛ وإذا ما أعطى المسافر بدلة لأحد هؤلاء السود ، فسرعان ما يرى الموهوب يلبس من الهبة جزءا كالقبعة مثلا ، ثم يرى صديقا له يلبس السراويل وصديقا آخر يرتدى السترة ، وكذلك الإسكيمو لا يرون للصائد حقا شخصيا فى امتلاك صيده ، بل يلزم توزيعه على أهل القرية جميعاً ، وكانت الآلات والمخزون من الطعام ملكا مشاعا بين الجميع وقد وصف « كابتن كارڤر » Captain Carver

هنود أمريكا الشمالية فقال « إنهم لايعرفون من فوارق الملكية شيئا سوى الأدوات المنزلية ... وهم أسخياء بعضهم لبعض غاية السخاء ، وإذا ما فاض عند أحدهم فيض ونقص عند الآخر ما يحتاج إليه ، فلابد أن يسد الأول بفيضه نقص زميله » وكذلك كتب مبشّر دينى يقول : « إن ما يثير الدهشة العميقة أن تراهم يعاملون بعضهم بعضاً برقة ومجاملة قَلَّ أن تراهما عند أكثر الأمم تحضُّراً ؛ وذلك بغير شك يرجع إلى أن لفظتى « ملكى » و « ملكك » اللتين قال عنهما القديس كريسوستم Chrysostom إنهما تخمدان فى قلوبنا شعلة الإحسان وتشعلان نار الجشع ، لايعرفهما هؤلاء الهمج » ويقول شاهد آخر : « لقد رأيتهم يقتسمون الصيد إذا كان لديهم ما يُقْتَسم ، لكنى لا أذكر مثلا واحداً لتنازعهم أو لتوجيههم النقد طريقة التقسيم كأن يقولوا إنه غير عادل أو غير ذلك من أوجه الاعتراض؛ إن الواحد منهم ليؤثر أن يرقد على معدته الخاوية ، على أن يُتَّهم بأنه أبى أن يعين المحتاج ... إنهم يعدون أنفسهم أبناء أسرة واحدة كبيرة »(٤٠) .

لماذا اختفت الشيوعية البدائية حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه فى شىء من التحيز اسم المدنية ؟ يعتقد « سَمْنَر » Sumner أنها دلت على أنها ليست بيولوجية فى اتجاهها لأنها عقبة فى سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفى لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوَّى بين الكفايات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات(٤١) ، وكتب « لوسكيل » Loskiel عن بعض القبائل الهندية فى الشمال الشرقى يقول : « إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه فى إنتاجه ؛ ولما كان النشيط لا يتمتع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الخامل ، فإن إنتاجهم يقل عاما بعد عام »(٤٢) ؛ ومن رأى داروِن أن المساواة التامة بين الفويجيين تقضى على كل أمل فى تحضّرهم(٤٣) أو ربما قال الفويجيون فى ذلك إن المدنية

إذا ما أتيهم فإنها ستقضى على المساواة القائمة بينهم ؛ نعم إن الشيوعية طمأنت هؤلاء الذين خلصوا بحياتهم من حوادث الفقر والجهل وما يترتب عليهما من مرض فى المجتمع البدائى ، لكنها لم تنتشلهم من ذلك الفقر انتشالا ، وأما الفردية فقد جاءت بالثراء ، لكنها كذلك جرّت معها القلق والرق ، نعم إن الفردية حركت فى الممتازين من الرجال قواهم الكامنة ، لكنها كذلك نفخت نار التنافس فى الحياة فأشعلتها ، وجعلت الناس يحسون الفقر إحساساً مريراً ، مع أن هذا الفقر لم يكن ليؤذى أحداً حين استوى فيه الجميع(*) .

(*) ربما كان من الأسباب التى تميل بالشيوعية إلى الظهور فى بداية المدنية أنها تزدهر ازدهاراً سريعاً فى أوقات القحط التى يندمج فيها الفرد فى جماعته مدفوعا بعامل الخطر المشترك الذى يتهدد الجميع بالموت جوعا ؛ أما إذا كثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعى بين الأفراد تقل شدته ، بمقدار ما تزداد الفردية ، فكأنما تنتهى الشيوعية حين يبدأ الترف ؛ وإذا ما ازدادت حياة المجتمع تعقداً ، وأخذ تقسيم العمل بين الناس يقسمهم فى أعمال مختلفة وصناعات مختلفة ، يصبح من المتعذر — وتزداد الصعوبة شيئاً فشيئاً — أن تكون كل هاتيك الخدمات التى يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع ؛ وإذن فلا مناص من أن الفريق الذى مكنته زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التى هى أكثر أهمية ، سيأخذ من الثروة التى تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التعادل فى التقسيم ؛ فكل مدنية نامية إن هى إلا متهد تتكاثر فيه وجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة فى الفرص السانحة ، فتنتجان فوارق أخرى صناعية فى الثروة والقوة ؛ فإذا لم يكن هنالك قوانين ، أو إذا لم يكن هناك طاغية ، يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تصل آخر الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء فى أيديهم ما يخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان فتهب الثورة بفوضاها التى تسوى بين الناس من جديد فى فقر شامل .

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً فى كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آبائهم الأولين حيث الحياة أبسط من حياتنا وأقرب إلى المساواة ؛ فإذا ما وجد الناس أنفسهم فى تفاوت يفرق بينهم وفى حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضى الذى يفيضون عليه من خيالهم مجالا بأن يذكروا ما كان فيه من مساواة وينسوا ما كان يسوءه من فقر ؛ لهذا كله ترى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام سواء بحكم التشريع أو بمناهضته ، سواء أتم هذا التقسيم الجديد بفضل « الجراشى » فى روما أو اليعقوبيين فى فرنسا أو الشيوعيين فى الروسيا ؛ وكذلك ترى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك مصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدى إلى المصادره فى نهاية الأمر ؛ وبعدئذ يبدأ السباق فى سبيل =

تستطيع الشيوعية أن تعيش فى سهولة أكثر فى مجتمعات دائمة الانتقال ، لا يزول عنها الخطر والعوز ؛ فالصائدون والرعاة ليس بهم حاجة إلى مِلْك يحتفظون به ، لكن لما أصبحت الزراعة صورة الحياة المستقرة ، لم يلبث الناس أن تبينوا أن العناية بالأرض تبلغ أقصاها من حيث غزارة الثمر إذا ما عاد جزاء تلك العناية إلى الأسرة التى قامت بها ؛ فنتج عن ذلك بحكم الانتخاب الطبيعى الكائن بين النظم الاجتماعية والأفكار ، كما هو كائن بين الأفراد والجماعات ينتج أن الانتقال من الصيد إلى الزراعة استتبع تحولا من المِلْكية القَبَلِيّة إلى مِلْكيّة الأسرة ؛ وبذلك أصبحت أكثر الوحدات الاجتماعية اقتصاداً فى نفقات الإنتاج ، هى كذلك وحدة المِلْكية ؛ فلما أن أخذت الأسرة شيئاً فشيئاً تتخذ الصورة الأبوية التى تُركّز السلطة كلها فى أكبر الذكور سنا ، أخذت المِلْكية كذلك يزداد تركزها شيئاً فشيئاً فى أيدى أفراد ، ثم نشأ التوريث لشخص معين عن شخص معين ؛ ولما كان كثيراً ما يحدث لفرد مغامر أن يغادر مرفأ الأسرة الآمن ، ليضرب بمغامراته خارج الحدود التى وقف عندها ذووه ، ثم ينتهى به العمل المتصل الشاق أن يستولى على قطعة أرض من الغابة أو الحرج أو المستنقع ؛ فإنه يحرص عليها حرصاً شديداً لا يسمح لغيره بانتزاعها لأنها مِلْكه الخاص ، حتى لتضطر الجماعة فى النهاية أن تعترف بحقه فيها ، وبهذا نشأ ضرب آخر من ضروب المِلْكية الفردية[43 ا] ومثل هذا الاستيلاء على الأراضى أخذ يزداد اتساعاً حين ازداد السكان واستُنفِدَت قوة الأرض القديمة ، حتى وصل الأمر فى المجتمعات

= الثروة والمتاع والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة فى هيئة الهرم مرة أخرى فمهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلا بد للأقدر من الناس أن يظفروا بالتربة الأخصب بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة الأعلى ويأخذوا نصيب الأسد ؛ وسرعان ما تبيح لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة وأن يعيدوا سن القوانين أو يعيدوا شرحها بحيث تتفق وهواهم ، فيأتى يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان قبل ؛ فالتاريخ الاقتصادى كله — فى هذا الصدد — إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعى ؛ هو انقباض لهذا القلب الكبير ثم انبساط ، يتمثلان فى تركز الثروة تركزا طبيعيا ثم انفجار الثروة انفجارا طبيعيا كذلك .

الأكثر تعقداً من سواها ، إلى أن باتت المِلْكيـة الفردية هى النظام السائد ، ثم جاء اختراع المال فساعد هذه العوامل بتيسيره لجمع الثروة ونقلها وتحويلها ؛ واتخذت حقوق القبيلة القديمه وتقاليدها صورة المِلْكية بمعناها الدقيق ، وأما المالك عندئذ فهو أهل القرية جماعةً أو الملك ، ثم خضعت المِلْكية لإعادة التوزيع حيناً بعد حين ؛ ومضى هذا العصر الذى جعل أمر المِلْكية يتذبذب فيه على هذا النحو من طرف إلى طرف ، بين النظام القديم والنظام الجديد ، وبعدئذ استقرت المِلْكية الفردية الخاصة استقراراً لا شُبْهة فيه ، وأصبحت هى النظام الاقتصادى الأساسىّ الذى أخذت به المجتمعات فى العصور التى دوَّن أخبارَها التاريخ .

لكن بينا كانت الزراعة تُنْشئ المدنيَّة إنشاءً ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام المِلْكية ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذى لم يكن معروفاً فى الجماعات التى كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص . لأن زوجة الصائد وأبناءه كانوا يقومون بالأعمال الدَّنيَّة ، وكان فيهم الكفاية لذلك ، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب فى حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدَّعة بعد الإجهاد والعناء ؛ ولعل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ — فيما نظن — من هذه العادة ، عادة الاستجمام البطىء بعد عناء القتال والصيد ؛ ولو أنها لم تكن عندئذ كسلا بمقدار ما كانت راحة واستجماماً ؛ فلكى تحوِّل هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطّرد ، لا بد لك من شيئين : العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وتنظيم العمل .

وأما تنظيم العمل فيظل مُنْحَلَّ العُرى لَدُنِّيَّ النشاط ما دام الناس يعملون لأنفسهم ؛ لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد فى النهاية على القوة والإرغام ؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهيا إلى استخدام الضعفاء اجتماعيا بواسطة الأقوياء اجتماعيا ، ولم يتنبَّه الظافر فى القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذى ينفعه هو الأسير الحىّ ، وبذلك قلّت

المجازر وقلّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض ، كلما زاد نظام الرق اتساعاً[44] وإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيما حين أقلع عن قتل زميله الإنسان أو أكله ، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ؛ وإنك لترى تطوراً كهذا يتمّ اليوم على نطاق واسع ، إذا أقلعت الأمم الظافرة عن الفتك بالعدو المغلوب ، واكتفت باسترقاقه عن طريق التعويض الذى تقتضيه إياه ؛ ولما استقر نظام الرق على أسسه وبرهن على نفعه ، أخذ يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى ، فأضيف إليهم المَدِينون الذين لا يوَفّون الدَّيْن ، والمجرمون الذين يعاودون الإجرام ، هذا إلى إغارات تُشَنّ عمداً لاجتلاب الرقيق ؛ وهكذا كانت الحرب بادئ الأمر عاملا على نشأة الرق ، ثم أصبح الرق عاملا على شنّ الحروب .

ولعل نظام الرق حين امتدّت به القرون قد أكسب الجنس البشرى تقاليده وعاداته من حيث العمل ، فلن تجد بيننا أحداً يقدم على عمل شاق عسير إذا كان فى مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشىء من العقاب البدنى أو الاقتصادى ، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به الإنسان للقيام بالصناعة ، هذا فضلا عن أنه عمل على تقدم المدنيّة بطريق غير مباشر ، بأن زاد من الثروة فخَلَق الفراغ لفئة قليلة من الناس ، ولما مَضَت قرون على هذا النظام ، جعل الناسُ ينظرون إليه كأنه نظام فطرىّ لا غنى عنه ، بهذا قال أرسطو وكذلك بارك القديس بولس هذا النظام الاجتماعى الذى لابد أن يكون قد بدا لعينيه فى عصره نظاماً قضى به الله .

هكذا أخذت الزراعة وأخذ نظام الرق ، كما أخذ تقسيم العمل وما يقتضيه من اختلاف بين الناس ، أخذ كل هذا يستبدل شيئاً فشيئاً بالمساواة التى كانت قائمة فى الجماعة الطبيعية تفاوتاً وانقساماً إلى طبقات « فى الجماعة البدائية لا ترى — على وجه العموم — فارقاً بين حرّ وعبد ، ولا تجد فيها رقا ولا طبقات ، ثم

لاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدراً ضئيلا »[٤٥] . وبالتدريج ازدادت الآلات والصناعات تعقداً ، فعمل ذلك على إخضاع الضعيف العاجز إلى مشيئة القوىّ الماهر ، وكان كلما ظهر اختراع جديد ، أصبح سلاحاً جديداً فى أيدى الأقوياء ، فزاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلالهم لهم[*] ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز فى الفُرَص السانحة امتيازاً فى الأملاك ، فقَسَّمَت المجتمعات التى كانت يوما متجانسة إلى عدد لا يحصيه النظر من طبقات وأوساط ؛ وأحَسّ الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم إحساساً يؤدى إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال عصور التاريخ كأنها خيط أحمر ، فاقتضى هذا النزاع بين الطبقات قيام الدولة التى لم يَعُد عن قيامها محيص لتنظيم تلك الطبقات ولحماية الأملاك ولشنّ الحروب ولتنظيم السلام .

(*) وكذلك فى عصرنا أدى سيل الاختراعات الذى نسميه بالثورة الصناعية إلى توسيع التفاوت الطبيعى بين الناس .

الباب الثالث

العناصر السياسية فى الحضارة

الفصل الأول

أصول الحكومة

الغريزة الاجتماعية — الفوضى البدائية — القبيلة والعشيرة — الملك — الحربّ

ليس الإنسان حيواناً سياسيا عن رضى وطواعية ، فالرجل من الناس لا يتحد مع زملائه مدفوعاً برغبته بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد والظروف القاهرة ؛ فهو لا يحب المجتمع بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك تراه يتحد مع غيره من الناس لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يَجُود أداؤها بالتعاون أكثر مما يَجُود بالانفراد ، وعلى ذلك فالرجل من الناس وحشىّ فى صميمه يتصدى للعالم كله تصدى العدوّ لأعدائه بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ؛ فلو قد جرَت الأمور على ما يشتهى الإنسان المتوسط لكان الأرجح ألا تقوم للدولة قائمة ؛ بل إنك لتراه فى يومنا هذا يمقت الدولة مقتاً ، ولا يفرّق بين الموت وجباية الضرائب ؛ ويتحرّق شوقاً لحكومة لا تحكم من أموره إلا أقلها ؛ ولو رأيته يطالب بزيادة فى القوانين فما ذاك إلا لأنه يعتقد أن جاره لا بد له من تلك القوانين أما هو إذا ما تُرك لهواه ، فينزع إلى الفوضى التى لا يضبطها تفكير فلسفى ، ويظن أن القوانين — فيما يختص بحالته — زائدة لا حاجة إليها .

ولو نظرت إلى أبسط المجتمعات تكويناً لأوشكت ألا ترى فيها حكومة على أية صورة من الصور ، فالصائدون البدائيون لا يميلون إلى قبول التقنين إلا حين

ينضمون إلى جماعة الصيد ويستعدون لدوْر النشاط ؛ أما فى غير هذا فترى قبيلة البوشمن تعيش عادة فى أُسرَات معتزل بعضها عن بعض ؛ وكذلك أقزام أفريقيا وأهل استراليا الفطريين لا يقبلون التنظيم السياسى إلا موقتاً ، حتى إذا ما فرغت مهمته انتشروا من جديد فى أُسْرَات كل منها قائم بذاته ؛ وليس لأهل تسمانيا رؤساء ولا قوانين ولا حكومة دائمة ، والفيديون من سكان سيلان انقسموا جماعات على أساس الروابط العائلية ، لكن لم يكن عليهم حكومة ، والكوبيون فى سومطره « يعيشون بغير سلطان » وتحكم كل أسرة نفسها ؛ وقلما تجد الفويجيين فى جماعات تزيد عن اثنى عشر ؛ وكذلك التنْجيُّون يجتمعون اجتماعات متفرقة لا تزيد الجماعة منها عن عشر خيمات أو ما يقرب من ذلك ، ولا يزيد « الحشد » من الاستراليين عن ستين شخصاً إلا فى القليل النادر[1] ، ولا تلتئم هـذه الجماعة ولا تتعاون إلا لأغراض خاصة مثل الصيد ، دون أن تتحد فى نظام سياسىّ دائم .

كانت القبيلة أول صورة للنظام الاجتماعى الدائم — ونقصد بالقبيلة جماعة من أسْرات ترتبط بأواصر القربى ، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوع ولها طوطم مشترك وتحكمها حكومة بعينها وفق قوانين معينة ؛ فإذا ما اتحدت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة ؛ فالعشيرة هى الخطوة الثانية نحو تكوين الدولة ؛ لكن التطور فى هذه السبيل كان بطيئاً إذ كان كثير من الجماعات بغير رؤساء[2] وجماعات أخرى كثيرة لم تقبل نظام الرئاسة — فيما نظن — إلا فى وقت الحرب[3] فالديمقراطية ليست من مزايا عصرنا التى يُزْهى بها على العصور السوالف ، لأنها تظهر على خير وجوهها فى كثير من الجماعات البدائية حيث لا تكون الحكومة القائمة عليها سوى ما يشير به رؤساء الأُسَر فى العشيرة — ولم يُسْمح قط بقيام السلطة جزافا[4] فالهنود من قبائل « إراكوا » و« دلاوير » لم يعترفوا بشىء من القوانين أو الضوابط خارج نطاق النظام

الطبيعى الذى تقضى به الأسرة أو العشيرة ؛ ولم يتمتع رؤساؤهم إلا بسلطة متواضعة فى مقدور شيوخ العشيرة أن ينسخوها فى أى وقت شاءوا ؛ وكان يقوم على هنود « أوماها » « مجلس السبعة » الذى يظل أعضاؤه يتشاورون فى الأمر حتى يصلوا إلى إجماع فى الرأى ؛ فإذا أضفت إلى هذا جمعية الأراكوا المشهورة ، التى تم فيها الاتفاق بين قبائل كثيرة ، فارتبطت القبائل بما اتفقت عليه من عهود فى حفظ السلام ، لم تجد هوة سحيقة تفصل بين هؤلاء « الهمج » وبين الدول الحديثة التى تتعهد بنشر السلام فى جمعية الأمم تعهداً قد يُخلّون به .

لكنها الحروب هى التى تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة ؛ كما أن هؤلاء جميعاً هم الذين يعودون فيخلقون الحروب ؛ ففى « ساموا » كانت للرئيس سلطة إبان الحرب ، أما فى غير ذلك فلم يكن يأبه له الناس كثيراً ؛ وقبيلة « دياك » لم تكن تعرف من الحكومة إلا ما لرأس الأسرة على أسرته من سلطان ، فإن نشب القتال كانوا يختارون أشجع مقاتليهم فيولونه القيادة ويطيعونه طاعة عمياء ، حتى إذا ما فرغوا من قتالهم ، نزعوه وأرجعوه إلى عمله السابق بمعنى هذه العبارة الحرفى[٥] ؛ وأما فى فترات السلم فقد كان أكثر السلطة والنفوذ للكاهن أو رئيس السَّحَرة ؛ فلما تطور نظام الحكم ، وأصبحت الملكية هى الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل ، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء ، وجمعت تلك الوظائف كلها فى يدها : وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن ؛ وإنك لترى الجماعات تحكمها قوتان : تحكمها الكلمة فى وقت السلم ، ويحكمها السيف إبان الشدائد ؛ وإذن فالقوة لا تستعمل إلا حينما يفشل الإرشاد بالقول ؛ ولقد سار القانون والعقائد الأسطورية جنباً إلى جنب خلال العصور ، يتعاونان معاً على حكم البشر ، أو يتعاقبان الواحد بعد الآخر ، ولم تجرؤ دولة من الدول حتى يومنا هذا أن تفصل بينهما ، ومن يدرى لعلهما يعودان فيتحدان غداً .

ولكن كيف انتهت الحرب إلى قيام الدولة ؟ لم يكن ذلك لأن الإنسان ميال بفطرته للحروب ، فبعض الشعوب المتأخرة غاية فى حب السلام ، ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوربيون بعضهم بعضاً كأنهم الحيتان — مع أنهم يدينون جميعاً بعقيدة مسالمة واحدة — ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض ، ولذا قالوا فى تمجيد أرضهم : « ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجا وجليداً ! ما أجمل أن يكون الذهب والفضة اللذين إن كانا كامنيْن فى صخورنا — الذهب والفضة اللذين يتكالب عليها المسيحيون تكالبا جشعا — فإنهما يكونونان تحت غطاء كثيف من الثلج بحيث لا يستطيعون الوصول إليهما ! إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤدٍّ إلى سعادتنا ومنقذنا من اعتداء المعتدين »[٦] ومع ذلك فحياة البدائيين قد تخللتها حروب لا تنقطع ؛ فالصائدون كانوا يقاتلون من أجل المصائد التى لم تزل عامرة بصيدها ، كما كان الرعاة يقاتلون فى سبيل المراعى الجديد من أجل قطعانهم ، والزارعون يقاتلون ليستولوا على التربة العذراء ؛ وكل هؤلاء وأولئك كانوا يقاتلون حينا بعد حين ليثأروا لقتل ، أو لينشِّئوا ناشئتهم على الصلابة والنظام ، أو ليجددوا الحياة الرتيبة المملولة ، أو ليظفروا بغنيمة يسلبونها أو أسيرة يخطفونها ، وقليلا ما حارب هؤلاء وأولئك من أجل الدين ؛ نعم لقد كان بينهم أنظمة وعادات تحدد القتل ، كما هى الحال بيننا — فعينوا ساعات بعينها أو أياما أو أسابيع أو أشهراً لا يجوز للهمجى الكريم النفس أن يقتل أحداً خلالها ؛ كذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها ، وبعض الطرق لا ينبغى أن يُعْتدى عليها ، وبعض الأسواق والمستشفيات لا ينشب فيها قتال ؛ ومن هذا القبيل أن عملت « جمعية الأراكوا » على قيام « السلم الأعظم » مدى ثلاثمائة عام[٧] ، لكن الحرب مع هذا كله كانت هى الأداة المختارة للانتخاب الطبيعى بين الأمم والجماعات البدائية .

ولم يكن للنتائج المترتبة على الحروب نهاية تقف عندها فقد كانت عاملا

لا يرحم فى اقتلاع الشعوب الضعيفة والقضاء عليها ، ورفعت مستوى الإنسان من حيث الشجاعة والعنف والقسوة والذكاء والمهارة ؛ وحفزت الإنسان على الاختراع ، وأدّت إلى صنع آلات أصبحت فيما بعد أدوات نافعة ، وإلى اصطناع فنون للحرب سرعان ما انقلبت فنونا للسلم ؛ (فكم من السكك الحديدية اليوم تبدأ على أنها جزء من خطة القتال ، ثم تنتهى وسيلة من وسائل التجارة !) وفوق هذا كله عملت الحرب على انحلال الشيوعية والفوضى اللذين سادا الجماعات البدائية وأدخلت فى الحياة نظاما وقانونا ، وأدت إلى استرقاق الأسرى وإخضاع الطبقات وقيام الحكومات ؛ فالدولة أمّها الملكية وأبوها القتال .

الفصل الثاني

الدولة

باعتبارها تنظيما للقوة – المجتمع القروى – الأركان النفسية للدولة

يقول نيتشه : « إن جماعة من الوحوش الكواسر شقراء البشرة » جماعة من الغزاة السادة ، بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منظّمة ، تنقضُّ بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعد نظاما يحدد أوضاعها ... ذلك هو أصل الدولة »[٨] ، ويقول « ليسْتَرْ وورد » Lester Ward : « تبدأ الدولة – باعتبارها مختلفة عن النظام القَبَلى – بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر »[٩] ؛ ويقول « أو پنهيمر » Oppenheimer : « إنك لترى أينما وجّهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتال ، ثم تستقر فى أرضها مكوِّنَةً جماعة الأشراف فيها ، ومؤسِّسَةً لها الدولة »[١٠] ؛ ويقول « راتسنهوفر » Tatzenhofer « العنف هو الأداة التى خلَقَتْ الدولة »[١١] ويقول « جَمْپلوڤتش » Gumplawicz إن الدولة نتيجة الغزو ، هى قيام الظافرين طبقةً حاكمةً على المهزومين[١٢]. ويقول « سَمْنَرْ » Sumner « إن الدولة نتيجة القوة وهى تظل قائمة بسند من القوة »[١٣] .

وهذا الإخضاع العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة ، من قبيلة من الصائدين والرعاة[١٤] لأن الزراعة تعلّم الناس الأساليب المسالمة ، وتروضهم على حياة رتيبة لا يختلف يومها عن أمسها ، وتنهكهم بيوم طويل من عمل مجهد ؛ مثل هؤلاء الناس يجمعون ثروة ، لكنهم ينسون فنون الحرب ومشاعرها ؛ أما الصائد وأما الراعى ، وقد ألفا الخطر ومَهَرَا فى القتل ، فإنهما ينظران إلى الحرب

كأنها ضرب آخر من مطاردة الصيد ، لاتكاد تزيد عن المطاردة فى خطرها ؛ فإذا نضب معين الغابات ولم يَعُدْ يمدهم بما يشتهون من صيد ، أو إذا ما قلّتْ قطعانهم بسبب اضمحلال المراعى : فإن رجال الصيد والرعى عندئذ ينظرون بعين الحسد إلى حقول القرية بما تحوى من ثمار ، وسرعان ما ينتحلون تبريراً للهجوم شأنهم فى ذلك شأن المحدثين فى استسهال هذا الانتحال ؛ ثم يغزون فيغلبون فيسترقون فيحكمون(*) الدولة مرحلة متأخرة فى سلم التطور لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدوّن ، لأن قيام الدولة يقتضى تغيراً فى مبدأ التنظيم الاجتماعى من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لذوى القربى كما كانت القاعدة السائدة فى المجتمعات البدائية ، وإنما يكون نظام السيطرة فى أنجح حالاته إذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة ، بعضها ببعض برباط يفيدها من نظام وتجارة ؛ وحتى وهو فى هذه الحالة تراه لا يدوم طويلا إلا فى القليل النادر ، اللهم إلا إن كان التقدم فى الاختراع قد زاد من قوة القوىّ بأن وضع فى يديه أدوات وأسلحة تمكنه من كبت الثورة إذا اشتعلت ؛ وفى حالة السيطرة الدائمة ترى مبدأ التسلط يميل إلى إخفاء نفسه حتى ليكاد يدسّ نفسه فى ثنايا اللاشعور ؛ فلما ثار الفرنسيون سنة ١٧٨٩ أوشكوا ألا يتبيّنوا — حتى ذكّرهم بالحقيقة كاميل ديمولان Camille Desmolins — أن طبقة الأشراف كانت تحكمهم منذ ألف عام جاءتهم من ألمانيا وأخضعتهم لسلطانها بالقوة ؛ حقا إن الزمن ليخلع على كل شىء مسحة من قدسية ، حتى أخبث السرقات فمن أن يبدو فى أيدى أحفاد اللص الذى سرق ، مِلْكاً مقدسا لا يجوز عليه

(*) هذا القانون ينطبق على الجماعة الأولى وحدها ، لأنه حين تتعقد ظروف الحياة الاجتماعية ، يتدخل فى الأمر عوامل أخرى هى التى تحدد الموقف : كازدياد الثروة وجودة السلاح والتفوق فى الذكاء ، فمصر لم يغزها الهكسوس والأثيوبيون والعرب والأتراك فحسب وكلهم من البدو — بل غزتها كذلك مدنيات مستقرة من أشور وفارس واليونان وروما وانجلترا — ولو أن هذه الأمم لم تغزها إلى حين انقلبت صائدة بدوية على نطاق الاستعمار الواسع .

اعتداء ؛ إن كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هى مضمون الضمير ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعلَم .

والمواطن فى ذلك على صواب ، فمهما تكن بداية الدولة فسرعان ما تصبح دعامة لا غنى عنها للنظام ، لأنه إذا ما ربطت التجارة طائفة من القبائل والعشائر ، نشأت بين الناس علاقات لا تعتمد على القرابة بل تعتمد على ما بين الناس من اتصال ، وإذن فلابد لمثل هذه العلاقة من أساس للتنظيم يُصْطنع لها اصطناعا ، ونستطيع أن نسوق مجتمع القرية مثلاً لذلك : فالقرية هى التى حلت محل القبيلة والعشيرة وأصبحت هى صورة التنظيم الاجتماعى المحلى ؛ فأقامت لنفسها حكومة بسيطة تكاد تكون ديمقراطية ، حكومة قوامها مناطق صغيرة يجتمع عنها رؤساء الأُسر ؛ لكن مجرد وجود هذه الجماعات وكثرة عددها ، استلزم تدخل قوة خارجية تنظم ما بينها من علاقات ، وتنسجها جزءاً من شبكة اقتصادية أوسع ، والدولة هى التى سدّت هذه الحاجة مهما يكن فيها مما يخيف ويُفزع أول أمرها ؛ إنها لم تعُدْ قوة منظّمة وكفى ، بل أصبحت كذلك أداة توائم بين مصالح مئات الجماعات المتضاربة التى منها يتألف المجتمع فى صورته المركبة ، ولما تم للدولة ذلك مدّت حبائلها من سلطان وقانون وأخذت توسِّع نطاقها شيئا فشيئا ؛ وعلى الرغم من أنها صيَّرت الحرب الخارجية أكثر تخريبا مما كانت قبل تكوينها ، إلا أنها استطاعت أن توسّع السلام الداخلى وتثبت أركانه ؛ ولك أن تعرِّف الدولة بأنها سلام فى الداخل استعداداً للحرب فى الخارج ؛ ولم يلبث الناس أن يتبينوا أن دفع الضرائب للدولة خير لهم من التقاتل بعضهم مع بعض ، خير لهم أن يدفعوا الجزية للص واحد عظيم من أن يدفعوا الرشوة للجميع ، وإذا أردت أن تعلم ماذا عسى أن يقع فى مثل هذا المجتمع إذا خلا من الحاكم لفترة من الزمن ؛ فانظر ماذا تصنع جماعة « الباجَنْدا » التى اضطر كل رجل فيها حين مات الملك أن يسلّح نفسه ،

لأن الخارجين على القانون أنشبوا أظفار الفوضى والقتل والنهب في أرجاء البلاد جميعاً[١٥] ؛ وقد صدق « سبنسر » حين قال : « إنه بغير حكم أوتوقراطى كان يستحيل على تطور المجتمع أن يبدأ مراحله »[١٦] .

على أن الدولة التى تعتمد على القوة وحدها سرعان ما يتقوض بناؤها ، لأن الناس وإن يكونوا بطبعهم أغراراً ، فهم كذلك بطبعهم ذوو عناد ؛ والقوة مثل الضرائب تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ؛ ومن هنا لجأت الدولة — لكى تبقى على نفسها — إلى أدوات كثيرة تستخدمها وتصطنعها فى بث تعاليمها — كالأسرة والكنيسة والمدرسة — حتى تبذر فى نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ؛ ولقد أغناها هذا التنشيء عن مئات من رجال الشرطة ، وهيأ الرأى العام للتماسك فى طاعة وانصياع ، فمثل هذا التماسك لا بد منه فى حالة الحرب ؛ وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحول سيادتها التى فرضتها على الناس فرضاً بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تبلور سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام من جهة أخرى وهى تعترف بحقوق « الرعية »(*) اعترافاً تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة .

(*) الكلمة بالإنجليزية Subject وفيها معنى الخضوع ، ولذلك كتب المؤلف هامشا يقول : لاحظ كيف تكشف هذه الكلمة عن أصل الدولة . (المعرب)

الفصل الثالث

القانون

انعدام القانون – القانون والعادة – الثأر – الغرامات
المحاكم – المحنة – المبارزة – العقاب الحرية البدائية

يأتى القانون مصاحباً للمِلْكية والزواج والحكومة ؛ فأحط المجتمعات تُدبِّر أمرها بغير قانون ؛ يقول « ألفرد رسل ولاس » : « لقد عشت مع جماعات الهمج فى أمريكا الجنوبية وفى الشرق ، ولم أجد بينهم قانون ولامحاكم سوى الرأى العام الذى يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً ، فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً ، فالاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو يستحيل ، إن الناس جميعاً فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً »(١٧) ؛ وكذلك كتب « هرمان ملفيل » Herman Melville شيئاً كهذا عن أهل جزيرة ماركساس Marqusas فقال : « أثناء وجودى بين قبيلة « التايبى » Typees لم يُقَدَّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ؛ وسار كل شىء فى الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة لا تجد لها مثيلا فى الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها خيرها وأصفاها وأتقاها ؛ وإن فى هذا القول منى لجرأة أستبيحها لأنه قول الصدق »(١٨) ؛ ولقد أقامت حكومة الروسيا القديمة دوراً للمحاكم فى جزر ألوشيا لكنها لم تصنع شيئاً قط مدى خمسين عاماً ، ويقول « برِنْتُنْ » Printon : « كانت الجرائم والاعتداءات فى قبيلة إراكوا من القلة فى ظل نظامهم الاجتماعى بحيث تكاد لا تجد ما يبرر أن تقول إن لهم قانوناً للعقوبات »(١٩) ، هذه هى الظروف المثالية أو ربما كانت صورتها المثالية من خلقنا نحن – التى يتمنى الفوضويون عودتها

لكن هذه الصورة يجب أن تعدّل بعض التعديل ؛ فالجماعات الفطرية تتمتع بحرية نسبية من قيود القانون ، أولا لأنها محكومة بعادات هي فى صرامتها وفى استحالة الخروج عليها كأى قانون ، وثانيا لأن جرائم العنف فى أول الأمر تعتبر مسائل خاصة يُقْضى فيها بالثأر الشخصى الذى تُسفح فيه الدماء .

إن التقاليد لتكوّن أساساً ثابتاً مكينا تراه مستقرا تحت الظواهر الاجتماعية كلها ؛ فهى بمثابة الصخرة الراسخة فى أسفل البناء ، وقوامها ألوان الفكر وضروب الفعل التى خلع عليها مرُّ الزمان هالة من تقديس ، وهى تُمِدُّ المجتمع بشىء من الثبات والنظام إذا ما انتفى القانون أو تغير أو اضطرب ؛ فالتقاليد فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيانه من استقرار للنوع البشرى ، كما تشبه العادات بالقياس إلى الفرد الواحد ؛ والتقاليد هى الاطّراد المكرور الذى يحفظ للناس عقولهم فى رءوسهم لأنه إذا لم تكن لدى الإنسان هذه القنوات التى ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقا لاشعوريا يسيرا ، لاضطر العقل أن يتردد إزاء كل شىء وسرعان ما يلوذ بالجنون مهرباً ؛ والغرائز والعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية كلها تتحدد وفق قانون اقتصادى يستغنى بالقليل عن الكثير ، لأن العمل الآلىّ هو أنسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجى إذا تكرر ، أو للموقف المعين إذا تجدد حدوثه ؛ أما التفكير الأصيل والتجديد فى السلوك فهو اضطراب فى مجرى الاطّراد ، ولا يستطيعه الإنسان إلا فى الحالات التى يريد فيها أن يغيِّر من سلوكه المألوف بحيث يلائم الموقف الذى يحيط به ، أو فى الحالات التى يأمل فيها أن يكافأ على تجديده وتفكيره كسباً موفوراً .

فإذا أضيف إلى هذا الأساس الطبيعى وهو التقاليد ، تأمين يأتيه من السماء عن طريق الدين ، وأصبحت تقاليد آبائنا هى كذلك ما تريده لنا الآلهة من سلوك ، عندئذ تصبح التقاليد أقوى من القانون ، ويبعد الإنسان عن حريته البدائية بعداً جوهرياً ؛ إنك إذا جاوزت حدود القانون فقد كسبت إعجاب نصف

الناس الذين يحسدون فى أعماق نفوسهم كل من يستطيع أن يتغلب بذكائه على هذا العدو القديم ؛ أما إذا جاوزت حدود التقاليد فأنت قمين أن تصطدم بمقت الجميع لأن التقاليد تنشأ من الناس أنفسهم ، بينما يفرض عليهم القانون فرضاً من أعلى ؛ القانون عادة مرسوم قضى به السلطان ، أما التقاليد فهى الانتخاب الطبيعى لألوان السلوك التى ثبتت صلاحيتها فى خبرة المجتمع ، والقانون يأخذ فى حلوله محل التقاليد حين تحل الدولة محل الأسرة والقبيلة والعشيرة والمجتمع القروى ، وكلها أنظمة طبيعية ؛ ثم يتم حلول القانون محل التقاليد حين تظهر الكتابة ، وتتدرج القوانين فى انتقالها من تشريع يهبط إلى الخلف عن طريق ذاكرات الشيوخ والكهنة ، إلى نظام تشريعى صريح مكتوب على ألواح ، لكن حلول القانون محل التقاليد لم يكمل فى يوم من الأيام ؛ وستظل التقاليد حتى النهاية هى القوة الكامنة من وراء القانون حين يقرر الإنسان أى نوع من السلوك ينبغى أن يسلك ، وحين يحكم على أنوع السلوك بالخير والشر ؛ ستظل التقاليد حتى النهاية هى القوة الكامنة وراء العرش ، « هى الحكم الأخير الذى يقضى فى حياة الإنسان » .

وأول المراحل فى تطور القانون أخذ الإنسان لنفسه بالثأر فيقول الرجل من البدائيين : « إن الثأر ثأرى وسأردّ عن نفسى ما لَحِقَ بى » ، وكل فرد من القبائل الهندية التى تسكن « كالفورنيا السفلى » هو لنفسه الشرطىّ وهو الذى يقيم لنفسه ميزان العدل بما تسعفه قوّته من الثأر : ففى مجتمعات بدائية كثيرة إذا حدث لشخص « ا » أن اغتال شخصاً آخر هو « ب » كانت النتيجة أن يُقْتل « ا » على يد ابن « ب » أو صديقه . ولنرمز له بالحرف « حـ » ، ثم يُقتل هذا الابن أو الصديق على يد شخص رابع هو « د » يكون ابن « ا » أو صديقه وهكذا حتى تنتهى أحرف الهجاء ، وإنك لترى أمثلة للثأر فى أنقى العائلات الأمريكية دماً فى يومنا هذا ، ولقد امتد الثأر ما امتد القانون نفسه فى عصور

التاريخ ، وهو يظهر فى « القِصَاص » المذكور فى القانون الرومانى ؛ والقصاص يلعب دوراً كبيراً فى تشريع حمورابى ، وتراه فى أمر « موسى » بأن تكون « العين بالعين والسن بالسن » وهو ما يزال كامناً وراء الكثرة الغالبة من العقوبات القضائية حتى اليوم .

والخطوة الثانية نحو القانون والمدنية من حيث التصرف إزاء الجريمة ، هى الأخذ بالتعويض بدل الثأر ، فكثيراً جدا ما استعمل الرئيس سلطته أو نفوذه لكى يحافظ على حُسن العلاقات بين أفراد جماعته — ليحمل الأسرة الراغبة فى الأخذ بالثأر على أن تستبدل بالدم المطلوب ذهباً أو متاعاً ؛ ثم ما هو إلا أن نشأت « تَعْرِيفة » قانونية ، تحدّد كم من المال ينبغى أن يدفع ثمناً للعين وكم للسن وكم للذراع وكم للحياة ، وقد توسع حمورابى فى تشريعه على هذا الأساس ؛ وقد كان أهل الحبشة غاية فى الدقة فى العقوبة بالقصاص بحيث إذا سقط صبى من أعلى الشجرة على زميله وقتله ، فإن القاضى يحكم بأن ترسِل الأم الثكلى ابناً آخر من أبنائها ليسقط من أعلى الشجرة على عنق الصبى الذى اقترف الذنب أول مرة[٢١] ، والعقوبات التى تُقَدَّر فى حالة التعويض ، قد تختلف باختلاف جنس المعتدى والمعتدى عليه ، وعمره ومنزلته ، فالفيچيون — مثلاً — يعتبرون السرقة الطفيفة يأتيها إنسان من سواد الناس ، أشنع إجراماً من القتل يقترفه الرئيس[٢٢] وهذا ما حدث طوال تاريخ القانون ، ففداحة الجريمة كانت دائماً تقل بعلو منزلة المجرم[*] ولما كانت هذه الغرامات أو التعويضات التى تدفع اجتناباً للثأر ، تتطلب تقديراً للجريمة وللتعويض بحيث يتلاءمان ، اتخذت خطوة ثالثة نحو القانون ، وهى قيام المحاكم ، حيث كان الرؤساء أو الكهنة أو الشيوخ يجلسون مجلس القضاة ليقضوا فيما ينشب بين الناس من خلاف ، ولم تكن هذه المحاكم

(*) يجوز لنا أن نستثنى من ذلك البراهما الذين اقتضاهم تشريع مانو أن يتحملوا عقوبة أعظم مما تنزل بأفراد الطبقات الدنيا على نفس الجريمة لكن هذا القانون لم يؤخذ به فعلا .

دائما مجالس تقضى كما يقضى القضاة ، بل كثيراً ما كانت مجالس لإصلاح ذات البَين ، فكانت تصل بالمتخاصميْن إلى حل يرضيهما معاً بصورة ودّية(*) ؛ ولبث الالتجاء إلى المحاكم اختياريا لدى كثير من الشعوب مَدَى قرون طوال ، وكان المعتدى عليه إذا لم يُرْضه الحكم الصادر فى شأنه ، يباح له أن يأخذ ثأره بيده(٢٢) .

وفى حالات كثيرة كان البتّ فى أمر الخصومات يتم فى صورة عراك يجرى على مرأى من الناس بين المتخاصمين ، وكان هذا العراك يختلف فى مدى إراقته للدماء ، من مباراة فى الملاكمة لا يترتب عليها شىء من الأذى — كما هى الحال بين الأسكيمو الحكماء — إلى مبارزة تنتهى بالموت ؛ وكثيراً ما لجأ البدائيون إلى اصطناع المحنة فى فضّ مشكلاتهم ، غير أنهم لم يقيموها على أساس النظرية التى سادت فى القرون الوسطى بأن الله سيكشف عن المجرم عن طريق المحنة بقدر ما أقاموها على أساس من أمل بأن المحنة مهما بلغت من بُعدها عن العدل ، ستختم نزاعا قد تضطرب له القبيلة أجيالا عدة إذا لم يُلجأ فى فضّه إلى المحنة ؛ ومن أمثلة ذلك أن المتّهِم والمتّهَم كليهما يطلب إليهما أن يختار كل منهما صحفة طعام من بين صحفتين إحداهما مسمومة ، وقد ينتهى هذا الاختيار بأن يأخذ الصحفة المسمومة من هو برىء (والعادة ألا يكون أثر السم مما يستحيل الخلاص منه) لكن الخصومة تنتهى بهذا ، ما دام الفريقان يعتقدان فى غير إرغام بعدالة مبدأ المحنة ؛ وقد كانت العادة عند بعض القبائل أن المذنب إذا اعترف بذنبه مَدّ ساقه للمعتدَى عليه ليطعنها برمحه ؛ أو يُطْلب الى المتّهَم أن يصمد للرماح يقذفه بها متّهِموه ، فإذا أخطأته الرماح جميعاً ، أعلنت براءته ، أما إذا أصابه ولو رمح واحد ، حُكم بإدانته وفُضّ الخلاف(٢٣)

وهكذا هبط مبدأ المحنة خلال العصور ، بادئا من تلك الصور البدائية إلى

(*) بعض المدن الحديثة جدا تحاول اليوم أن تحيى هذا النظام القديم الذى يوفر الوقت .

قوانين موسى وحمورابى ثم إلى العصور الوسطى ؛ والمبارزة ضرب من ضروب المحنة ، وقد ظن المؤرخون أنها قد انقضى عهدها ، لكنها فى طريقها إلى العودة من جديد فى أيامنا هذه ، وهكذا ترى الفارق بين الإنسان البدائى والإنسان الحديث ضيقاً صغيراً فى بعض جوانب الحيـــاة ، وإن تاريخ المدنية لقصير .

ورابع الخطوات التى خطاها القانون فى تطوره ، هى أن تعهد الرئيس أو تعهدت الدولة أن يحول دون الاعتداء وأن يُنزل العقاب بالمعتدى ؛ وليس بين فضّ النزاع وإنزال العقاب بالمعتدين وبين محاولة اتقاء وقوع النزاع إلا خطوة واحدة ؛ وبهذا لم يَعُدْ الرئيس قاضيا وكفى ، بل أصبح إلى جانب ذلك مشرعا يسنّ القوانين ، وأضيفت إلى مجموعة القوانين العامة الشائعة بين الناس ، والتى استمدوها من تقاليدهم مجموعة أخرى من « القوانين الوضعية » التى مصدرها مراسيم الحكومية ؛ ففى الحالة الأولى تصعد القوانين من أسفل ، وفى الحالة الثانية تهبط على الناس من أعلى ؛ وفى كلتا الحالين ترى القوانين مصطبغة بمسحة السلف الغابر ، وتشمّ فيها رائحة الأخذ بالثأر الذى جاءت تلك القوانين بديلا له ؛ لقد كان العقاب فى الجماعات البدائية قاسياً[24] لأن تلك الجماعات لم تكن آمنة على حياتها ، ولذلك ترى صرامة العقاب تقلّ كلما ازداد النظام الاجتماعى قرارا .

ونستطيع القول بصفة عامة إن « حقوق » الفرد فى المجتمع الفطرى أقل منها فى حالة المدنية ؛ فأينما وجّهت النظر وجدت الإنسان يولد مكبّلا بالأغلال : أغلال الوراثة والبيئة والتقاليد والقانون ، والفرد فى الجماعة البدائية يتحرك فى شبكة من القوانين التى تبلغ بصرامتها وتفصيلاتها حدا يجاوز المعقول ، فألف تحريم يحدد سلوكه وألف إرهاب يشل إرادته ؛ إن أهل زيلنده الجديدة كانوا فيما يبـــدو للعين يعيشون بغير قانون ، لكنهم فى حقيقة أمرهم كانت التقاليد تتحكم فى كل مظهر من مظاهر حياتهم ؛ كذلك أهل البنغال تسيرهم التقاليد التى لا قِبَل لهم بتغييرها أو معارضتها ، فتحدد لهم طريقة الجلوس والقيام والوقوف والمشى والأكل والشرب

والنوم ؛ فالفرد أوشك ألا يكون فى عرفهم كائناً مستقلا بذاته فى البيئة الفطرية ، ولم يكن يتمتع بالوجود الحق إلا الأسرة وإلا القبيلة والعشيرة والمجتمع القروى ، فهذه الهيئات هى التى تملك الأرض أو تباشر السلطان ، ولم يصبح للفرد وجود واقعى متميز من وجود مجموعته إلا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة التى هيأت له سلطانا اقتصاديا ، وبعد أن ظهرت الدولة التى اعترفت له بوجود قانونى وحقوق محددة(٣٥) ؛ إن الحقوق لا تأتينا من الطبيعة ، لأن الطبيعة لا تعرف من الحقوق إلا الدهاء والقوة ؛ إنما الحقوق مزايا منحتها الجماعة للأفراد على اعتبار أنها تؤدى إلى الخير العام ؛ ولذا فالحرية ترفٌ اقتضاه اطمئنان الحياة ، والفرد الحر ثمرةٌ أنتجتها المدنيَّة ، وعلامةٌ تميِّزُها .

الفصل الرابع

الأسرة

وظيفتها فى المدنية – موازنة القبيلة والأسرة – نمو العناية الأبوية – عدم أهمية الوالد – انفصال الجنسين – حق الأمومة – منزلة المرأة – وظائفها – أعمالها الاقتصادية – الأسرة الأبوية – إخضاع المرأة

لما كانت الحاجات الأساسية للإنسان هى الجوع والحب ، كانت الوظائف الرئيسية للتنظيم الاجتماعى هى تهيئة الموارد الاقتصادية ودوام البقاء من الوجهة البيولوجية ؛ فاتصال النسل فى سلسلة من الأبناء حيوىٌّ كاتصال الطعام ؛ لهذا ترى المجتمع يضيف دائماً إلى الأنظمة الاجتماعية التى من شأنها أن تهيئ الراحة المادية والنظام السياسى ، أنظمةً أخرى من شأنها أن تديم بقاء الإنسان فى نسله ؛ ولقد لبثت القبيلة – حتى قيام الدولة قُرْب بداية المدنيّة التاريخية بحيث أصبحت للنظام الاجتماعى مركزاً رئيسياً دائماً – لبثت القبيلة حتى ذلك العهد تتولى هذه المهمة الدقيقة ، مهمة تنظيم العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال المتعاقبة ؛ بل إنه حتى بعد قيام الدولة ، ظلت مقاليد حكومة الإنسان مستقرة فى تلك الجماعة التى هى أعمق الأنظمة التاريخية جذوراً – وهى الأسرة ، إنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ؛ لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه ، كان قمينا أن يجعل منه فريسة للكواسر التى لم تزل تجوس فى مناكب الأرض ؛ فالعادة فى الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلئ جنباته بالأنياب والمخالب والجلود التى يستحيل ثقبها ، وأغلب الظن أن

قد كانت هذه هى حالة الإنسان أول أمره ، فأنقذ نفسه بالتماسك فى جماعة الصيد أولا فالقبيلة ثانياً ؛ فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القُرْبى كمبدأ للتنظيم الاجتماعى ، فقدت القبيلة مكانتها التى كانت تجعل منها قِوام المجتمع ؛ وحل محلها فى أسفل البناء الأسرة ، كما حلت الدولة محلها فى قمته ، وعندئذ تولت الحكومة مشكلة استتباب النظام ، بينما أخذت الأسرة على نفسها أن تعيد تنظيم الصناعة وأن تعمل على بقاء الجنس .

ليس من طبيعة الحيوانات الدنيا أن تعنى بنسلها ، لذلك كانت إناثها تقذف بيضها فى كميات كبيرة ، فيعيش بعضها وينمو ، بينما كثرتها الغالبة تُلْتَهم أو يصيبها الفساد ؛ إن معظم السمك يبيض مليون بيضة فى العام ؛ وليس بين السمك إلا أنواع قليلة تبدى شيئاً من العطف على صغارها ، ونرى فى خمسين بيضة تبيضها الواحدة منها فى العام عدداً يكفى أغراضها ؛ والطيور أكثر من السمك عناية بالصغار ، فيفقس الطائر كل عام من خمس بيضات إلى اثنتى عشرة كل عام ؛ وأما الحيوانات الثديية التى تدل باسمها على عنايتها بأبنائها ، فهى تسود الأرض بنسل لا يزيد عن ثلاثة أبناء فى المتوسط لكل أنثى فى العام الواحد(٢٦) ؛ إن القاعدة العامة فى عالم الحيوان كله هى أن خصوبة النسل وفناءه يقلاّن معاً كلما ازدادت عناية الأبوين بالصغار ؛ والقاعدة العامة فى عالم الإنسان من أول نشأته هى أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدنيّة صعوداً ؛ إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسُنت ، مكّنَتْ النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر ، قبل أن يُقْذَف بهم ليعتمدوا على أنفسهم ، وكذلك قلّة المواليد تصرف المجهود البشرى إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله فى عملية النسل .

ولما كانَ يُعْهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات ، فقد كان تنظيم الأسرة فى أول أمرها (ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلال ضباب

التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل فى الأسرة كانت تافهة وعارضة، بينما مهمة الأم فيها أساسية لا تعلوها مهمة أخرى ؛ والدور الفسيولوجى الذى يقوم به الذكر فى التناسل ، لا يكاد يستوقف النظر فى بعض القبائل الموجودة اليوم ، وربما كان الأمر كذلك فى الجماعات البشرية الأولى ، شأن الرجل من الإنسان فى ذلك شأن الذكر من صنوف الحيوان التى تناديها الطبيعة للتناسل فيطلب العشير عشيره ويتكاثر النسل دون أن يؤرق وَعْيَهم أن يحللوا هذه العملية إلى أسباب ونتائج ؛ فسكان جزائر «تروبْرياند» Trobriand لا يعزون حمل النساء إلى الاتصال بين الجنسين بل يعللونه بدخول شبح فى جوف المرأة ، وإن هذا الشبح ليدخل جوفها عادة إذ هى تستحم ؛ فتقول الفتاة فى ذلك «لقد عَضّتْنى سمكة» ويقول مالينوفسكى Malinowski : وسألتُ من يكون والد طفلٍ وُلِدَ سفاحاً ، أجابونى كلهم بجواب واحد : إنه طفل بغير والد لأن الفتاة لم تتزوج ؛ فلما سألتُ فى تعبير أصرح : من ذا اتصل بالمرأة اتصالا فسيولوجيا فأنسلت ، لم يفهموا سؤالى . . . ولو أجابوا كان الجواب : إنه الشبح هو الذى وهبها طفلها » ؛ وكان لسكان تلك الجزيرة عقيدة غريبة وهى أن الشبح أسرع إلى دخوله امرأة أسلمتْ نفسها لكثير من الرجال فى غير تحفظ ؛ ومع ذلك فإذا ما أراد النساء أن يجتنبن الحمل ، آثرن ألا يستحممن فى البحر إذا علا مَدّه ، على أن يمتنعن عن اتصالهن بالرجال(٢٧) وإنها لعقيدة ممتعة لابد أن قد أراحت الناس من عناء كبير كلما أعقب استسلام المرأة للرجل نتيجةٌ تسبب شيئاً من الحيرة ، وما كان ألذها عقيدة لو أنها انتُحلتْ للأزواج كما انتُحلت لعلماء الأجناس البشرية .

وأما أهل مالنيزيا فقد عرفوا أن الحمل نتيجة الاتصال بين الجنسين ، لكن الفتيات اللائى لم يتزوجن يُصْرِرْن على أن حملهن قد سببه لهن لون من الطعام أكلنه(٢٨) وحتى بعد أن أدركوا وظيفة الذكر فى التناسل ، كانت العلاقات الجنسية

من الاضطراب بحيث لم يكن يسيراً عليهم أن يحددوا لكل طفل أباه ؛ ونتيجة ذلك هى أن المرأة البدائية الأولى قلّما كانت تعنى بالبحث عمن يكون والد طفلها ؛ إن الطفل طفلها هى ، وهى لا تنتمى الى زوج بل الى أبيها — أو أخيها — وإلى القبيلة ، لأنها إنما تعيش مع هؤلاء ، وهؤلاء هم كل الأقارب الذكور الذين يعرفهم الطفل(٢٩) على أنهم ذوو قرباه ، لهذا كانت روابط العاطفة بين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفى كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ، لا يرى زوجته إلا زائراً متستراً ، وحتى فى المدنيّة القديمة كان الأخ أعزّ عند المرأة من زوجها ، فزوجة « انتافرنيز » أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة « دارا » كذلك « انتجونا » ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها(٣٠) « فالفكرة القائلة بأن زوجة الرجل هى أقرب إنسان فى الدنيا إلى قلبه ، فكرة حديثة نسبيا ، ثم هى فكرة لا تراها إلا فى جزء صغير نسبيا من أجزاء الجنس البشرى »(٣١) .

إن العلاقة بين الوالد والأبناء فى المجتمع البدائى هى من الضعف بحيث يعيش الجنسان منفصلين فى عدد كبير من القبائل ؛ ففى استراليا وغيانة البريطانية الجديدة ، وفى إفريقيا وميكرونيزنا ، وفى أسام وبورما ؛ وبين الأاوشيين والإسكيمو والساموديين ، وهنا وهناك من أرجاء الأرض ، قد ترى إلى اليوم قبائل لا تجد فيها للحياة العائلية أثراً فالرجال يعيشون معتزلين النساء ، ولا يزورونهن إلا لماما ، حتى الطعام ترى كلا من الفريقين يأكل بعيداً عن الآخر ؛ وفى شمالى پاپوا لا يجوز للرجل أن يُرى مجتمعاً بامرأة أمام الناس حتى وإن كانت تلك المرأة أم أبنائه ؛ والحياة العائلية ليست معروفة فى « تاهيتى » على الإطلاق ، ومن انفصال الجنسين على هذا النحو تنشأ العلاقات السرية — عادة الاتصال بين الرجال والرجال — التى تراها فى كل الأجناس البدائية ، وهى مَهْرب يلوذ به الرجال فى

كثير من الحالات فراراً من المرأة[٣٢] ؛ وهذه العلاقات السرية لها شبيه فى حياتنا الحاضرة وإن اختلفت فى وجهها فهذه وليدة تلك .

إذن فأبسط صور العائلة هى الأم وأبناؤها تعيش بهم فى كنف أمهم أو أخيها فى القبيلة ؛ وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان ، التى تتكون من الأم وصغارها ، وهو كذلك نتيجة طبيعية للجهل البيولوجى الذى يتصف به الإنسان البدائى ، وكان لهذا النظام العائلى بديل آخر فى العهد الأول ، وهو « الزواج الذى يضيف الزوج إلى أسرة زوجته » ، إذ يقضى هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرتها ويعمل من أجلها أو معها فى خدمة والديها ؛ فالأنساب فى هذه الحالة يُقتَفَى أثرها فى جانب الإناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم ؛ حتى حق العرش أحياناً كان يهبط إلى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج[٣٣] ؛ على أن هذا الحق الذى للأمومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل[٣٤] ؛ لأنه حتى إن وَرَّثَتْ الأم أبناءها فليس لها على مِلْكِها هذا الذى تُورِّثه إلا قليل من السلطان ؛ وكل ما فى الأمر أن الأم كانت وسيلة تَعَقُّب الأنساب ، لأنه لولا ذلك لأدّى إهمالُ الناس عندئذ فى العلاقات الجنسية وإباحيتُهم إلى انبهام معالم القُرْبى[٣٥] ، نعم إن للمرأة نفوذاً فى أى نظام اجتماعى كائناً ما كان ولو إلى حد محدود ، هو نتيجة طبيعية لخطر مكانتها فى المنزل ، ولأهمية وظيفتها فى التصرف فى الطعام ولاحتياج الرجل إليها وقدرتها على رفضه ؛ ولقد شهد التاريخ أحياناً حاكمات من النساء بين بعض قبائل أفريقيا الجنوبية ، ولم يكن فى مستطاع الرئيس فى جزر « بليو » أن ينجز شيئاً هاماً إلا إذا استشار مجلساً من عجائز النساء ، وكان للنساء فى قبيلة « إراكوا » حق يعادل حق الرجال فى إبداء الرأى وفى التصويت إذا اجتمع مجلس القبيلة[٣٦] ؛ وكان للنساء بين هنود سنكا قوة عظيمة قد تبلغ بهن حق اختيار الرئيس ، هذا كله صحيح ، لكنها حالات نادرة لا تقع إلا قليلا ، أما فى أكثر الحالات فمنزلة المرأة فى

المجتمعات البدائية كانت منزلة الخاضع التي تدنو من الرق ؛ فعجزها الذى يعاودها مع الحَيْض ، وعدم تدريبها على حمل السلاح ، واستنفاد قواها من الوجهة البيولوجية بسبب الحمل والرضاعة وتربية الأطفال ، كل ذلك عاقها فى حربها مع الرجال ، وقضى عليها أن تنزل منزلة دنيا فى كل الجماعات إلا أدناها وأرقاها ؛ ولم يستتبع تقدم المدنيّة بالضرورة أن ترفع مكانة المرأة ، ففى اليونان أيام پركليز كتب عليها أن تكون مكانتها أقل من مكانتها بين هنود أمريكا الشمالية ؛ إن مكانة المرأة ترتفع أو تهبط تبعاً لاختلاف أهمية الرجل فى القتال ، أكثر منها تبعاً لازدياد ثقافة الرجال وتقدم أخلاقهم .

كانت المرأة فى مرحلة الصيد تكاد تؤدى الأعمال كلها ما عدا عملية الصيد نفسها ؛ وأما الرجل فكان يسترخى مستريحاً معظم العام فى شىء من الزهو بنفسه ، لقاء ما عرّض نفسه لمصاعب الطّراد وأخطاره ، كانت المرأة تلد الأطفال بكثرة وتربيهم وتحفظ الكوخ أو الدار فى حالة جيدة ، وتجمع الطعام من الغابات والحقول وتطهى وتنظف وتصنع الثياب والأحذية[٣٧] ؛ فإذا انتقلت القبيلة من مكان لم يكن الرجل ليحمل سوى أسلحته لأنه كان مضطرا أن يكون على أهبة الاستعداد لملاقاة العدو إذا هجم ، وإذن فقد كان على النساء أن يحملن كل ما بقى من متاع ، والنساء من قبيلة « البوشمن » كن يُستخدمن خادمات وحاملات للأثقال ، فإذا تبيّن أنهن أضعف من أن يسايرن الركب فى رحلته ، تُرِكْن فى الطريق[٣٨] ، ويروى أن سكان نهر مَرِى الأدنى حين رأوا قطيعاً من الثيران ظنوا أنها زوجات الرجال البيض[٣٩] ، وإن ما تراه بين الرجال والنساء اليوم من تفاوت فى قوة البدن لم يكد يكون له وجود فيما مضى ، وهو الآن نتيجة البيئة وحدها أكثر منه أصيلا فى طبيعة المرأة والرجل : كانت المرأة إذ ذاك — لو استثنيت ما يقعدها أحياناً من عوامل بيولوجية — مساوية للرجل تقريباً فى طول قامته ، وفى القدرة على الاحتمال وفى سعة الحيلة والشجاعة ؛

ولم نكن بعد قد أصبحت مجرد زينة وتحفة ، أو مجرد لعبة جنسية ، بل كانت حيوانا قوى البنية قادراً على أداء العمل الشاق مدى ساعات طويلة ، بل كانت لها القدرة — إذا دعت الضرورة — على المقاتلة حتى الموت في سبيل أبنائها وعشيرتها ؛ قال رئيس من رؤساء قبيلة « تِشِپوَا » Chippewas « خلق النساء للعمل ، فالواحدة منهن فى وسعها أن تجر من الأثقال أو تحمل منها ما لا يستطيعه إلا رجلان ، وهن كذلك يُقِمن لنا الخيام ويصنعن الملابس ويُصْلحنها ويُدفِئْننا فى الليل . . . إنه ليستحيل علينا أن نرحل بغيرهن ، فهن يعملن كل شىء ولا يُكلِّفْن إلا قليلا ؛ لأنهن ما دمن يقمن بالطهى دائماً ، فإنهن يَقْنَعن فى السنين العجاف بلعق أصابعهن »[٤٠]

إن معظم التقدم الذى أصاب الحياة الاقتصادية فى المجتمع البدائى كان يُعْزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل ؛ فبينما ظل الرجل قرونا مستمسكا بأساليبه القديمة من صيد ورعى ، كانت هى تُطَوِّرُ الزراعة على مقربة من محالّ السكنى ، وتباشر تلك الفنون المنزلية التى أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات ؛ ومن « شجرة الصوف » — كما كان الإغريق يسمون نبات القطن — جعلت المرأة تغزل الخيط وتنسج الثياب القطنية[٤١] ؛ وهى التى — على أرجح الظن — تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء ، بل هى التى قامت بالتجارة فى حالات كثيرة[٤٢] ؛ والمرأة هى التى طَوَّرَتْ الدار ، واستطاعت بالتدريج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من حيوان ، ودَرَّبته على أوضاع المجتمع وضروراته التى هى من المدنيَّة أساسها النفسىّ ومِلاطُها الذى يمسك أجزاء البناء ؛ لكن لما تقدمت الزراعة وزاد طرحها ، أخذ الجنس الأقوى يستولى على زمامها شيئاً فشيئاً[٤٣] ؛ وكذلك وجد الرجل فى ازدياد تربية الماشية مصدراً جديداً للقوة والثروة والاستقرار ؛ حتى الزراعة التى لا بد أن تكون قد بَدَتْ لعمالقة العصر القديم الأشدّاء عملا بارداً ، أقبل عليها الرجل آخر الأمر بعد

أن كان يضرب جوّالا فى مناكب الأرض ، وبذلك انتزع الرجال من أيدى النساء زعامتهن الاقتصادية التى توفرت لهن حينا من الدهر بسبب الزراعة ؛ وكانت المرأة قد استأنست بعض الحيوان ؛ فجاء الرجل واستخدم هذا الحيوان نفسه فى الزراعة ، وبذلك تمكن من أن يحل محلها فى الإشراف على زراعة الأرض ؛ هذا إلى أن استبدال المحراث بالمِعزَقة قد تطلب شيئاً من القوة البدنية ، وبذلك مكّن للرجل أن يؤكد سيطرته على المرأة ؛ أضف إلى ذلك أن ازدياد ما يملكه الإنسان مما يمكن تحويله من مالك إلى مالك ، كالماشية ومنتجات الأرض ، أدى إلى إخضاع المرأة للرجل إخضاعا جنسيا ، لأن الرجل طالبها بالإخلاص له إخلاصاً يبرر له أن يورّث ثروته المتجمعة إلى أبناء تزعم له المرأة أنهم أبناؤه ؛ وهكذا نفّذ الرجل بالتدريج خطته ، واعتُرف للأبوة فى الأسرة ، وبدأت الملكية تهبط فى التوريث عن طريق الرجل ، واندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة ، وأصبحت الأسرة الأبوية ـ أى التى يكون أكبر الرجال سنا على رأسها ـ هى الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والخلقية فى المجتمع ؛ وانقلب الآلهة وقد كانوا قبلُ نساء فى أغلبهم ، انقلبوا رجالا ذوى لحًى هم للناس بمثابة الآباء ، يحيط بهم من النساء « حريم » كالذى كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال فى عزلتهم .

كان هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية ـ الأسرة التى يحكمها الوالد ـ ضربة قاضية على منزلة المرأة ؛ فقد باتت هى وأبناؤها ، فى أوجه الحياة الهامة جميعا ، مِلْكا لأبيها أو لأخيها الأكبر ، ثم مِلْكا لزوجها ، إنها اشتُريت فى الزواج كما كان العبد يشرى فى الأسواق سواء بسواء ؛ وهبطت ميراثا كما يهبط سائر المِلْك عند وفاة الزوج ، وفى بعض البلاد (مثل غانه الجديدة ، وهبر ديز الجديده ، وجزر سليمان ، وفيجى ، والهند وغيرها) كانت تشنق وتدفن مع زوجها الميت ، أو كان يطلب إليها أن تنتحر ، لكى تقوم على خدمته فى الحياة الآخرة(٤٤) وأصبح

للوالد الحق فى أن يعامل زوجاته وبناته كما يشاء ويهوى إلى حد كبير جدا ؛ فيهبن ، ويبيعهن ، ويُعيرهن ، لا يحدّه فى استعمال حقه هذا إلا الظروف الاجتماعية التى تفسح المجال لآباء غيره فى استعمال حقوق مثل حقه ، وبينما احتفظ الرجل بحقه فى الاتصال الجنسى خارج داره ، طولبت المرأة — فى ظل الأنظمة الأبوية — وبالعفة التامة قبل الزواج ، وبالإخلاص التام بعد الزواج ، وهكذا نشأ لكل جنس معيار خاص يُحكم به على عمله .

إن خضوع المرأة بصفة عامة ، وقد كان موجودا فى مرحلة الصيد ، ثم ظل موجودا — فى صورة أخف — خلال الفترة التى ساد فيها حق الأمومة فى الأسرة ازداد الآن صراحة وغلظة ؛ ففى الروسيا القديمة ، كان الوالد عند زواج ابنته يضربها ضربا رقيقا بسوط ، ثم يعطى السوط للزوج (٤٥) ليدل بذلك على أن ضربها قد نيطت به منذ اليوم يدٌ لا يزال الشباب يجرى فى عروقها ؛ وحتى الهنود الأمريكيون الذين ظل حق الأمومة سائدا فيهم لم يرتفع عنهم قط ، كانوا يعاملون نساءهم معاملة خشنة ويكلفونهن بأقذر الأعمال ، وغالبا ما ينادونهن بلفظ الكلاب(٤٦) وحياة المرأة فى كل مكان على وجه الأرض كانت تقوَّم بثمن أرخص من ثمن الرجل ، وإذا ولدت الأمهات بنات ، فلا تقام الأفراح التى تقام عند ولادة البنين حتى أن الأمهات أحيانا ليقتلن بناتهن الوليدات ليخلصنهن من الشقاء ؛ والزوجات فى فيجى يشتريهن الرجال كما يشاءون ، وغالبا مايكون الثمن المدفوع بندقية(٤٧)، وفى بعض القبائل لا ينام الرجل وزوجته فى مكان واحد خشية أن يُضعِفَ نَفَسُ المرأة من قوة الرجل ، بل إن أهل فيجى لا يرون من المناسب أن ينام الرجل فى بيته كل ليلة ، وفى كالدونيا الجديدة تنام المرأة فى حظيرة بينما ينام الرجل فى الدار ، وفى فيجى كذلك يسمح للكلاب بالدخول فى بعض المعابد ، أما النساء فحرام عليهن دخول المعابد إطلاقا(٤٨) وهذا الإقصاء للمرأة عن المجتمعات الدينية موجود فى الإسلام حتى يومنا هذا ، نعم إن المرأة

بغير شك قد تمتعت فى كل العصور بهذا الضرب من السيادة الذى ينشأ عن استمرار الحديث ، وقد تفلح المرأة فى إخجال الرجل أو إرباكه أو هزيمته أحيانا(٤٩) لكن الرجل مع ذلك هو السيد والمرأة هى الخادمة ، فكان الرجل من قبيلة « الكفير » يشترى النساء كما يشترى الرقيق ، وإنما يشتريهن ليكنّ له ضمان الحياة حتى مماته ، لأنه إذا حاز عدداً من الزوجات كافيا ، فسيظل ما بقى له فى الحياة من سنين مستريحا من عناء العمل ، وعليهن العمل كله ، ويَعْتَبِرُ بعض القبائل فى الهند القديمة نساء الأسرة جزءاً من الأملاك التى تورث جنبا إلى جنب مع الحيوان الداجن(٥٠) ؛ حتى الوصية الأخيرة من وصايا « موسى » لم توضح الفرق فى هذا الصدد توضيحا ظاهرا ، وفى بلاد الزنوج الإفريقية كلها ، لا يكاد النساء يختلفن عن الرقيق إلا فى كونهن مصدراً للمتعة الجنسية إلى جانب النفع الاقتصادى ؛ ولقد كان الزواج فى بدايته صورة من صور القوانين التى تضبط المِلكية ، وجزءاً من التنظيم الاجتماعى الذى يدبِّر أمر العبيد(٥١) .

الباب الرابع

العناصر الخلقية فى المدنية

لما كان المجتمع يستحيل قيامه بغير نظام ، والنظام لايكون بغير قانون ، فلنا أن نعممها قاعدةً من قواعد سير التاريخ ، بأن قوة التقاليد تتناسب تناسباً عكسياً مع كثرة القوانين ، كما أن قوة الغريزة تتناسب تناسباً عكسيا مع كثرة الأفكار ؛ وبعض القواعد لا بد منه حتى يعايش الناس بعضهم بعضاً ، وقد تختلف هذه القواعد فى الجماعات المختلفة ، لكنها ينبغى أن تكون فى جوهرها واحدة فى الجماعة الواحدة ؛ وقد تكون هذه القواعد مواضعات اتفق عليها الناس أو تقاليد أو أخلاقا أو قوانين ؛ فأما المواضعات فهى صور من السلوك وَجَدَ الناس أنها نافعة لحياتهم ، والتقاليد مواضعات قبلتها الأجيال المتعاقبة ؛ والأخلاق هى التقاليد التى ترى الجماعة ألا غنى عنها لسعادتهم وتقدمهم بعد أن تعلمت، من الانتخاب الطبيعى الذى يُبقى على الصالح ويزيل الفاسد خلال ما يصادفه الناس من تجارب يُجرونها فى الحياة فيخطئون هنا وهناك ، هذه التقاليد الحيوية أو الأخلاق فى الجماعات البدائية التى لا تعرف قانونا مكتوبا تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ؛ وتكسب النظام الاجتماعى اطّراداً وثباتاً ؛ وهذه التقاليد إذا ما انقضى عليها الزمن وخلع عليها سحره شيئاً فشيئاً ، فإنها بطول تكرارها تصبح للفرد طبيعة ثانية ؛ إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار — وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقى الذى اختاره دارون ليكون أظهر فاصل يفرّق بين الحيوان والإنسان[1] والضمير فى مراحل تطوره العليا يصبح وعيا اجتماعيا — أى شعور الفرد بأنه ينتمى إلى جماعة معينة وأنه مَدين لها بشىء من الولاء والاحترام ؛ وما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكل ، ثم تعادل كل جماعة مع كلّ أعظم فالمدنية ، بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق ؛

الفصل الأول

الزواج

معنى الزواج – أصوله البيولوجية – الشيوعية الجنسية
زواج التجربة – زواج الجماعة – زواج الفرد – تعدد
الزوجات – قيمته فى تحسين النسل – الزواج من غير
العشيرة – الزواج مقابل الخدمة – وبالأسْر –
وبالشراء – الحب البدائى – وظيفة الزواج الاقتصادية

أول مهمة تؤديها التقاليد التى هى قوام التشريع الخلقى لجماعة من الجماعات ، هى أن تنظم العلاقة بين الجنسين لأنها مصدر دائم للنزاع والاعتداء وإمكان التدهور ؛ والصورة الأساسية لهذا التنظيم الجنسى هى الزواج الذى يمكن تعريفه بأنه اتحاد العشيرين للعناية بالنسل ؛ وهو تنظيم يختلف ويتغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى لقد اجتاز خلال تاريخه كلّ صورة ممكنة وكلّ تجربة ممكنة ، من العناية التى كان يبديها البدائيون بالنسل دون أن يكون بين العشيرين اتحاد فى المعيشة ، إلى ما نراه فى عصرنا الحديث من اتحاد العشيرين فى المعيشة بغير نسل يعنيان به .

كان الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان ؛ فبعض الطيور فيما يظهر يعيش معيشة الأزواج التى تنسل فى رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق ، وبين الغورلا والأورانجوتان يدوم اتصال الوالدين حتى نهاية فصل الإنسال ، ولاتصالها هذا علامات كثيرة تشبه فيه بنى الإنسان ، وكل محاولة تحاولها الأنثى فى اتصالها بذكر آخر ، يعاقبها عليها عشيرها عقابا صارما[٢] . ويقول « دى كرسپنى » De Crespigny عن الأورانج فى بورنيو « إنها تعيش فى أُسَر : الذكر والأنثى وصغيرهما » يقرر الدكتور ساڤدج Dr. Savage عن الغورلا « إنه من المألوف

أن ترى الوالدين جالسين تحت شجرة يتسليان بالفاكهة يأكلانها وبالسّمر يتسَمُران به ، بينما يأخذ أبناؤهما فى القفز حولها والوثب من غصن إلى غصن فى مرح وزئاط »[3] وإذن فالزواج أعمق فى التاريخ من بنى الإنسان .

والمجتمعات التى تخلو من الزواج نادرة ، لكن الباحث الحبيث يستطيع أن يجد منها عددا يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من الفوضى الجنسية التى تسود الحيوان الأدنى إلى صنوف الزواج التى أخذ بها الإنسان البدائى ؛ ففى « فوتونا » Futuna و « هواى » معظم الناس لم يتزوجوا إطلاقاً[4] ، وأهل « لوبو » Lubu تعاشروا فى إباحية وبغير اختيار أو تحديد ، ولم يكن فى رءوسهم فكرة الزواج ، وكذلك بعض القبائل فى بورنيو كانت تعيش حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذى يربط الزوجين ، ولذلك كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالا مما نراه بين الطيور ، ولدى بعض شعوب الروسيا البدائية « كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز ، بحيث لم يكن لامرأة زوجٌ معلومٌ » .

ولقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا بأنهم لا يصطنعون أنظمة الزواج فى حياتهم ، بل تراهم « يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملا بغير ضابط[5] » ؛ لكن هذا « التأميم للنساء » الذى يقابل الشيوعية البدائية فى الأرض والطعام ، زال فى مرحلة مبكرة بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا قليل ، ومع ذلك فقد لبثت بعض ذكرياته عالقة فى الأذهان فى صور مختلفة : فى شعور كثير من الشعوب الفطرية بأن وحدانية الزوجة — التى يعرّفونها بأنها احتكار رجل واحد لامرأة — ينافى الطبيعة ويجافى الأخلاق[6] ، وفى الأعياد التى نقيمها على فترات معلومة ونتحلل فيها من القيود الجنسية موقتاً (ولا يزال هذا الشعور موجوداً بصورة ضعيفة فى بعض أعيادنا) ، وفى مطالبة المرأة بأن تُسلِم نفسها لأى رجل يطلبها قبل أن يُسْمح لها بالزواج(*) — كما هى الحال فى « معبد مايلتّا » Mylitta فى بابل — ،

(*) راجع ذلك فى الجزء الخاص ببابل فى أجزاء هذا الكتاب .

وفى عادة إعارة الزوجة ، وهى عادة ضرورية بالنسبة إلى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون ؛ وفى حق الليلة الأولى ، وهو حق كان يتمتع به الشريف فى أوائل العهد الإقطاعى فى اوروبا ، وربما كان الشريف فى ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو أنه يجوز للشريف أن يَفُضّ بكارة العروس قبل أن يؤذن للعريس بمباشرة الزواج(٦ ا) .

ثم حلت بالتدريج محل هذه العلاقات التى لم تعرف التحديد ألوان من اتحاد الرجل والمرأة كانت بمثابة التجريب ، فعند قبيلة « أورانج ساكاى » Orang Sakai فى ملقا ، كانت المرأة تعاشر كل رجل من رجال القبيلة حينا ، حتى إذا ما أتمّت الدورة بدأت من جديد(٧) ، وبين قبيلة « ياكوت » Yakuts فى سيبريا ، وقبيلة « بوتوكودو » Botocudos فى جنوب أمريقيا ، والطبقات الدنيا فى التبت ، وكثير غير هذه من الشعوب ، كان الزواج تجريبياً خالصا بمعنى أن كلاًّ من الزوجين له الحق فى فضّ العلاقة إذا شاء وبغير أن يبدى لذلك سبيا أو يطالب بالسبب ؛ وعند قبيلة « بوشمن » « يكفى أقل خلاف بين الزوجين لانحلال الزوجية ، ولا يلبث الزوجان أن يجد كل منهما زوجا آخر » ، وعند قبيلة « داماترا » Damatras فيما يروى « سير فرانسز جولتُن Sir Francis Galton — « يتبدل الزوج مرة كل أسبوع تقريبا ، وقلّما استطعتُ أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث — مَنْ ذا كان زوجا موقتا لهذه السيدة أو تلك فى وقت معين » وكذلك فى قبيلة « بايلا » ينتقل النساء من رجل إلى رجل ويَتْرُكْنَ زوجا لينتقلن إلى زوج آخر بمحض اختيارهن ؛ والفتيات اللائى كِدْنَ لا يجاوزن العشرين ، تجد للواحدة منهن فى كثير من الحالات أربعة أزواج أو خمسة كلهم أحياء »(٨) وكلمة الزواج فى هواى معناها فى الأصل « تجربة »(٩) ، وقد كان الزواج فى تاهيتى منذ قرن حراً من القيود وينحلّ بغير سبب ما دام الزوجان لم يَتَنَسلا ، أما إن أنجبا طفلا فلهما أن يقتلاه دون أن يقع عليهما لوم من المجتمع ،

أو هما يقومان على تربيته وبذلك يبدءان حياة دائمة الصلات ، بحيث يتعهد الرجل للمرأة أن يعولها فى مقابل رعايتها للطفل ، التى أخذتها الآن على عاتقها[١٠] .

وكتب « ماركوپولو » عن قبيلة فى آسيا الوسطى ، كانت تسكن إقليم پين Peyn (وهى تعرف الآن باسم كيريا) Keriya فى القرن الثالث عشر ، يقول : « إذا سافر رجل متزوج بحيث بَعُدَ عن بلده ليغيب فى رحلته عشرين يوماً ، فلزوجته الحق – إذا شاءت – أن تتزوج من رجل آخر ؛ والمبدأ صحيح كذلك بالنسبة للرجال ، فيتزوجون حيث أقاموا »[١١] وهكذا ترى الأساليب الجديدة التى أدخلناها فى زواجنا وأخلاقنا حديثاً قديمة فى أصلها ؛

يقول « ليتُرْنُو » Letourneau عن الزواج : « لقد جُرِّبتْ كل صورة من صور الزواج ، مما يتفق مع طول بقاء المجتمعات الهمجية والوحشية ، ولا يزال بعضها اليوم قائماً لدى أجناس مختلفة ، دون أن يطوف بأذهان أهلها أية فكرة من الأفكار الخلقية التى تسود أوروبا عادة »[١٢] ، فهناك تجارب أجريت فى العلاقة بين الزوجين إلى جانب التجارب التى أجريت لاختبار مدة الزواج ؛ ففى حالات قليلة نرى « زواجاً جَمَاعياً » بمعنى أن تتزوج طائفة من رجال ينتمون إلى جماعة من طائفة من النساء تنتمين إلى جماعة أخرى ، بحيث يكون الزواج جَمْعِيًّا بين الطائفتين[١٣] ؛ وفى التبت مثلا كانت العادة أن تتزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة[١٤] ؛ ولقد روى قيصر عادة شبيهة بهذه فى بريطانيا القديمة[١٥] وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته ، وقد شاعت عند اليهود الأقدمين وغيرهم من الشعوب القديمة[١٦] ، وضاق لها صدر « اونان » ضيقاً شديداً .

فما الذى حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التى كان الزواج فيها أقرب شىء إلى الفوضى ، زواجاً فردياً ؟

إنه مما لا شك فيه أن الشهوة الجسدية ليست هى التى دفعت الناس إلى نظام الزواج ، لأنك لا تجد فى الكثرة الغالبة من الشعوب الفطرية إلا قليلا — ذلك إن وجدت شيئا على الإطلاق — من القيود المفروضة على العلاقات الجنسية قبل الزواج ؛ ولأن الزواج بكل ما يسببه من مضايقات نفسية وبكل ما فيه من قيود ، يستحيل عليــه أن ينافس الشيوعية الجنسية فى إشباعها للميول الجنسية عند الإنسان ؛ كلا وليس نظام الزواج الفردىّ بمهيّئ فى بدايته جوًّا لتربية الأطفال يبدو بالبداهة أنه خير لتربيتهم من عناية الأم وأسرتها وعشيرتها ؛ إذن فلابد أن يكون الدافع إلى الزواج وتطوره عوامل اقتصادية قوية الأثر ، وأرجح الظن (وهنا ينبغى أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلا) أن هذه العوامل التى دفعت إلى نظام الزواج كانت مرتبطة بنشأة نظام الملْكية .

جاء الزواج الفردىّ نتيجة لرغبة الرجل فى أن يسترقّ لنفسه رقيقاً بثمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبته عن توريث مِلْكه لأبناء غيره من الرجال ؛ وظهر من صور الزواج صورة تبيح للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فاتخذت صورةَ تعدد الأزواج للزوجة الواحدة — كما هى الحال فى قبيلة « تودا » Todas وبعض قبائل التبت[١٧] ، وإنما تظهر هذه العادة حيثما زاد عدد الرجال على عــدد النساء زيادة كبيرة[١٨] ، لكنها عادةٌ سرعان ما تَنْتَفِى على يد الرجل القوىّ الغلاّب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشراء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه . ألا وهى تعدد الزوجات للزوج الواحد ؛ ولقد ظن رجال الدين فى العصور الوسطى أن تعدد الزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمد ابتكاراً لم يُسْبق إليه ، لكنه فى الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال ، لأنه النظام الذى ساد العالم البدائى[١٩] وهنالك من الأسباب عِدّةٌ عملت كلها على تعميم هذا النظام ونشره . أولها أن حياة الرجال فى المجتمع الأوّل كانت أشد عنفاً وأكثر تعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت فى الرجال عليه فى النساء ، واطّراد

الزيادة فى عدد النساء يضع أمام المرأة اختياراً بين حالتين : فإما تعدد الزوجات للرجل الواحد ، وإما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء ، لكن مثل هذه العزوبة للمرأة لا تنظر إليها بعين الرضى شعوبٌ تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية فى الوفاة ، ولذا ترى أمثال تلك الشعوب تزدرى المرأة العانس والمرأة العقيم ، وثانى هذه الأسباب أن الرجال يميلون إلى التنوّع ، فالأمر كما عبّر عنه زنوج أنجولا أنهم : « لم يكن فى وسعهم أن يأكلوا دائما طعاما واحداً » ، كذلك يحب الرجال أن تكون عشيراتهم فى سن الشباب ، والنساء يكتهلن بسرعة فى المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كنّ أحيانا يُحبّذْن تعدد الزوجات ، حتى يباعِدْنَ بين فترات الولادة دون أن يُنقِصْنَ عند الرجل شهوته وحبه للنسل ، وأحيانا ترى الزوجة الأولى ، وقد أبهظها عبء العمل ، تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل للأسرة أطفالا يزيدون من إنتاجها وثرائها[٢٠] ، فالأبناء عند هؤلاء الناس كسب اقتصادى ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزوجة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح فى رأس المال ؛ ففى الأسرة الأبوية ، لا تكون الزوجة وأبناؤها إلا بمنزلة العبيد لرأس الأسرة وهو الرجل ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد مالا ؛ وقد كان الفقير يتزوج من زوجة واحدة ، لكنه كان ينظر إلى ذلك نظرته إلى وصمة العار . وينتظر اليوم الذى يعلو فيه إلى المنزلة العالية التى ينزلها صاحب الزوجات الكثيرة فى أعين الناس[٢١]

ولا شك أن تعدد الزوجات لاءم حاجة المجتمع البدائى فى ذلك الصدد أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال ؛ وقد كان لتعدد الزوجات فضل فى تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الذى نأخذ به اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأحكمهم فى العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا أقل عدد من الأبناء ، ترى العكس فى ظل تعدد

الزوجات ، الذى يتيح لأقدر الرجال أن يظفروا — على الأرجح — بخير النساء ، أن ينسلوا أكثر الأبناء ، ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً ، بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ فى الزوال فى بلاد الشرق إلا فى عصرنا الحاضر ؛ لأنه قد تآمرت على زواله بعض العوامل ؛ فحياة الزراعة المستقرة حدّتْ من عنف الحياة التى كان يحياها الرجال وقلّلتْ من أخطارها ، فتقارب الجنسان عدداً ؛ وفى هذه الحالة أصبح تعدد الزوجات المكشوف ، حتى فى الجماعات البدائية ، ميزة تتمتع بها الأقلية الغنية وحدها[٢٢] أما سواد الناس فلا يجاوزون الزوجة الواحدة ؛ ثم يخففون وطأة ذلك على نفوسهم بالزنا ، بينما ترى أقلية أخرى آثرت العزوبة راضية أو كارهة ، فعادلت بهذا الامتناع ما يستولى عليه الأغنياء من زوجات كثيرات ، وكان عدد الجنسين كلما اقترب من التعادل زادت الغيرة فى الرجل على زوجته ، والحرص فى الزوجة على زوجها ؛ لأنه لما كان العدد قريباً من التساوى فى الجنسين تعذر على أقوياء الرجال أن يعدّدوا زوجاتهم ، لأنهم فى مثل هذه الحالة لا يجدون كثرة من الزوجات إلا إذا اغتصبوا زوجات الآخرين أو مَنْ سيكنّ زوجات للآخرين ، وإلا إذا أساءوا (فى بعض الحالات) إلى زوجاتهم ؛ نقول إنه فى مثل هذه الحالة يتعذر تعدد الزوجات بحيث لا يستطيعه إلا أوسع الرجال حيلة ، هذا إلى أنه لما ازداد تراكم الثروة فى أيدى بعض الرجال ، وكره هؤلاء أن يبعثروا ثروتهم هذه فى توريث عدد كبير من الأبناء لا يصيب الواحد منهم إلا قدر ضئيل ، آثر هؤلاء أن يفرّقوا بين الزوجات « فزوجة رئيسية » ومحظيات ، حتى لا يقتسم الإرثَ إلا أبناء الزوجة الرئيسية ، ولبث الزواج على هذه الحالة فى آسيا حتى عصرنا الذى عاصرْناه بجيلنا ، ثم أصبحت الزوجة الرئيسية بالتدريج هى الزوجة الواحدة ، وأما المحظيات فقد تعرضْنَ لإحدى حالتين ، فإما بقين خليلات وراء الستار ، وإما عُدِل عنهن إطلاقاً ، وذلك فضلا عن أثر المسيحية حين دخلت

عاملا جديداً ؛ فجعلت نظام الزوجة الواحدة فى أوربا — بدل تعدد الزوجات — هو النظام الذى يرتضيه القانون ، وهو الصورة التى تظهر فيها العلاقة الجنسية ؛ لكن نظام الزوجة الواحدة — شأنه شأن الكتابة ونظام الدولة — نظام صناعى نشأ والمدنية فى وسطى مراحلها ، وليس هو بالنظام الطبيعى الذى يتصل بالمدنية فى أصول نشأتها .

ومهما يكن أمر الصورة التى يتخذها الزواج فقد كان إجباراً بين الشعوب البدائية كلها تقريباً ، ولم يكن للرجل الأعزب منزلة فى المجتمع ، أوعُدَّ مساوياً لنصف رجل فحسب[٢٣] . كذلك كان إجباراً على الرجل أن يتزوج من غير عشيرته . ولسنا ندرى إن كانت هذه العادة قد نشأت لأن العقل البدائى داخله الشك فيما يترتب على زواج الأقارب من سوء النتائج أو لأن التصاهر بين الجماعات أوجد تحالفاً سياسياً مفيداً بينها ، أو زاد هذا التحالف قوة إن كان موجوداً بالفعل ، وبهذا زاد التنظيمَ الاجتماعيَّ تقدماً وقللَ من أخطار الحروب ؛ أو لأن انتزاع زوجة من قبيلة أخرى قد أصبح معدوداً بين الناس من علامات الرجولة التى اكتمل نضوجها ؛ أو لأن نشأة الصبى بين قريباته يقلّل من قيمتهن فى عينه ، وبُعْدَ القريبات عنه يزيد فى سحرهن ؛ وعلى كل حال فقد كان هذا التحديد فى اختيار الزوجة عامًّا شاملا لكل الجماعات الأولى تقريباً ؛ وعلى الرغم من أن الفراعنة والبطالسة والإنكا قد وُفِّقوا إلى تحطيمه بأن أقبلوا على زواج الأخ بأخته ، إلا أنه ظل قائماً بين الرومان كما يعترف به القانون الحديث ؛ وهذا التقليد لا يزال له أثره فى سلوكنا — عن شعور أو لا شعور — حتى يومنا هذا .

فكيف كان يتاح للرجل أن يظفر بزوجته من قبيلة أخرى ؟ لما كانت الأسرة التى ترأسها الأم هى النظام السائد ، كان يُطلب إلى الزوج فى كثير من الحالات أن يعيش مع عشيرة المرأة التى أراد زواجها ؛ فلما تطور نظام الأسرة الأبوية ، سُمِح للخطيب أن يأخذ عروسه معه إلى عشيرته ، على شرط أن يقيم

فترة معلومة قبل ذلك فى خدمة أبيها ، فمثلا خدم يعقوبُ لابان فى سبيل زواجه من « ليحة » و « راشيل »[٣٤] لكن الخطيب كان أحياناً يقتضب الأمر باصطناعه للقوة الصريحة الغاشمة ؛ وكان من حسنات الرجل ومميزاته أن يأخذ زوجته من أهلها قسْراً ، فذلك يجعل منها امَة رخيصة من جهة ، كما يستولدها عبيداً من جهة أخرى ، وهى إذا ما ولدت له هؤلاء الأطفال العبيد ، ازدادت بعبوديتها له صلةً وربطا ؛ ومثل هذا الزواج الذى يتم بطريق الاغتصاب ، لم يكن القاعدة الشاملة ، لكنه كان يقع فى العالم البدائى حيناً بعد حين ، فالنساء عند هنود أمريكا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، ولقد كان هذا السَّبْى للنساء من الشيوع بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم فى بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة ، فلا يفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ؛ ولبث السلاف فى الروسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى القرن الماضى(*)[٢٥] ؛ ولا تزال آثار هذه العادة قائمة فى قيام العريس بدور المغتصب لعروسه فى بعض احتفالات الزواج[٢٧] ؛ وعلى كل حال فقد كانت نتيجة طبيعية لما كان بين القبائل من حروب كادت لا تنقطع ، كما كانت بداية طبيعية للحرب الناشبة بين الجنسين التى لا تسكن بالمهادنة إلا فترات قصيرة ، ولا تنام فتنتها إلا نوماً قلقاً بغير أحلام .

فلما زادت الثروة بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة — أو مبلغاً من المال — ثمناً لابنته ، من أن يخدم عشيرةً غير أهله للحصول عليها ، أو يخاطر بما عسى أن يترتب على اغتصابها من قتال وإراقة للدماء ؛ ونتيجة ذلك أن أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالديْن ، هو القاعدة

(*) يظن بريفو Briffault أن الزواج بالاغتصاب كان مرحلة انتقال من نظام الأسرة التى تسودها الأم إلى النظام الأبوى فى الأسرة ، ذلك أن الرجل لما رفض العيش مع عشيرة زوجته اضطرها إلى العيش بين أهله(٢٦) ، ويرى « لبير » Lippert أن الزواج من امرأة غريبة عن الأسرة كان بديلا سلمياً لزواج الاغتصاب(A٢٦) كما تطورت السرقة بالتدريج إلى تجارة.

السائدة فى المجتمعات الأولى[٢٨] وحَدَثَتْ خلال ذلك حلقات وسطى تَمَّ فيها الانتقال ؛ فأهل مالينزيا كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، لكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا لأسرة الزوجة مبلغاً من المال ؛ كذلك عند بعض أهالى غانة الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة ، وبينما هما فى مخبئهما ، يرسل أصدقاءه ليساوموا أباها فى ثمنها[٢٩] ؛ وإنه لممَّا ينير طريق التفكير أمامنا أن نذكر كيف يَسْهُلُ التغلب بالمال على مقاومة لوضع من الأوضاع الخلقية ؛ فيروى عن أم من قبيلة « ماورى » Maori أنها أخذت تبكى بصوت عالٍ ، وتستنزل أمَرَّ اللعنات على الشاب الذى اختطف ابنتها ، حتى جاءها هذا الشاب بهدية هى غطاء من الصوف ، فقالت ؛ « هذا كل ما أردته ، أردت أن أظفر بهذا الغطاء الصوفى فجعلتُ أصيح بالبكاء »[٣٠] ، لكن ثمن العروس كان يزيد عادة على غطاء من الصوف ، فثمنها عند الهوتنتوت ثور أو بقرة ، وعند قبيلة « كرو » Croo ثلاثة أبقار وشاة ، وعند « الكفير » يتراوح ثمنها من ست أبقار إلى ثلاثين ، حسب المنزلة التى تنزلها أسرة الفتاة فى المجتمع ، وبين « التوجو » Togos ثمنها ستة عشر ريالاً تدفع نقداً ، وستة ريالات تدفع عَيْناً[٣١]

والزواج بالشراء يسود أصقاع أفريقيا جميعاً ، وهو النظام المألوف فى الصين واليابان . وكان شائعاً فى الهند القديمة وعند اليهود القدماء ، وفى أمريكا الوسطى قبل عهد كولمبس ، وفى پيرو ، بل لاتزال أمثلة منه فى أوربا اليوم[٣٢] وهو تطور طبيعى لنظام الأسرة الأبوية ، لأن الوالد يملك ابنته ، وفى وسعه أن يتصرف فيها بما يراه مناسباً لا يُحدِّد حريته فى هذا إلا حدود ضئيلة ؛ ويعبر عن هذا هنود أورنوكو بقولهم إن الخطيب يجب عليه أن يدفع للوالد ثمن تربيته لفتاة سينتفع بها هو[٣٣] ويحدث أحياناً أن تعرض الفتاة فى معرض للعرائس أمام جماعة من الرجال قد يكون منهم لها خطيب ؛ وكذلك من عادة أهل الصومال أن يُزَيِّنوا

العروس أفخر الزينة ، ويعرضوها على ظهر جواد أو ماشيةً على قدميها ، فى جوّ يفوح بالعطور لعلها تستثير الخُطّاب فيدفعوا فيها ثمناً أغلى[٣٤] وليس لدينا مدوّنٌ واحد يدل على أن امرأة عارضت فى زواجها بالشراء ، بل الأمر على نقيض ذلك ، كان النساء يفاخرن بما يدفع لهن ثمناً ، ويحتقرن المرأة التى تسلم نفسها فى الزواج بغير ثمن[٣٥] لأنهن يعتقدن أن الزواج الذى يعقد الحُبُّ أواصره بغير ثمن مدفوع ، يكون فيه الزوج الشرير كاسباً كسْباً عظيما لم يدفع لقاءه شيئاً[٣٦] ومن جهة أخرى كان من المألوف أن يردّ والد العروس ما دفعه العريس هديةً أخذت تزداد قيمتها على مرّ الأيام حتى قاربت ما يدفعه العريس[٣٧] ؛ ثم أخذ الآباء الأغنياء يتوسعون تدريجاً فى هذه الهدايا ، لكى ييسّروا لبناتهم الزواج ، حتى ظهر نظام المهر تدفعه العروس لخطيبها ، وهكذا حلّ شراءُ والد العروس لزوج ابنته محل شراء الخطيب لزوجته ، أو قل إن الشراءين يسيران جنباً إلى جنب[٣٨] .

فى شتى هذه الصور والصنوف التى يتخذها الزواج ، لاتكاد تقع فيها على أثر من الحب والعاطفة ؛ نعم قد تجد حالات قليلة من زواج الحب بين قبيلة البابوا فى غينيا الجديدة ، وكذلك قد تجد بعض حالات الحب فى غيرها من الشعوب البدائية (والحُب هنا معناه إخلاص متبادل لا منفعة متبادلة) لكن هذه الحالات النادرة التى تصادفها لاشأن لها بالزواج ؛ ففى أيام البساطة الأولى كان الرجال يتزوجون ليشتروا عملا رخيصاً ويكسبوا أبوة مُرْبِحَة ويضمنوا وجبات منتظمة من الطعام ، يقول « لانْدرَ » Lander : « يحتفل أهل « ياريبا » Yariba بالزواج دون أن يثير ذلك فى نفوسهم أقل اهتمام ، فتفكير الرجل فى حيازة زوجة لا يزيد على تفكيره فى قطع سنبلة من القمح ، لأن الحُب أمر ليس له وجود[٣٩] لأنه لما كانت العلاقة الجنسية أمراً مباحاً قبل الزواج ، فإن عاطفة الرجل لا تجد من السدود ما يختزنها ، وقلما يكون لها أثر فى اختيار الزوجة ؛ وللسبب نفسه ، أعنى تلاحق الشهوة وتنفيذها بغير فاصل من زمن ، ليس لديهم ما يبرّر

أن يجلس الشاب مفكراً فى طوية نفسه ، فى عاطفته التى احتبست فى صدره والتى من أجل احتباسها أخذت تُزَيِّن له الحبيب المُشْتَهَى ، مما يؤدى عادة إلى الحب العاطفى عند الشباب ؛ إن مثل هذا الحب وظهوره مرهون بالمدنيَّة التى أقامت الأخلاقَ سدوداً أمام الشهوة ، هــذا إلى أن الثروة وازديادها قد مكَّنَتْ بعض الرجال أن ينفقوا ، وبعض النساء أن يصنعن ، ما يقتضيه الحُب العاطفى من علامات الترف والرقّة ؛ فالبدائيون أفقر من أن يعرفوا عاطفة الحب ، ولذلك قلّما تجد فى أغانيهم شعراً يدور حول الحب ؛ ولما ترجم المبشرون المسيحيون الكِتَاب المقـدّس إلى لغة قبيلة « أَلْجُونْكِوِنْ » Algonquins لم يجدوا كلمة فى لغتهم تعبر عن « الحب » ؛ ويصف الواصفون قبيلة الهوتنتوت بأنهم « باردون فى الزواج ولا يأبه أحد من الزوجين بالآخر » وكذلك فى ساحل الذهب « لا يظهر بين الزوج وزوجته من علائم الحب شىء حتى ولا مظاهره الخارجية » وقل هذا كذلك فى أهل أستراليا البدائيين ؛ يقول « كاييه » Caillié إذ هو يتحدث عن زنجى من السنغال : « سألت بابا لماذا لا يمرح أحياناً مع زوجاته ، فقال إنه لو فعل لتعذر عليه بعدئذ أن يملك زمامهن » ؛ ولمـا سئل رجل من أهل استراليا الوطنيين لماذا أراد أن يتزوج ، فأجاب صادقاً بأنه إنما أراد الزوجة لتهيئ له الطعام والشراب والحطب ، ولتحمل له المتاع أثناء الرحيل[40] والتقبيل الذى لا يستغنى عنه الأمريكيون فيما يظهر ، لا تعرفه الشعوب البدائية ، أو هم يعرفونه معرفة الشىء المزْدَرَى[41] .

وعلى وجه التعميم ، نقول إن « الهمجى » يزاول أموره الجنسية بروح فلسفية ، لا يكاد يزيد عن الحيوان فيما يساوره من قلق ميتافيزيقى أو دينى ؛ إنه لا يفكر فى الأمر بينه وبين نفسه ، كلا ولا يطير بعاطفته فى سمائه ، بل الجنس عنده أمر طبيعى كالطعام سواء بسواء ، ولا يحاول قط أن يُزَيِّن لنفسه الدوافع ، فليس فى الزواج عنده شىء من التقديس ، وقلّما يسرف فى الاحتفال به ، بل هو

فى رأيه عملية تجارية صريحة ، ولا يخطر بباله أبداً أنهما يخجله أن يُخضع عاطفته للاعتبارات العملية فى اختياره لزوجته ؛ بل العكس هو أوْلى عنده بإثارة الخجل ، ولو استباح لنفسه من الغرور ما نستبيحه نحن لأنفسنا ، لَسَألَنا عما يبرر التقليد الذى جرينا عليه وهو أن نربط رجلا بامرأة إلى آخر الحياة تقريباً ، لا لشىء سوى أن الرغبة الجنسية قد ربطت بينهما ببرقها الخاطف لمحة واحدة من الزمن ، فالزواج عند الرجل البدائى لا يُنْظر إليه على أساس التنظيم الجنسى ، بل على أنه تعاون اقتصادى ولذلك كان يريد من المرأة ، بل المرأة تريد من نفسها أن تكون نافعة نشيطة أكثر منها رشيقة جميلة (ولو أنه يقدر هـــذه الصفات فيها) ، إذ لا بد أن تكون له كسباً اقتصادياً ، لا خسارة لا كسب من ورائها ، وإلا لما فكر « الهمجى » الواقعىّ فى الزواج إطلاقا ، الزواج عنده شركة تدرُّ ربحا ، لا ضرب من ضروب الدعارة الخاصة ، إنه طريقة تجعل الرجل والمرأة إذا ما تعاونا فى العمل ، أنجح فى الحياة منهما لو عمل كلى منهما مستقلا عن زميله ؛ فحيثما وَجَدْتَ فى تاريخ المدنية مرحلة لا تكون فيها المرأة كسْباً فى زواجها للرجل ، فاعلم أن الزواج قد انهار بناؤه ، وأحياناً تنهار المدنيّة بانهياره .

الفصل الثاني

اخلاق الجنس

العلاقات قبل الزواج — الدعارة — العفة — البكارة —
المعيار المزدوج — الخفر — نسبيه الأخلاق — الدور
الذى يلعبه الخفر من الوجهة البيولوجية — الزنا —
الطلاق — الإجهاض — وأد الأطفال — الطفولة — الفرد

إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هى دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن الغريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبّان الزواج ، وهى تهدد فى كل لحظة بإحداث الاضطراب فى النظام الاجتماعى لإلحاحها وشدتها وازدرائها للقانون وانحرافاتها عن جادّة الطبيعة ؛ وأولى مشكلاتها تقع قبل الزواج ، أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى فى عالم الحيوان ؛ فرفضُ الأنثى للذكر ، إلا فى فترات التهيج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان فى دائرة أضيق جدا من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ، فالإنسان يختلف عن الحيوان — كما يقول بومارشيه — Beaumarchias فى أنه يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر فى كل فصول السنة ؛ وإنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها ، فى تحريم الاتصال بالنساء فى أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام وجدت الاتصال الجنسى قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير فى الجماعات البدائية الأولى ؛ فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالا حراً دون أن يكون ذلك عائقاً للزواج ، وكذلك عند قبيلة پاپوا فى غينا الجديدة تبدأ الحياة الجنسية فى سن مبكرة جداً والقاعدة قبل الزواج هى الشيوعية الجنسية(٤٣) وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج فى قبيلة «السويوت» Soyots فى سيبريا ،

و « إيجوروت » Igorots في الفلبين ، وأهالى بورما العليا ، والكفير واليوشمن فى أفريقيا ؛ وقبائل نيجريا ويوغندا وجورجيا الجديدة وجزائر مرى وجزائر أندمان وتاهيتى وبولينزيا وأسام وغيرها[٤٤] ؛

فى مثل هذه الظروف لا يُنْتظر أن نجد عُهراً كثيراً فى المجتمع البدائى ، فهذه المهنة التى هى « أقدم المهن » حديثة نسبياً لأنها لم تنشأ إلا مع المدنية مع ظهور المِلْكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ؛ نعم لقد تجد هنا وهناك فتيات يبعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصّلن مبلغاً يقدمنه إلى المعابد ، لكن ذلك لايحدث إلا إذا كان التشريع الخلقى فى الإقليم يوافق عليه باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة[٤٥]

وأما العفة فهى الأخرى مرحلة جاءت متأخرة فى سير التقدم ، فالذى كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عقيم[٤٦] ، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك فى معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها فى هذا السبيل ، لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك فى عقمها ، ويبشر بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التى قامت قبل ظهور المِلْكية ، كانت تنظر إلى بكارة الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ؛ حتى كان العريس من قبيلة « كامشادال » Kamchadal إذا ما وجد عروسه بكراً ثارت ثورته و « طفق يسبّ أمها سبًّا صريحاً لهذه الطريقه المهملة التى قدمت بها ابنتها إليه »[٤٧] ، وفى حالات كثيرة كانت البكارة حائلا دون الزواج ، لأنها تلقى على الزوج عبئاً ثقيلا على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذى يقضى عليه بألا يريق دم أحد من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحيانا أن تُسْلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذى يحول بينهن وبين الزواج ، فى التبت تبحث الأمهات فى جدّ عن رجال يفضون بكارة بناتهن ، وفى « ملَبار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون

المارّة فى الطريق أن يؤدوا لهنّ هذه المكرمة « لأنهن ما دمن أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج » ، وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تُسلّم نفسها لأضياف العرس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفضّ له بكارة عروسه ، وقبائل أخرى فى الفليبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتبا ضخما تكون مهمته أن يؤدى هذا العمل نيابة عمن اعتزموا الزواج[٤٨] من الرجال .

فما الذى غيّر النظر إلى البكارة بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت خطيئة ؟ فجعلها بذلك عنصراً من عناصر التشريعات الخلقية فى كل المدنيات العالية ؟ لا شك أنها المِلْكية ، حين قام بين الناس بنظامها ، هى التى أدت إلى هذا التحول ؛ فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالمِلك الذى أحسه الرجل إزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج ؛ وازدادت قيمة البكارة لأن العروس فى ظل نظام الزواج كانت تشترى بثمن أغلى إن كانت بكراً من ثمن أختها التى ضعفت إرادتها ، إذ البكر يُبشّر ماضيها بالأمانة الزوجية التى أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى فى أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ خشية أن يورّثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح[٤٩] .

وأما الرجال فلم يَدُرْ فى خواطرهم قط أن يقيدوا أنفسهم بمثل هذا القيد ، ولست تجد جماعة فى التاريخ كله قد أصرّتْ على عفة الذكر قبل الزواج ، بل لست تجد فى أية لغة من اللغات كلمة معناها الرجل البكر[٥٠] .

بهذا قضى على البنات وحدهن أن يعانين الخوف على بكارتهن ، فأثر فيهن هذا الوضع على صور شتى ؛ فقبيلة « توارج » تعاقب البنت أو الأخت التى حادتْ عن الجادّة بالموت ، وزنوج النوبة والحبشة والصومال وغيرها يضعون على أعضاء التناسل للبنات حلقات أو أقفالا تمنع أداء العملية الجنسية ، ولا يزال شىء كهذا قائما إلى يومنا هذا فى بورما وسيلان[٥١] ؛ كذلك نشأت ضروب من عزل

البنات عزلاً لا يتيح لهن أن يُغْرين الرجال أو يجيئهن الإغراء من الرجال ؛ والآباء الأغنياء فى بريطانيا الجديدة يحجزون بناتهم خلال الخمس السنوات الخطرة فى أكواخ يقيمون عليها حارسات من العجائز الفضليات ، فلا يسمح للبنات بالخروج أبداً ثم لا يؤذن لأحد برؤيتهن إلا الأقارب(٥٢) ؛ وليس بين هذه التصرفات كلها ، وبين « البُرْدة » التى تلبسها المسلمات والهندوس إلا خطوة واحدة ، وإن هذه الحقيقة لتذكرنا مرة أخرى بقُرْب المسافة بين « المدنية » و « الهمجية » .

وجاء الخَفَر مصاحباً للبكارة ولسيطرة الوالد على أسرته ؛ فهنالك قبائل إلى يومنا هذا لا يأخذها الحياء من ترك أجسادها عارية(١٠٢) ، لا بل إن بعضها ليخجله لبس الثياب ؛ ولقد اهتزت جنبات أفريقيا كلها بالضحك حين التمس « لفنجستون » من مُضيفيه السود أن يضعوا على أجسادهم بعض الثياب قبل قدوم زوجته ؛ وكانت « ملكة بالوندا » Balonda عارية من قمة رأسها إلى إخمص قدمها حين عقدت مجلسها من أجل « لفنجستون »(٥٣) ، وبين القبائل أقلية صغيرة تباشر العلاقة الجنسية علناً دون أن يداخلها أثر من الخجل(٥٤) ؛ وكان أول ظهور الحياء عند المرأة حينما أحست أنها محرّمة أيام حيضها ؛ وكذلك حين قام نظام الزواج بالشراء ، وأصبحت بكارة البنت تدر الربح على أبيها ، فولّد عزل الفتاة وإرغامها على البكارة شعوراً عندها بضرورة احتفاظها بعفتها ؛ أضف إلى ذلك أن الحياء عند الزوجة فى ظل نظام الزواج بالشراء ، هو شعورها بتبعة مالية إزاء زوجها بأن تمتنع عن أية علاقة جنسية خارجية ليس من شأنها أن تعود عليه بشىء من الربح ؛ وها هنا ظهرت الملابس ، إن لم تكن الدوافع إلى التزين وإلى الوقاية قد أنشأتها بالفعل قبل ذلك ؛ ففى قبائل كثيرة لا تلبس المرأة ثياباً إلا بعد زواجها(٥٥) علامة على حيازة زوجها لها حيازة تامة ، وحائلاً يحول دون سائر الرجال أن تأخذهم شهامة الرجولة ؛ فالرجل البدائى لا يوافق على الرأى الذى

ذهب إليه مؤلف « جزيرة البطريق » من أن الثياب تشجع على الدعارة ؛ وعلى كل حال فليست العفة متصلة بالثياب صلة ضرورية ، فيحدثنا الرحّالة فى أفريقيا أن الأخلاق هناك تتناسب فى تقدمها تناسباً عكسياً مع كمية الثياب(٥٦) فواضح أن ما يستحيي من فعله الناس إنما يعتمد على أساس التحريم الاجتماعى والتقاليد التى تسود جماعتهم ، فإلى عهد قريب كانت المرأة الصينية يخجلها أن تعرّى عن قدمها ، والعربية يخجلها أن تكشف عن وجهها ، والمرأة من قبيلة « تاورج » يخجلها أن تبدى فمها ، على حين أن النساء فى مصر القديمة ، وفى الهند فى القرن التاسع عشر ، وفى « بالى » فى القرن العشرين (حتى أتاهن السائحون الشهوانيون) لم يخجلهن أبداً أن يكتشفن عن أثدائهن .

لكن لا ينبغى أن ننتهى من ذلك إلى نتيجة هى أن الأخلاق ليست بذات قيمة لأنها تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ، وأنه من الحكمة أن نقيم الدليل على سعة علمنا بالتاريخ بأن نطرح من فورنا التقاليد الأخلاقية فى مجتمعنا ، فالعلم القليل بالأجناس البشرية يُعرِّض للخطر ؛ نعم إنه من الحق فى الأساس — كما قال أناتول فرانس فى سخرية — « إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع »(٥٧) ؛ وكما قال « أناقارسيس » Anacharsis اليونانى ، إنه إذا ما جمعنا كل التقاليد التى تقدسها جماعة ما ، ثم حذفنا منها كل التقاليد التى تمجها جماعة أخرى ، ما بقى لنا منها شىء ؛ لكن ذلك لا يدل على تفاهة الأخلاق فى قيمتها ، إنما يدل على أن النظام الاجتماعى قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى ؛ ولا يقلل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعى ، فلابد من قواعد يرعاها الناس فى اجتماعهم بعضهم ببعض ، كأنما الاجتماع لعبة لا مندوحة للاعبين عن مراعاة قواعدها إن أرادوا المضىّ فى اللعب ، لا بد للناس أن يعلموا كيف يتصرف زملاؤهم فى ظروف الحياة الجارية ؛ ومن هنا كان إجماع الناس فى المجتمع الواحد على اصطناع أخلاق معينة فى سلوكهم لا يقل أهمية من مضمون هذه

الأخلاق نفسها ؛ فإذا تصدينا لتقاليد جماعتنا وأخلاقها بالتنكر والخروج عليها ، حين نستكشف فى صدر شبابنا أن تلك التقاليد والأخلاق نسبية ، فإنما نكشف بذلك عن يفاعة عقولنا ؛ ولو أمهلنا أنفسنا عقداً آخر من عقود العمر ، تكشّف لنا بعدئذ أن التشريع الخلقى الذى ارتضته الجماعة — وهو يلخص خبرة الأجيال المتعاقبة — فيه من الحكمة أكثر مما يمكن لأستاذ أن يشرحه لطلابه فى سلسلة محاضراته فى الجامعة ؛ فسنتبين عاجلا أو آجلا ما يثير فى صدورنا القلق ، وهو أنه حتى هذا الذى لم نستطع فهمه قد يكون صوابا ؛ فالأنظمة والمواضعات والتقاليد والقوانين التى هى قوام المجتمع المتعدد الجوانب ، إنما هى من صنع مئات الأجيال وبلايين العقول ، ولا يجوز لعقل واحد أن يتوقع لنفسه فهمها فى مدى الحياة القصير ، دع عنك مدى عشرين عاماً ؛ فيحق لنا إذن أن نختم بقولنا إن الأخلاق نسبية لكنها ضرورة لا غنى عنها .

فلما كانت التقاليد القديمة الأساسية تمثل الانتخاب الطبيعى فى طرائق حياة المجتمع بعد قرون قضاها الإنسان فى محاولة وخطأ ، فلابد لنا أن نرجح بعض الفائدة الاجتماعية ، أو بعض القيمة فى مساعدة الجنس على البقاء ، فى البكارة والحياء على الرغم من أنهما نسبيان ، وأنهما مرتبطان بنظام الزواج بالشراء ، ومن أنهما سبب فى الأمراض العصبية ؛ فالحياء أو الخَفَر كان بمثابة الكمين فى ميدان القتال تلوذ به الفتاة إذا ما تقدم إلى خطبتها الخاطبون ، لتختار من بينهم أصلحهم ، اختياراً قائماً على روية ، أو لتضطر خاطبها أن يهذب من خصاله قبل أن يظفر بها ؛ على أن السدود التى أقامها خَفَر النساء فى وجوه شهوات الرجال ، هى نفسها التى ولّدت عواطف الحب الشعرى الذى رفع قيمتها فى عينيه ، واصطناع النظام الذى يهتم بالبكارة قد أدى إلى زوال السهولة واليسر الفطرى الذى كانت تتم به الحياة الجنسية البدائية ، لكنه من ناحية أخرى ، بحيلولته دون التطور الجنسىّ فى سن مبكرة ، والأمومة قبل أوانها ، قد ضيّق الفجوة بين النضج الاقتصادى والنضج

الجنسى – ولو أن هذه الفجوة تميل إلى الاتساع السريع كلما تقدمت المدنية – وربما أعان نظام البكارة بهذا الذى ينشأ عنه من تأجيل للحياة الجنسية ، ربما أعان على تقوية الفرد جسما وعقلا ، وعلى إطالة أمد المراهقة والتدريب ، وبهذا ينتهى إلى رفع مستوى الجنس البشرى .

لما تطورت المِلْكية ، تدرج الزنا فأصبح من الكبائر بعد أن كان معدوداً من الصغائر ؛ فنصف الشعوب البدائية التى نعرفها لا تعلق على الزنا أهمية كبرى(٥٨) وعلى ذلك فنشأة المِلْكية لم تؤدِّ فقط إلى مطالبة المرأة بالوفاء التام لزوجها ، لكنها كذلك ولَّدت فى الرجل شعوراً بالمِلْكية إزاء زوجته ؛ حتى حين يعيرها لضيفه ، فهو إنما يفعل ذلك لأنها مِلْكه جسداً وروحاً ؛ ثم كَمُلَ هذا الاتجاه فى تصور المرأة حين ألزموها أن تهبط إلى قبر زوجها مع سائر أدواته ؛ وعُدَّ الزنا فى الأسرة الأبوية مساويا للسرقة (٥٩) كأنما هو فى أساسه اعتداء على الامتلاك ، وتفاوت عقاب الزنا فى شدته من أخف العقوبات إلى أقساها ، من عدم المبالاة عند القبائل البدائية إلى بقر بطون الزانيات وإخراج أمعائهن عند بعض قبائل الهنود فى كالفورنيا(٦٠) وبعد أن مرَّت الجريمة بقرون طويلة من العقاب ، قَرَّتْ فى النفوس فضيلة الوفاء الزوجى عند الزوجة قراراً مكينا وولدت لها ضميرا فى فؤاد المرأة يرعاها ، حتى لقد أدهشت قبائلُ هنديةٌ كثيرةٌ غزاتهم بما لزوجاتهم من فضيلة الوفاء التى يستحيل عندهن التفريط فيها ؛ وتمنى كثير من الرحّالة أن يجىء يوم على النساء فى أوربا وأمريكا يساوين فيه من حيث الوفاء الزوجى زوجات الزولو والپاپوا(٦١) .

وكان الوفاء الزوجى أيسر على أهل « پاپوا » ، لأنهم كمعظم الشعوب البدائية لا يقيمون إلا قليلا من العوائق التى تعوق الزوج عن طلاق زوجته ، حتى أن الاتحاد الزوجى أوشك ألا يزيد بين الهنود الأمريكيين على عدد قليل من السنين ؛ ويقول فى ذلك « سكولكرافت » Schoolcraft : « إن نسبة كبيرة من الرجال

الكهول أو الشيوخ ، قد اتصلت بزوجات كثيرة حتى أن هؤلاء ليجهلون أبناءهم المنتشرين فى أرجاء إقليمهم »[٦٢] ؛ « إنهم يسخرون من الأوروبيين لاكتفاء الرجل منهم بزوجة واحدة مدى حياته ، وهم يرون أن « الروح الطيبة » قد زاوجت بين الزوجين ليكونا سعيدين ، فلا ينبغي أن يظلا معاً إلا إذا تلاءمت فيهما الاتجاهات والميول »[٦٣] ؛ لهذا ترى الرجال من قبيلة « تشروكى » Cherokees يبدلون الزوجة ثلاث مرات أو أربعاً كل عام ، وأما أهل « ساموا » فيبقون على زوجاتهم ثلاث أعوام لأنهم يميلون إلى المحافظة[٦٤] ؛ لكن لما جاءت الزراعة بما تقتضيه من حياة مستقرة ، امتد أمد الروابط الزوجية ؛ ففى ظل النظام الأبوى للأسرة ، كان الطلاق عملية لا تتفق وقواعد الاقتصاد فى رأى الرجل ، لأن طلاق الزوجة معناه فى حقيقة الأمر تفريط فى أمَةٍ تعود على سيدها بالربح[٦٥] ولما أصبحت الأسرة هى نواة الإنتاج فى المجتمع ، تحرث الأرض وترعاها بالتعاون ، ازدادت ثراء كلما ازدادت نفراً وتماسكا ، على فرض المساواة فى سائر الظروف بينها وبين ما هو أصغر منها من الأسر ؛ وتبين للناس ما هو فى صالح المجتمع من أن الرابطة الزوجية ينبغى أن تدوم بين الزوجين حتى يفرغا من تربية أصغر الأبناء ؛ ولكنهما إذا ما بقيا معا حتى هذه السن ، لم يعد لديهما من نشاط الحياة ما يدفعهما إلى حب جديد . وتصبح حياة الزوجين كأنها نفس واحدة لما اشتركا فيه معا من عمل وصعاب ؛ ولم يعد الطلاق إلى اتساع نطاقه من جديد ، إلا بعد انتقال الإنسان إلى الصناعة فى المدن ، وما تبع ذلك من خفضٍ لعدد أفراد الأسرة وقلة فى خطرها .

ويمكن القول بصفة عامة إن الرجال خلال عصور التاريخ كلها أحبوا كثرة الأطفال ؛ ، لذا جعلوا الأمومة مقدسة ؛ بينما النساء اللاتى يقاسين مرارة النسل ، قد اضطربت فى أنفسهن ثورة خفية على هذا التكليف الثقيل ، فاستخدمن ما لا عدد له من الوسائل ليتخففن من أعباء الأمومة ؛ فالرجال البدائيون

لا يأبهون عادة لعدد السكان أن يزيد إلى غير تحديد ، لأن الأبناء مربحون لهم فى ظروف الحياة السوية ، ولئن أسف الرجل على شىء فذاك أنه يستحيل عليه أن يستولد امرأته البنين بغير البنات ؛ أما المرأة فتقايل هذا من ناحيتها بالإجهاض ووأد الأطفال وضبط النسل — فحتى هذا الأخير قد كان يحدث آنا بعد آن فى الشعوب البدائية(٦٦) ؛ وإنه لما يثير الدهشة أن نرى شدة الشبه بين الدوافع التى تحرك المرأة « الهمجية » والدوافع التى تحرك المرأة « المتمدنه » إلى اتقاء الولادة ، وهى أن تفلت من عبء تربية الأطفال ، وتحتفظ لنفسها بقوام فيه فتوة الشباب ، وتتقى العار الذى يلحقها من أمومة لطفل جاءها من غير زوجها ، وتجتنب الموت ، وغير هذه من شتى الدوافع ؛ وأبسط الوسائل التى تتبعها المرأة لتحديد الأمومة أن ترفض الرجل إبان الرضاعة التى قد تطول مدى أعوام كثيرة ، ويحدث أحياناً — كما هى الحال عند هنود تشينى — أن تأبى المرأة حملا ثانياً إلا إذا بلغ طفلها الأول عامه العاشر ؛ وفى بريطانيا الجديدة لم تكن المرأة لتنسل الأطفال قبل مرور عامين أو أربعة أعوام بعد زواجها ؛ ويلاحظ أن قبيلة « جوايكورو » **Guaycuros** فى البرازيل كانت تتناقص تناقصاً مطرداً ، لأن نساءها لم يقبلن حمل الأطفال قبل أن يبلغن الثلاثين ؛ والإجهاض شائع بين أهل « پاپوا » فيقول نساءهم فى ذلك : « عبء الأطفال ثقيل فلقد سئمناهم ، لأنهم ينهكون قوانا » والنساء فى بعض قبائل « الماورى » **Maori** يستعملن أعشاباً أو يسببن فى أرحامهن اعوجاجاً ليتقين الحمل(٦٧) .

وإذا فشلت المرأة فى إجهاض نفسها ، فقد بقى لها أن تئد طفلها ، ومعظم الشعوب الفطرية تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا جاء شائها أو مريضاً أو سِفاحا ، أو إذا ماتت أمه عند ولادته ؛ وكأنما يجد الإنسان مبرراً مقبولا فى كل وسيلة تؤدى به إلى ضبط عدد السكان ضبطاً يتناسب مع مواد الرزق ، فترى كثيراً من القبائل التى تقتل الأطفال إذا ما ظنوا أنهم ولدوا فى ظروف لا يحالفها السعود ؛

فقبيلة « بُنْدى » Bondei تخنق المولود إذا نزل إلى الدنيا برأسه أولا ؛ وقبيلة « كامشادال » تقتل الطفل إذا ولد فى جو عاصف ، وقبائل مدغشقر تترك الطفل الوليد فى العراء حتى يموت أو تغرقه فى الماء أو تئده حيا إذاما أطل على العالم فى مارس أو إبريل ، أو يوم أربعاء أو جمعة أو فى الأسبوع الأخير من أى شهر ، وإذا ما ولدت المرأة توأمين فى بعض القبائل ، عُدّ ذلك برهاناً على اقترافها الزنا ، لأنه يستحيل على رجل واحد أن يكون والد لطفلين فى آن واحد ، وعلى ذلك فأحد الأثنين أو هما معاً يقضى عليهما بالموت ؛ وأد الأطفال كان شائعا بين البدو بصفة خاصة لأنهم كانوا يسببون لهم إشكالا فى ترحالهم الطويل ؛ فقبيلة « بانجرانج » Bangarang فى فكتوريا كانت تقتل نصف أطفالها عند الولادة ؛ وقبيلة « اللنجوا » Lenguas فى إقليم شاكو من باراجواى لم تكن تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من طفل واحد كل سبعة أعوام ، وتقتل مازاد على ذلك ، وقبيلة « أبيبون » Abipones حددت عددها على نحو ما فعل الفرنسيون ، وذلك بأن تنشئ كل أسرة ولداً واحداً وبنتاً واحدة ، وكان نسل غير ذلك يقتل فور ولادته وإذا حلّت ببعض القبائل مجاعة أو تهددتهم مجاعة ، قتلوا أطفالهم حديثى الولادة أو أكلوهم ، وكانت البنت عادة هى التى تتعرض للوأد ، وكانت أحياناً تعذّب حتى تموت بحجة أن ذلك يجعل روحها تعود إلى الحياة فى جسد صبى إذا ما عادت إلى الحياة من جديد(٦٨) ، وكان وأد الأطفال لا يشوبه فى أعينهم بشاعة ولا يستتبع تأنيباً من الضمير ، لأن الأم فيما يظهر لا تحسُّ الحب الغريزى لأطفالها عند ولادتهم مباشرة .

أما إذا سمح للطفل بالحياة أياما قلائل ، فقد أمِنَ القتل ، لأنه سرعان ما تثور فى الوالدين عاطفة الأبوة أو الأمومة لما يريانه فيه من بساطة وضعف ، وفى معظم الحالات ، كان الطفل يلقى من الحب فى معاملته من أبويه البدائيين ما لا يلقاه الطفل على وجه العموم عند من هم أرقى فى المدنية من هؤلاء(٦٩) ؛ ولأن

اللبن أو غيره من ألوان الطعام الطرىّ لم يكن يتوفر لديهم ، كانت الأم تقوم على رضاعة طفلها من عامين إلى أربعة أعوام ، بل قد تمتد الرضاعة أحياناً إلى اثنى عشر عاما[٧٠] ، فيحدثنا رحّالة عن ولد أخذ فى التدخين قبل أن يُفْطم عن الرضاعة[٧١] وكثيراً ما كان الصبي يقف لَعِبَه مع لداته ، أو يقف ما عسى أن يؤديه من عمل ، لترضعه أمه[٧٢] . والمرأة الزنجية تحمل رضيعها على ظهرها إبان عملها ، فإذا أرادت له الرضاعة قذفت له — أحيانا — بثديها عَبْر كتفيها[٧٣] ؛ ولم تكن تربية الآباء لأبنائهم بسيئة النتائج على الرغم من إهمالهم إياهم إهمالا شديدا ذلك لأنهم كانوا يتركون الطفل فى سن مبكرة يلاقى نتائج بلاهته ووقاحته ومشاكسته ، فكان الطفل يزداد علماً كلما ازداد تجربة ؛ وفى المجتمع الفطرى يشتد الحب بين الآباء لبنيهم والأبناء لآبائهم[٧٤] .

والطفولة فى الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض ، ونسبة الوفاة فيهم عالية ؛ والشباب فى تلك الجماعة قصير الأمد ، لأن الزواج كان يبدأ فى سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية ، وسرعان ما يضيع الفرد فى ثقال المهام التى يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها ، فالنساء يُذْوِين حمل الأطفال والرجال يذويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير ، نفدت قواهما ، فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص لفرديته ، لا فى أول الحياة ولا فى نهايتها ؛ فالفردية — كالحرية — ترف جاءت به المدنيّة إذ لم يحدث إلا فى فجر التاريخ أن تحرر من رِبْقة الجوع والنسل والقتال عددٌ من الرجال والنساء يكفى لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن .

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية

طبيعة الفضيلة والرذيلة – الجشع – الخيانة – العنف – القتل – الانتحار – انخراط الفرد فى جماعة – الإيثار – الكرم – أوضاع السلوك – تحديد القبيلة للأخلاق – الأخلاق البدائية بالقياس إلى الأخلاق الحديثة – الدين والأخلاق

من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق ، لأن الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً كلما تلقى جانباً من التراث الخلقى والعقلى الذى خلّفه له الأسلاف ؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيِّئُ الإعداد للمدنية ، لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية ولا تشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التى توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية ؛ كل رذيلة كانت يوما ما فضيلة ضرورية فى تنازع البقاء ، ولم نسمِّها رذيلة إلا لأنها تلكأت فى وجودها بعد زوال الظروف التى كانت تستلزم وجودها – فليست الرذيلة – إذن – ضربا من السلوك الراقى ، بل هى فى العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذى حل مكانه سلوك جديد ؛ فمن الغايات التى ينشد تحقيقها التشريعُ الخلقى أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التى لم تتغير – أو التى تتغير ببطء – مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة .

لبث الجشع وحب التملك والخيانة والقسوة والعنف أمورا نافعة للحيوان وللإنسان مدى أجيال بلغت من طولها حداً تعذر معه على كل ما لدينا من قوانين وتربية وأخلاق ودين أن تزيلها إزالة تامة ؛ ولا شك أن لبعضها – حتى فى يومنا هذا – قيمة فى حفظ البقاء ، فالحيوان يُتخم نفسه طعاماً لأنه لا يعلم متى

عساه أن يجد القوت مرة أخرى ، وهذا الارتياب فى ظروف المستقبل هو منشأ الجشع ؛ فالرجل من قبيلة « ياقوت » يأكل أربعين رطلا من اللحم فى يوم واحد وكذلك تروى قصص كهذه — وإن تكن أقل منها بطولة — عن الإسكيمو والسكان الأصليين فى استراليا[٧٥] ، وإن الاطمئنان الاقتصادى الذى هو من نتائج المدنية لمن حداثة العهد بحيث يتعذر عليه أن يزيل هذا الجشع الطبيعى فى الإنسان ، الذى لا يزال يظهر فى حب التملك الذى لا يشبع ، حتى لتراه يدفع الرجل الحديث أو المرأة الحديثة إذ هما فى قلق من الحياة ، أن يَختزُنا الذهب أو غيره من السّلع التى يمكن تحويلها إلى طعام إذا ما طرأ طارئ مفاجئ ؛ وليس الجشع للشراب كالجشع للطعام لأن معظم الجماعات الإنسانية قد احتشدت حول ينابيع الماء ؛ ومع ذلك فشراب المسكرات يوشك أن يعم الإنسان جميعاً ، وهم لا يطلبونه عن جشع بقدر ما يطلبونه ليدفئوا فى أنفسهم برودة يحسونها ، أو ليمحوا من ذاكرتهم همّاً يشقيهم — وقد يطلبونه لمجرد أن ما تحت أيديهم من الماء لا يصلح شراباً .

والخيانة ليست عريقة القِدَم كالجشع ، ذلك لأن الجوع أسبق إلى الوجود من المِلْكية ؛ ولعل « الهمج » البدائيين فى أبسط صورهم أكثر الناس أمانة[٧٦] « فالكلمة يقولونها مقدسة » كما يقول « كولبن » Kolben عن قبيلة الهوتنتوت « وهم لا يصطنعون شيئاً مما تعرفه أوروبا من وسائل الفساد والخيانة »[٧٧] ؛ لكن هذه الأمانة الساذجة زالت بتقدم وسائل المواصلات التى ربطت أجزاء الأرض بعضها ببعض ، لأن وسائل أوروبا استطاعت بعدئذ أن تعلم هذا الفن الدقيق للهوتنتوت ؛ فالخيانة بصفة عامة تنشأ مع المدنية ؛ لأنه فى ظل المدنية يزداد المجال الذى يتطلب دهاء السياسة اتساعاً ، إذ تزداد الأشياء التى تغرى الإنسان بالسرقة ، وتربيتنا لأبنائنا تنشّئهم على المهارة فى ذلك ؛ فإذا ما تقدمت المِلْكية بين البدائيين جاءهم فى إثرها الكذب والسرقة[٧٨] .

وأما جرائم الافتئات والاعتداء فهى قديمة قِدَمَ الجشع ؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روَّى الأرض بدماء البشر ، لم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيال وغشّى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام ؛ كان الإنسان البدائى قاسياً إذ كان حتْماً عليه أن يكون كذلك ؛ فقد علّمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً ، وأن يكون له قلب يستسيغ « القتل الطبيعى » وأسْوَدُ الصحائف التى تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية ، هى تلك التى تروى لك عن التعذيب الذى يسود الحياة البدائية ، وعن الفرح الذى ينتشى به كثير من البدائيين رجالا ونساء — فيما يظهر — إذا ما أنزلوا بأحد ألما(٧٩) ، وكثير من هذه القسوة كان من اوازم الحرب ، ففى حدود القبيلة الواحدة ، تجد أساليب التعامل أقل وحشية ، فيعامل بعضهم بعضاً — بل يعاملون عبيدهم — برقة لا تقل فى شيء عما تعهده المدنية من ذلك(٨٠) لكن لما كان الناس مضطرين اضطراراً أن يقتلوا إبان القتال ، فقد علّمهم هذا أن يقتلوا كذلك أيام السلم ؛ وكم من البدائيين لا يرون وسيلة لفض النزاع إلا إن مات أحد المتنازعين ؛ وكثير من القبائل لا يرتاع أبناؤها إذا اغتال إنسان إنساناً — حتى إن كان القتيل من أبناء العشيرة نفسها — بمثل الجزع الذى كنا نحن المحدثين نقابله به ؛ فأهل « فويچى » Fuegians لا يعاقبون القاتل بأكثر من نفيه حتى ينسى زملاؤه جريمته ؛ وقبائل الكفير تعدُّ القاتل نجساً ، ويطالبونه بتسويد وجهه بالفحم ، ولكنه بعدئذ إن غسل جسده ومضمض فمه وصبغ جلده بلون بُنِّى قَبِلوه فى الجماعة من جديد ، وأما همج « فوتونا » Futuna فهم — مثلنا — يعدون القاتل بطلا(٨١) ؛ وفى بعض القبائل ترفض المرأة أن تتزوج من رجل لم يقتل أحداً فى قتال ، سواء فى ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده ؛ ومن هنا نشأت عادة اصطياد الرءوس التى لا تزال باقية فى الفلبين حتى اليوم ؛ وعند قبيلة « دياك » Dyak يكون للرجل الذى يعود من مثل هذا الصيد البشرى بأكبر عدد من الرءوس ،

أن يختار من يشاء من بنات القرية ، والبنات يشتهينه زوجا لأنهن يدركن أنهن قد يصبحن — بلقاء مثل هذا الزوج — أمهات لرجال شجعان أقوياء[٨٢](*)

حيث يغلو الطعام ترخص الحياة ، فأبناء الإسكيمو لا مندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء ولا يصلحون لشيء ، فالامتناع عن قتلهم فى مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب النبوة[٨٣] ، وحياة الرجل البدائى رخيصة على نفسه لأنه يقتل نفسه فى اندفاع لا ينافسه فيه إلا اليابانيون ؛ وإذا ما أسيء إلى شخص فانتحر أو أنزل بنفسه الأذى ، فالمسيء لا بد أن يجرى مجراه فى ذلك وإلا عُدَّ منبوذاً من المجتمع[٨٤] ، وما أقدم الانتحار تخلصا من الدَّنَس والعار ؛ وكل شيء قد يكفى سبباً للانتحار ، فقد انتحر بعض الهنديات من شمالى أمريكا لأن أزواجهن قد استباحوا لأنفسهم لومهن ، وانتحر شاب من جزيرة « تروبرياند » لأن زوجته دَخَّنَتْ كل ما كان لديه من تبغ[٨٥] .

وأخذت المدنية على نفسها فيما أخذت أن تحول الجشع عند الإنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والانتحار إلى فلسفة ، وما كان أعظمه من تقدم للإنسان حين رضى القوي أن يأكل الضعيف بوساطة القانون ؛ وإن الجماعة لتفنى إذا ما سمحت لأبنائها أن يقف بعضهم من بعض نفس الموقف الذى يشجعهم أن يقفوه جماعةً إزاء غيرها من الجماعات ، فالتعاون الداخلى هو أول قانون للتنافس الخارجى ، وتنازع البقاء لا ينتهى بتعاون الأفراد بعضهم مع بعض ، إنما هو ينتقل إلى الجماعة بعد أن كان للفرد ، ولو تساوت الظروف فى جماعتين إلا فى أن إحداهما يستطيع أعضاؤها من أُسَر وأفراد أن يتحد بعضهم مع بعض ، فهى التى تستطيع أن تسبق الأخرى فى ميدان

---

(١) تكون هذه الفكرة نصف موضوع المسرحية التى ألفها سنج Synge وعنوانها : فتى الغرب Teh Playboy of th Western World

التنافس سبقا يتناسب مقدراه . مع مقدار ما بداخلها من تعاون ؛ ومن هنا كان لكل جماعة تشريع أخلاق تلقنه لأفرادها ، وتبنى لهم فى أفئدتهم ميولا اجتماعية تقالل من الحرب الطبيعية التى هى من شأن الأحياء ، وإنما تفعل الجماعة ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم حلفاؤها وأركانها المستورة ؛ وهى تؤيد طائفة من الخصال أو العادات فى الفرد من شأنها أن تعود بالنفع على الجماعة ، ولذا تسميها فضائل ؛ كما تنفّر النفوس من أضدادها بأن تسميها رذائل ؛ وبهذه الطريقة ينخرط الفرد — فى ظاهره إلى حد ما — فى سلك الجماعة ، والحيوان فيه يصبح مواطنا .

لم يكن — أو كاد ألا يكون — توليد العواطف الاجتماعية فى نفس « الهمجى » بأصعب من إثارة هذه العواطف اليوم فى قلب الإنسان الحديث ، فلئن كان تنازع الحياة قد شجع على قيام الشيوعية ، فقد عزز تنازع الملك الشعوربالفردية ؛ وربما كان الإنسان البدائى أسرع من الإنسان المعاصر استعداداً للتعاون مع زملائه فقد كان أيسر عليه من الإنسان المعاصرأن يتماسك اجتماعياً مع زملائه لأن الأخطار والمصالح التى كانت تربط بالجماعة كانت أقوى منها الآن ، كما كانت أملاكه أقل من أن تجعله يتفرّد بمصالح من دون زملائه(٨٦) ؛ لقد كان الإنسان البدائى عنيفاً جشعاً ، لكنه كان كذلك رحيما كريما ، مستعداً لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء ، ولتقديم الهدايا لأضيافه(٨٧) فكل قارئ يعرف كرم البدائيين كيف كان يدفعهم فى قبائل كثيرة إلى حد تقديم زوجة المضيف أو ابنته إلى نزيل بيته(٨٨) ورفض مثل هذه التحية أثناء الضيافة يعتبر عندهم إيذاء شديداً لشعورهم : اشعور المضيف وشعور المرأة فى آن معاً ، وإن ذلك لمن المشكلات التى يصادفها المبشرون ؛ والمعاملة التى يُعامَل بها الضيف إبان إقامته تتوقف على الطريقة التى عالج بها أمثال هذه التبعات فى أول قدومه(٨٩) ؛ ويظهر أن الإنسان البدائى قد كان يشعر نحو امرأته شعور الغيرة على ملكه لا شعور الغيرة الجنسية ، فلا يسىء إليه أن تكون زوجته قد «عرفت» رجالا غيره قبل زواجها منه ، ولا يؤذيه أنها

الآن تضاجع ضيفه ، لكنه يثور بالغضب – باعتباره مالكاً لا باعتباره عاشقاً – إذا ما رآها تضاجع رجلا بغير استئذانه ؛ وبعض الأزواج فى أفريقيا يعيرون زوجاتهم إلى الغرباء لتسهيل أمورهم عند هؤلاء[٩٠]

إن قواعد المجاملة كانت من التعقد لدى معظم الشعوب الساذجة ، بمثل ماهى عليه لدى الأمم الراقية[٩١] فكلى جماعة لها طرائقها الرسمية فى الاستقبال والتوديع ، فإذا ما التقى شخصان فقد يتحاكان بالأنوف أو يتشمم أحدهما الآخر ، أو يضرب كل منهما زميله ضربا رقيقا[٩٢] ولكن هؤلاء الناس – كما أسلفنا – يستحيل أن يقبِّل أحد منهم أحداً ؛ وبعض القبائل الغليظة كانت أحسن أدبا من متوسط الإنسان الحديث ، فصيادو الرءوس البشرية من قبيلة « دياك » يقال عنهم إنهم « وديعون مسالمون » فى حياتهم المنزلية ؛ وهنود أمريكا الوسطى يعتبرون حديث الرجل الأبيض بصوت عال وسلوكه الغليظ من علامات سوء تربيته وثقافته البدائية[٩٣] .

إن كل الجماعات البشرية تقريبا تكاد تتفق فى عقيدة كل منها بأن سائر الجماعات أحط منها ؛ فالهنود الأمريكيون يعدون أنفسهم شعب الله المختار ، خلقه « الروح الأعظم » خاصة ليكون مثالا يرتفع إليه البشر ، وقبيلة من القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لا ناس سواهم » وأخرى تطلق على نفسها « الناس بين الناس » وقال « الكاريبيون » Caribs « نحن وحدنا الناس » ، وكان الاسكيمو يعتقدون أن الأوربيين إنما ارتحلوا إلى جرينلنده لينفذوا عنهم طرائق العيش الصحيحة والفضائل[٩٤] ونتيجة ذلك أن الإنسان البدائى لم يكن يدور فى خلده أن يعامل القبائل الأخرى ملتزما نفس القيود الخلقية التى يلتزمها فى معاملته لبنى قبيلته ، فهو صراحة يرى أن وظيفة الأخلاق هى تقوية جماعته وشد أزرها تجاه سائر الجماعات ، فالأوامر الخلقية والمحرّمات لا تنطبق إلا على أهل قبيلته ، أما الآخرون فما لم يكونوا ضيوفه ، فمباح له أن يذهب فى معاداتهم إلى الحد المستطاع[٩٥]

ليس التقدم الخلقى فى التاريخ متمثلا فى تحسُّن التشريع الخلقى بمقدار ما هو متمثل فى توسيع الدائرة التى يُطبَّق فيها ، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائى ، ولو أن التشريعين الخلقيين قد يختلفان فيما بينهما اختلافا بينا من حيث المضمون والتنفيذ والأداء ، لكن الأخلاق الحديثه فى الأيام العادية تتسع نطاقا بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذى قبل — ولو أن هذا التوسع قد أخذ يقل تدريجيا(*) ذلك أنه لما جعلت القبائل تحتشد فى وحدات أكبر تسمى دُوَلا ، فاضت قواعد الأخلاق عن حدود القبيلة ؛ ثم لما اتصلت الدول بوسائل المواصلات أو بالخطر المشترك ، تسللت الأخلاق من دولة إلى دولة خلال الحدود ، وطفق فريق من الناس يطبق قواعده الخلقية على الأوروبيين جميعا ، ثم على الجنس الأبيض كله ، ثم أخيراً على البشر أجمعين ، وربما لم يخل عصر من العصور من أصحاب المثل العليا الذين تمنوا أن يحبوا الناس جميعا حبهم لجيرانهم ، وربما كانت أصواتهم دائما صيحات فى واد بلقع من قوميات وحروب ، لكن عدد هؤلاء الناس أو حتى نسبتهم العددية إلى غيرهم ، قد زادت اليوم على الأرجح ، ولئن خلت السياسة من الأخلاق ، فهنالك أخلاق فى التجارة الدولية لسبب بسيط هو أن هذه التجارة يستحيل قيامها بغير شىء من القيود والقانون والثقة ، فإن بدأت التجارة فى القرصنة ، فقد صعدت إلى قمة الأخلاق .

ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة ، إذ الفرد لم تهيئه طبيعته بالميول التى تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع ، أو نحو طاعة القوانين المحرجة للصدور إذا لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة ؛

(*) ومع ذلك فالمدى الذى يطبق فى حدوده التشريع الخلقى قد أخذ يضيق منذ العصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات .

فلكى تقيم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور ، ولكى تقوّى فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية ، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تخترعها ؛ ولقد عبر الجغرافى القديم « سترابو » عن أكثر الآراء تقدماً فى هـــذا الموضوع منذ تسعة عشر قرنا فقال :

إنك فى معاملتك لحشد من النساء ، على أقل تقدير ، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق ، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم ، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعا بضرورة الوقار والورع والإيمان كلا ، بل لا بد لهم من الخوف الدينى أيضاً . ولا يمكن إثارة هذا الخوف فى نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ؛ فالصواعق والدروع والصولجانات والمشاعل ورماح الآلهة ، كل هذه من الأساطير ، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله إلى آخره ؛ لكن مؤسسى الدول حرصوا على هـــذه الأشياء باعتبارها عفاريت يُفزعون بها السذّج من الناس ؛ ولما كانت هذه طبيعة الأساطير (الميثولوجيا) ثم لما احتلت الأساطير مكانتها فى إطار الحياة المدنية والاجتماعية كما احتلت مكانتها كذلك فى تاريخ الوقائع الملموسة ، فقد تمسّك القدماء بنظمهم فى تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج ، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهذبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ ؛ أما اليوم ، وبعد أن مرَّ هذا الزمن الطويل ، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة فى مقدمة ما يربى به النشء ؛ مع أن الفلسفة لا تصلح إلا للقليل ، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة »[٩٦] .

فسرعان ما تسبغ العقيدة الدينية على الأخلاق لوناً من التقديس ، لأن ما هو فوق الطبيعة يضيف أهمية يستحيل أن تكتسبها من تلقاء نفسها الأشياء التى نعرفها بالتجربة الحسية والتى نفهمها بردّها إلى أصولها ، فالخيال أيسرُ وسيلةً من العلم فى حكم الناس ؛ ولكن هل كانت هذه الفائدة الخلقية هى أصل العقيدة الدينية وأساسها ؟

الفصل الرابع

الدين

الملاحدة البدائيون

إذا عرّفنا الدين بأنه عبادة القُوَى الكائنة فوق الطبيعة . فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب ــ فيما يبدو ــ ليس لهم ديانة على الإطلاق فبعض قبائل الأقزام فى أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ؛ ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة ؛ وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال ، فإذا ما فرغوا من دفنهم لم يَبْدُ عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً ، بل أعوزتهم حتى الخرافة ، ذلك لو أخذنا بأقوال الرحّالة فلم نظن بأقوالهم الإسراف الذى يعزّ على التصديق[96] ؛ وأما أقزام « الكامرون » فلم يعترفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط إرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة فى هذه السبيل عبث لا يجدى ؛ وقبيلة « ڤيدا » فى سيلان اعترفت باحتمال وجود الآلهة وخلود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحدّ بحيث يؤدُّون الصلاة أو يقدمون القرابين ؛ وسأل أحدَهم سائلٌ عن الله فأجاب فى حيرة فيلسوف حديث : « أيكون على صخرة أم على تل من تلال النمل الأبيض أم على شجرة ؟ إنى لم أر قط إلهاً ! »[96ب] ؛ وهنود أمريكا الشمالية تصوروا إلها لكنهم لم يعبدوه ، وظنوا ــ كما ظن أبيقور ــ أنه أبعد من أن يعنى بأمورهم[96ﺟ] ، وقال هندى من قبيلة « أبيپون » ما عساه أن يحير عالماً من علماء الميتافيزيقا ، إذ قال فى لهجة كونفوشيّة « إن آباءنا وأجدادنا كانت تعنيهم هذه الأرض وحدها ، لا يرجون شيئاً سوى أن يُنْبت لهم السهل كلأً ويفجّر لهم ماء لتَطْعَمَ جيادُهم

وتشرب ؛ إنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما يجرى فى السماء ، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها » ، ولما كان الإسكيمو يُسألون من ذا صنع السماوات والأرض ، كانوا يجيبون دائماً بقولهم « لسنا ندرى »[٩٦د] ، وسئل رجل من « الزولو » : « إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب ، وإذا رأيت الشجر ينمو ، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها ؟ » أجاب فى بساطة بقوله « كلا ، فنحن نراها ، لكننا لانستطيع أن نعلم أنَّى جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء أنفسها »[٩٦هـ]

على أن هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً اعتقاداً سليماً ؛ وهذه ، فى رأى الفيلسوف ، حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية ، فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو الباطل ، لأنه معنىٌّ قبل ذلك بالمشكلة فى ذاتها ، أعنى مشكلة العقيدة الدينية من حيث قِدَم ظهورها ودوام وجودها ، فما أساس هذه التقوى التى لا يمحوها شىء من صدر الإنسان ؟ .

١ — مصادر الدين

الخوف — الدهشة — الأحلام — النفس — الروحانية

الخوف — كما قال لوكريشس — أول أمهات الآلهة ، وخصوصاً الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءتها المنيَّةُ عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة فى الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية[٩٧] وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة ، ففى أساطير سكان بريطانيا الجديدة الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ أخطأته الآلهة ، فقد قال الإله الخيِّر

«كامبينانا» إلى أخيه الأحمق «كورڤوڤا» : «اهبط إلى الناس وقل لهم يسلخوا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ، ثم أنبئ الثعابين أن موتها منذ اليوم أمر محتوم» فخلط «كورڤوڤا» بين شطرى الرسالة بحيث بلّغ سر الخلود للثعابين ، وقضاء الموت للإنسان(٩٨) ؛ وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يخلد لو استطاع أن يبدّل بجلده جلداً آخر(٩٩) .

وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التى تأتى مصادفة أو الأحداث التى ليس فى مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل فى معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسرِّه العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذى تحدثه أجرام السماء فى الأرض والإنسان ؛ لقد بهت الإنسان البدائى لهذه الأعاجيب التى يراها فى نومه ، وفزع فزعا شديداً حين شهد فى رؤياه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة ؛ لقد دفن موتاه بيديه ليحول دون عودتهم ؟ لقد دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر الحاجات، حتى لا يعود الميّت من جديد فيصبّ عليه لعنته ، بل كان أحيانا يترك للميّت الدار التى جاءه فيها الموت ، وينتقل هو إلى دار أخرى ، وفى بعض البلدان كان الإنسان البدائى يُخرج الجثة من الدار خلال ثقب فى الحائط ، لا من بابها ، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة ، لكى تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبدا(١٠٠) .

مثل هذه الأحداث التى كانت تصادف الإنسان البدائى فى حياته ، أقنعته بأن كل كائن حى له نَفْس أو حياة دفينة فى جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت ؛ جاء فى كتاب من كتب «يوپانشاد» فى الهند القديمة : «لا يوقظنّ أحدٌ نائماً إيقاظاً مفاجئاً عنيفاً ؛ لأنه من أصعب الأمور علاجا أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها»(١٠١) وليست الروح

بقاصرة على الإنسان وحده ، بل إن لكل شيء روحاً ، والعالم الخارجيّ ليس مواتاً ولا خلواً من الإحساس ، لكنه كائن حيّ دافق الحياة[١٠٢] ولو لم يكن الأمر كذلك — هكذا ظن الفلاسفة القدامى — لكان العالم مليئاً بالأحداث التي يستحيل تعليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذي يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر . وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخصَّة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ؛ وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ؛ وهذه الروحانية في النظر إلى الأشياء هي ما في الدين من شعر ، وما في الشعر من دين ؛ وقد نشاهدها في أبسط صورها ، في عيني الكلب الدَّهِشتَيْن إذ يرقب بهما ورقة حملتها الريح أمامه ، فربما ظنّ إزاءها أن لها روحا تحركها من باطنها ، وهذا الشعور نفسه هو الذي نصادفه في أعلى درجاته عند الشاعر فيما ينظم من قصيد ؛ ففي رأي الإنسان البدائي — وفي رأي الشعراء في كل العصور — أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء ، كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئيَّة للنفوس الباطنية الخفية ؛ وكذلك الحال مع اليونان الأقدمين إذ جعلوا السماء هي الإله « أورانوس » ، والقمر هو الإله « سلين » ، والأرض هي الإلهة « جي » ، والبحر هو الإله « بوزيدن » ، وأما الإله « پان » ففي كل أرجاء الغابات في وقت واحد ؛ والغابات في رأي الجرمان الأقدمين كانت في أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمَرَدة والأقزام وعرائس الجن وإنك لتلمس هذه الكائنات الجنيّة مبثوثة في موسيقى « فاجنر » وفي مسرحيات « إبْسِن » الشعرية ؛ والفلاح الساذج في إيرلندة لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ، ويستحيل أن يُعترف بشاعر أو كاتب مسرحيّ على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيّات في أدبه ، وإن في هذه النظرة الروحانية لحكمةً وجمالاً ، فمن الخير الذي يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملتك للأحياء ؛

والنفس الحساسة – كما يقول أرهف الكتاب المعاصرين حساسية – ترى كأنما :

« الطبيعة قد أخذت تتبدّى فى هيئة مجموعات كبرى من كائنات حية مستقل بعضها عن بعض ؛ بعضها مرئىٌّ وبعضها خفىٌّ ، لكنها جميعاً من طبيعة العقل ، ثم هى جميعاً من طبيعة المادة ، وهى كذلك جميعاً تمزج فى أنفسها بين العقل والمادة فتكوّن بذلك سر الوجود العميق . . . إن العالم مليء بالآلهة ! فمن كل كوكب ومن كل صخرة ينبثق وجودٌ يثيرنا بنوع من الإحساس الذى ندرك به كثرة ما هنالك من قُوًى شبيهة بقوى الآلهة ، فمنها القوى ومنها الضعيف ، ومنها الجليل ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والأرض لتحقق غاياتها التى كتمتها فى أجوافها سرًّا »(١٠٣)

٢ – المعبودات الدينية

الشمس – النجوم – الأرض – الجنس – الحيوان – الطوطمية – الانتقال إلى مرحلة الآلهة البشرية – عبادة الأشباح – عبادة الأسلاف

لما كان لكل شيء روح ، أو إله خفىٌّ ، إذن فالمعبودات الدينية لاتقع تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ، وما هو جنسىٌّ ، وما هو حيوانىّ ، وما هو بشرىّ ، وما هو إلهىّ ؛ وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان ؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى ؛ فكما أننا اليوم نتحدث فى أغانينا الشعبية عن « الرجل الذى يسكن القمر » كذلك صورت الأساطير الأولى القمر رجلا شجاعا أغوى النساء وسبّبَ لهن الحيض مرة كلما ظهر ؛ ولقد كان القمر إلها محببا للنساء ، عَبَدْنَه لأنه حاميهن بين الآلهة ؛ وكذلك اتُّخِذ القمر الشاحبُ مقياسا للزمن ، فهو فى ظنهم يهيمن على الجو ، ويُنَزِّل من السماء المطر والثلج ، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء لينزل لها المطر(١٠٤) :

ولسنا ندرى متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء ، عند الديانة البدائية ؛ وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محدّداً لفصول البَذْر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هى العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خيرات ؛ عندئذ انقلبت الأرض فى أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذى نفخ الحياة فى كل شىء حى[105] ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها ؛ ألم يَقْضِ اليونان على أناكسجوراس بالنفى لأنه استباح لنفسه أن يذهب بالظن مذهبا مؤداه أن الشمس ليست إلها ، بل هى كرة من النار تقرب فى حجمها من « پلپونيز » ؟ وكذلك استَبْقَتْ العصور الوسطى بقيّةً من عبـادة الشمس فى الهالات التى كان الناس يصورونها حول رءوس القديسين[106] ، وإمبراطور اليابان فى أيامنا هذه معدود عند معظم شعبه بأنه تجسيد لإله الشمس[107] ، الحق أنك لا تكاد تجد خرافة من خرافات العصر القديم إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم ؛ إن المدنيّة صنيعةُ أقلية من الناس أقاموا بناءها فى أناة واستمدوا جوهرها من حياة الترف ؛ أما سواد الناس وغمارهم فلا يكاد يتغير منهم شىء كلما مرت بهم ألف عام .

وكل نجم شأنه شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهاً وهو بذاته إله ، ويتحرك بأمر روح كامن فى جوفه ؛ وهذه الأرواح فى ظل المسيحية أصبحت ملائكة تَهدى سواء السبيل ، أو إن شئت فقل أصبحت لأفلاك السماء قادةً تسلك بها فى مسالكها ، حتى « كپلر » لم يبلغ من النظرة العلمية مبلغاً يحمله على إنكارها ؛ والسماء نفسها كانت إلهاً عظيما ، تقام لها العبادة فى تبتّل لأنها هى التى تُنْزِل الغيث أو تحبسه ؛ وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة « الله » لتعنى « السماء ولفظ الله عند « اللوبارى » و « الدنكا » معناها المطر ، كذلك كانت السماء

عند المنغوليين هي الإله الأعظم ، وكذلك الحال فى الصين ، وفى الهند الفيدية أيضاً ، معنى كلمة الله هو « السماء الوالدة » ، والله عند اليونان هو ريوس أو السماء « مرغمة السحاب » وهو « أهورا » عند الفرس ، أى السماء الزرقاء(١٠٨) .

ولا نزال فى أيامنا هذه نضرع إلى « السماء » أن تقينا الشرور ، ومعظم الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الخصب الذى نتج عن تزاوج الأرض والسماء .

لأن الأرض هى الأخرى كانت إلهاً ، وكل مظهر رئيسى من مظاهرها كان يقوم على أمره إله ؛ فللشجر أرواح كما لبنى الإنسان سواء بسواء ، وقطعُ الشجرة معناه قتلٌ صريح ؛ وكان الهنود فى أمريكا الشمالية أحياناً يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التى كانت أرواحها تقى « الحُمْرَ » من الأذى ؛ وفى جزر « مولقّا » كانوا يعتبرون الأشجار أيام الإزهار حواملَ أجنّة ، فلا يجيزون إلى جوارها ارتفاع الصوت أو إشعال النار أو غير ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدوا على الأشجار الحبليات سكونها ، وإلا لجاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها كما تجهض المرأة إن ألم بها الفزع ؛ وكذلك فى « أبُويْنا » Aboyna لا يؤذن بالأصوات العالية على مقربة من الأرز إذا ما ازهرت سنابله خشية أن يصيبه الإجهاض فينقلب أعواداً من القش العقيم(١٠٩) و« الغال » القدماء عبدوا أشجار غابات معينة كانت لديهم مقدسة ، وكذلك القساوسة « الدرديون » Druid فى انجلترا مجّدوا دِبْقَ أشجار البلوط ، الذى لا يزال يوحى إلينا بشعيرة من الشعائر المحببة إلى نفوسنا ؛ وأقدم عقيدة دينية فى آسيا ـــ مما تستطيع أن تتعقبه إلى أصوله التاريخية ـــ هى تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال(١١٠) فكثير من الجبال كان أماكن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مقراً ترسل منه ما شاءت من صواعق ؛ وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدراً فهزوا أكتافهم ويعلل أهل « فيجى » الزلازل بأن إله الأرض يتقلب فى نومه ؛ وإذا ما زلزلت

الأرض عند قبيلة « ساموا » أخذوا يقرضون الأرض بأسنانهم ويبتهلون إلى الإله « مافوِى » Mafuie أنه يسكن حشية أن تتمزق الأرض كلها إربا إربا[111] ، والأرض عند الناس فى شتى النواحى المعمورة تقريباً هى « الأم الكبرى » فاللغة الإنجليزية التى كثيراً ما تكون بمثابة الرواسب التى تجمعت فيها العقائد البدائية أو اللاشعورية ، تشير حتى اليوم بصلة القربى بين المادة والأمومة (مادة معناها Matter والأم معناها Mother)[112] وليس « إشتَر » « وسِبيل » و « دِمِيتر » و « سيريز » و « أفروديت » و « ڤينَس » و « فرِييا » إلا صوراً متأخرة نسبياً لإلهات الأرض الأوليات اللائى خلعن من خصوبتهن خصوبة على الأرض فأخرجت من جوفها الخيرات ؛ وما رواه الناس عن ولادة هؤلاء الإلهات وزواجهن وعن موتهن وعودتهن منتصرات إلى الحياة ، إن هو إلا رموز أو تعليل لظهور النبات ثم جفافه ، والتجديد والملحوظ الذى يطرأ على حياة النبات حيناً بعد حين ؛ وهذه الإلهات تدل بأنوثتهن على أن الإنسان البدائى قد ربط بين الزراعة والمرأة ؛ فلما أصبحت الزراعة هى الصورة السائدة فى الحياة الإنسانية ، كانت إلاهات النبات هى سيدة الإلاهات جميعاً ، ومعظم الأرباب فى العصر القديم كان من النساء ، ثم حل محلهن الآلهة الذكور ، حين ظهرت الأسرة الأبوية فوق الأرض ظافرة[113]

وكما يرى العقل البدائى فيما يقول من شعر عميق سرًّا إلهيًّا فى نمو الشجرة ، كذلك يرى يداً إلهية فى حمل الجنين أو ولادته ؛ إن « الهمجى » لا يعرف شيئاً عن البويضة والجرثومة المنوية ، لكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينيه ، التى تشترك معاً فى هذه العملية فيؤلهها ، فهى كذلك تكمن فى جوفها الأرواح ولابد من عبادتها ، أليست هذه القُوى الخلاّقة العجيبة فى سرِّها ، أعجب الكائنات جميعاً ؟ ففيها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر فى تربة الأرض نفسها ؛ وإذن فلابد أن تكون أقرب ما تُجَسِّدُ فيه الآلهة قُوَّتها ؛ وتوشك الشعوب البدائية جميعاً أن تَعْبُدَ الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من

الشعائر ؛ ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنيّة ، هو الذى عبّر عن هذه العبادة تعبيراً كاملا ؛ وسنرى هذه العبادة فى مصر والهند وبابل وآشور واليونان والرومان ؛ كان الناس يجلون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسى من آلهتهم البدائية إجلالا عظيما[114] لالأنهم يرون فى ذلك شيئاً من الفاحشة بل لأنهم يرتبطون ارتباطاً وجدانياً بالخصوبة فى المرأة وفى الأرض ؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والثعبان لأن لهما — فيما يظهر — القوة الإلهية فى الإنسال ، أو قُلْ إنهما يرمزان لتلك القوة فلا شك أن الثعبان فى قصة عدْن رمز جنسىٌّ يمثل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشر كله ، ويوحى بأن اليقظة الجنسية هى بداية الخير والشر ، وربما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثـــال بين سذاجة العقل ونعيم الفردوس(*)

وتكاد لاتجد حيواناً فى الطبيعة كلها — من الجُعَل (الجعران) المصرى إلى الفيل عند الهندوس — لم يكن فى بلدما موضع عبادة باعتباره إلها : فهنود « أوجِبوَا Ojibwa » أطلقوا اسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذى يعبدونه ، وعلى العشيرة التى تعبده ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ؛ ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسما على مذهب « الطوطمة » الذى يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشىء معين — وعادة يكون الشىء المعبود حيواناً أو نباتاً — تتخذه جماعة ما موضع عبادتها ؛ ولقد وجدنا أنواعاً مختلفة من الطواطم فى أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة ، من قبائل الهنود فى شمالى أمريكا ، إلى أهل أفريقيا وقبيلة « دراڤيد » Daraviians فى الهند ، وقبائل استراليا[115] ؛ ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً . على توحيد القبيلة التى ظن أعضاؤها أنهم مرتبطونِ معاً برباطه ، أو هبطوا جميعاً من سلالته ؛ فقبيلة « إراكو » تعتقد — على نحو شبيه بما يذهب إليه دارون — أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الدببة

(*) انظر الفصل الثانى عشر ، الفقرة السادسة ، من الجزء الخاص بالشرق الأدنى .

والذئاب والغزلان ، وأصبح الطوطم – باعتباره شعاراً أو رمزاً – علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قُربى ، وتميزهم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور فى صور علمانية فكان منه التمائم والشارات ، كهذا الذى تتخذه الأمم من شعارات لها كالأسد أو النسر ، أو الأيل الذى تتخذه الجمعيات التى تعمل على الإخاء بين الناس ، أو هذه الحيوانات الخرساء التى تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم ، لتمثيل رسوخ الفيلة أو صخب البغال ؛ وكانت الحمامة والسمكة والحَمَل ، فى رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم فى تمجيد الطواطم ؛ بل إن الخنزير الوضيع كان يوماً طوطما لليهود السابقين للتاريخ(١١٦) ؛ وفى معظم الحالات كان الطوطم محرماً لا يجوز لمسه ؛ ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلا تعبُّدياً (*) ، وقبيلة « غالا » فى الحبشة تأكل السمكة التى تعبدها فى احتفال دينى رصين ، ويقول أبناؤها : « إننا نشعر بالروح تتحرك فينا إذ نحن نأكلها » ؛ وما كان أشد دهشة المبشرين الأطهار ، إذ هم يبشرون بالإنجيل لقبيلة « غالا » أن وجدوا بين هؤلاء السذّج شعيرة شديدة الشبه بالقُدّاس عند المسيحيين(١١٩)

ويجوز أن قد كان الخوف أساس الطوطمة ، كما هو أساس كثير من العبادات ، وذلك بأن يكون الإنسان قد عَبَدَ الحيوان لقوته ، فلم يَرَ بُدًّا من استرضائه ، فلما أن طهَّر الصيدُ الغابة من وَحْشها ، ومهد الطريق للطمأنينة الّتى تتوفرُ فى الحياة الزراعية ، قلّتْ عبادة الحيوان ولو أنها لم تزُلْ تمام الزوال ؛ وربما استمدت

(*) يعتقد فرويد بما له من خصوبة فى الخيال يتميز بها ، أن الطوطم هو صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذى يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته ، فيثورون عليه ويأكلونه (١١٧) ويرى دركهايم أن الطوطم رمز للعشيرة يهابه الفرد ويمقته (ومن هنا كان « مقدساً » و « نجسا » فى آن معاً) لشدة سلطانه عليه سلطاناً لا يغلب ولاستبداده استبداداً يحرج الصدر ، وأن الشعور الدينى فى أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولى الأمر فى جماعته الذين بيدهم السلطة(١١٨)

الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التى جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلا ؛ والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح فى القصص المشهورة التى تروى لنا تحول الصورة الإلهية ، والتى تراها فى « أوفد » الشاعر ، وفى كل شاعر من قبيلة من تراهم فى لغات الأرض جميعاً ، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدئذ ظلت صفات الحيوان لاحقة بالآلهة لا تبرحها ، كما تظل رائحة الاصطبل لاحقة بمكانه حتى بعد تحويله قصراً ريفياً منيفاً ؛ حتى فى « هومر » الذى كان قد بلغ من الرقى مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة « جلوكوپس أثيني » لها عينا بومة ، و « هيرى بوپس » لها عينا بقرة ؛ والآلهة أو الغيلان فى مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعترف بالحقيقة عينها ، وهى أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية(١٢٠) .

ومع ذلك فمعظم الآلهة البشرية قد كانوا — فيما يظهر — عند البداية رجالا من الموتى ضخموا بفعل الخيال ؛ فظهور الموتى فى الأحلام كان وحده كافياً للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف ، فهى على الأقل زميلته ؛ وخصوصاً مَنْ كانوا أقوياء إبان حياتهم ، فألقوا الخوف فى نفوس الناس ؛ هؤلاء يرجح جداً أن يُعْبَدُوا بعد موتهم(١٢١) ، ولذلك تجد الكلمة التى معناها « إله » عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها فى الحقيقة « رجل ميت » ؛ وحتى اليوم ، ترى كلمة « Spirit » فى الإنجليزية وكلمة « Geist » فى الألمانية معناهما إما روح وإما شبح ؛ وكان اليونان يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقديسين(١٢٢) ؛ ولقد بلغت العقيدة فى استمرار حياة الموتى — وهى عقيدة تولّدت فى بدايتها من الأحلام — مبلغاً عظيما حتى جعل البدائيون أحياناً يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفىّ الدقيق ؛ ففى قبيلة من القبائل ، إذا ما أراد الرئيس أن يبعث بخطاب لميت ، أسمعه لعبد ثم قطع رأس العبد ليؤدى الرسالة ، فإذا نسى

الرئيس شيئاً كان يريد ذكره فى الخطاب ، أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون « حاشية » للخطاب الأول[١٢٣]

ثم تدرجت عبادة الأشباح حتى أصبحت عبادة للأسلاف ؛ فقد بات الناس يخافون موتاهم جميعاً ويعملون على استرضائهم خشية أن يُنْزلوا لعناتهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ؛ وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهيأة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، وللتمكين من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعاً سريعاً فى كل أرجاء المعمورة فازدهرت فى مصر واليونان وروما ، ولا تزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة فى اليابان والصين الآن ؛ وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم إله[١٢٤](*) ؛ ولقد عمل هذا الاتجاه على ربط أواصر الأسرة ربطاً وثيقاً ؛ على الرغم من كراهة الخلف لهذا النظام ؛ وكذلك كان لكثير من المجتمعات البدائية بمثابة إطار خفىّ ينتظم الأفراد فى مجموعة متماسكة ؛ وكما أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً ، فكذلك الخوف تطور حتى أصبح حُبًّا ؛ فشعائر عبادة الناس لأسلافهم ، التى يرجح أنها كانت وليدة الخوف فى أول الأمر ، قد أثارت فى القلوب بعدئذ شعور الرهبة ، ثم تطورت أخيراً إلى ورع وتقوى ؛ وكذلك ترى الاتجاه فى الآلهة أن يبدءوا فى صورة الغيلان المفترسة ثم ينتهون فى صورة الآباء الذين يحبون أبناءهم ؛ وهكذا يتحول الصنم المعبود على مرّ الزمن إلى مثل أعلى منشود ، كلما عملت زيادة الاطمئنان والأمن والشعور الخلقى لدى العابدين على الحدّ من وحشية آلهتهم كما تصوروها أولا ، وتحوير ملامحهم تحويراً يلائم الطور الجديد ؛ إن البطء فى سير المدنيّة ليتمثل فى تأخر المرحلة التى أحسّ فيها الناس بحب آلهتهم .

(*) بقايا عبادة الأسلاف لا تزال قائمة بيننا متمثلة فى عنايتنا بالقبور وزيارتها ، وفى قداسنا وصلاتنا من أجل الميت .

إن فكرة إله بشرى لم تظهر فى مراحل التطور الطويلة إلا أخيراً ؛ وقد برزت فى صورة واضحة بعد اجتيازها لمراحل كثيرة أخرجتها من تصور الإنسان لمحيط خضم أو لحشد كبير من الأرواح والأشباح تحيط بكل شىء وتعمر كل شىء ؛ ثم انتقل الإنسان من خوفه وعبادته لأرواح غامضة المعالم مبهمة الحدود ، إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية ، ثم إلى خشوعه للحيوان وعبادته للأسلاف ، والأرجح أن تكون فكرة الإنسان عن الله بأنه « أب » قد تفرعت عن عبادة الأسلاف ، لأن معناها فى الأصل هو أن الناس قد هبوا من الآلهة بأجسامهم ، لا بأرواحهم فقط[١٢٥] ولذا لا تجد فى اللاهوت البدائى حداً فاصلا متميزاً من حيث النوع بين الآلهة والناس ؛ فعند اليونان الأقدمين — مثلا — كان الأسلاف آلهة والآلهة أسلافا ؛ وتلت ذلك خطوة أخرى فى التطور ، حين ميَّزَ الناس من بين هؤلاء الأسلاف الخليط رجال ونساء بعينهم ، كان لهم امتياز خاص دون سائر الأسلاف ، فأسبغوا عليهم لونا أوضح من الربوبية الصريحة ؛ وبهذا أصبح أعلام الملوك آلهة حتى قبل موتهم أحياناً ؛ لكننا إذا ما بلغنا من التطور هذه المرحلة فقد بلغنا المدنيَّة التى دوَّنها التاريخ .

٣ — طرائق الدين

السحر — طقوس الزراعة — أعياد الإباحة — أساطير الإله المبعوث — السحر والخرافة — السحر والعلم — الكهنة

لما تصور الإنسان البدائى عالما من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ، فقد عمل على استرضائها واجتلابها فى صفه لمعونته ؛ ومن هنا كانت إضافته إلى الروحانية التى هى جوهر الديانة البدائية ، سحرا هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ؛ فقد تصور البولينيزيون خضماً حقيقيا مليئا بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم « مانا » وكان الساحر فى رأيهم إنما يُقطِّر لهم قطرات ضئيلة من هذا المورد الذى لا ينتهى ،

والذى يستمد منه قدرته على السحر ؛ وكان ما يسمى « بالسحر التمثيلى » هو أول الطرائق التى كسب بها الإنسان معونة الأرواح أولا والآلهة ثانيا — وهو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن يؤدوها له ، كأنه بذلك يغريهم بتقليده ، فمثلا إذا أراد الناس أن يستنزلوا المطر ، صَبَّ الساحر ماء على الأرض ، والأفضل أن يصبه من أعلى الشجرة ؛ ويحكى عن قبيلة الكفير أنها حين تهددها الجفافُ ، طلبوا إلى مبشرٍ أن يذهب إلى الحقول ويفتح مظلته[١٢٦] ؛ وفى سومطره ، تصنع المرأة العقيم صورة طفل تضعها على حِجْرها راجية أن يجيئها بعد ذلك الجنين ؛ وفى « أرخبيل بابار » تصنع المرأة — إذا ما أرادت لنفسها الأمومة — عروسا من قطن أحمر ، وتقوم بحركات إرضاعها ، وتقول صيغة سحرية معلومة ؛ ثم تبعث إلى القرية بمن يُشيع أنها حملت ، فيجىء أصدقاؤها لتهنئتها ؛ الحق أنه لا يستطيع أن يرفض تحقيق هــذا الخيال إلا واقعٌ عنيد ؛ وفى قبيلة « دياك » فى بورنيو ، إذا أراد الساحر أن يخفف آلام امرأة تضع ، يقوم هو نفسه بحركات الوضع على سبيل التمثيل ، لعله بذلك يوحى بقوة سحره إلى الجنين أن يظهر ، وأحيانا يدحرج الساحر حجرا على بطنه ثم يسقطه على الأرض ، آملا أن يقلده الجنين المستعصي فتسهل ولادته ؛ وفى العصور الوسطى كانوا يسحرون الشخص بأن يغزو الدبابيس فى تمثال من الشمع يمثل صورته[١٢٧] وهنود پيرو يحرقون الناس ممثلين فى دُماهم ، ويطلقون على هذا اسم إحراق الروح[١٢٨] ، وليس سواد الناس فى العصر الحاضر بأرقى من هذا السحر البدائى فى تخريفهم

كانت طرائق الإيحاء بالتمثيل تُستخدم بصفة خاصة لإخصاب التربة ، فأرباب العلم فى زولو يشْوون الأعضاء التناسلية للرجل إذا مات فى عنفوانه ، ثم يطحنونها ويسحقونها رماداً يذرّ فوق الحقول[١٢٩] ؛ وبعض الشعوب تختار للربيع ملكا وملكة من بين رجالها ونسائها ، وتزوجهما فى حفل علنى ، لعل التربة تصغى إلى الحفل ومغزاه فتسرع إلى إزهار النبات ؛ بل إنهم فى بعض

البلدان يضيفون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلا بعملية التزاوج علناً ، حتى لا يتركوا للطبيعة — على الرغم من أنها ليست سوى طين بارد جامد — عذراً بأنها لم تفهم الواجب الذى طُلب إليها أداؤه ؛ وفى جاوة ، يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالا جنسياً فى حقول الأرز ليضمنوا خصوبة إنتاجها(١٣٠) ذلك لأن البدائيين لم يفهموا نمو النبات بلغة النتروچين ، بل فهموه — بالطبع دون أن يعلموا أن للنبات ذكوراً وإناثاً — على نفس الأساس الذى كانوا يعللون به إثمار المرأة ؛ ثم أليس فى استعمالنا لكلمات مثل إثمار للطبيعة وللطبيعة وللمرأة معاً ، ما يذكّرنا بعقيدتهم تلك وما تنطوى عليه من شعر ؟

وتقام أعياد يختلط فيها الجنسان اختلاطاً بغير ضابط ، وهى فى معظم الحالات إنما تقام فى فصل البَذْر ، بمثابة أمْرٍ بوقْف القوانين الخلقية حيناً (وهى تذكر الناس بما كان فى علاقاتهم الجنسية فى أيامهم الماضية من حرية نسبية) والغاية من هذه الأعياد إخصاب زوجات مَنْ بهم عقم من الرجال من جهة ، وإيحاء للأرض فى فصل الربيع بأن تخرج عن تحفظها الذى لازمته أيام الشتاء ، لتتقبّل ما يذروه فيها من بذور ، وتهيئ نفسها لإخراج نتاج طيب من القوت ، وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية ، وخصوصاً بين أهل كامرون فى الكنغو ، والكفير ، والهوتنتوت ، والبانتو وفى ذلك يقول « هـ . رولى » H. Rowley وهو من رجال الدين فى بانتو :

« إن أعياد الحصاد شبيهة فى خصائصها بأعياد « باخوس » (عند اليونان)... فإنه يستحيل على إنسان أن يشاهدها دون أن يأخذه الخجل . . . فهم لا يكتفون فى هذه الإباحة الجنسية الكاملة بضمّ من تَنَصَّر حديثاً ، بل لا يكتفون بضمّ من طال أمد تنصُّره ، لكنهم يُغرون أى زائر وقف ليشاهد حفلهم بالانغماس معهم فى إباحتهم ؛ عندئذ لا يحول الناس حائلٌ دون الانغماس فى الدعارة ، وهم لا ينظرون إلى الزنا نظرةً فيها أثر من معنى البشاعة ، بسبب الظروف

التى تحيط بهم حينئذ ، بل إنهم لا يسمحون لرجل حضر الاحتفال أن يضاجع زوجته »[١٣١] .

وتظهر أعياد كهذه فى عصور المدنيّة التى دوّنها التاريخ ، فاحتفالات « باخى » عند اليونان ، وأشباهها فى روما وفى فرنسا إبان العصور الوسطى وفى انجلترا وسائر الاحتفالات التهريجية التى نشاهدها فى عصرنا ، كل هذه من قبيل الأعياد الإباحية القديمة ؟

على أن شعائر الزراعة هذه تتخذ فى بعض البلاد هنا وهناك صورة أقل ظرفا مما ذكرنا — كما هى الحال عند البونيين Pawnees وعند هنود جوايا كيل ؛ فرجلٌ يُضَحَّى به فى وقت البَذر حتى تَخْصُبَ الأرض بدمائه — وفيما بعد خَفَتْ الصورة بعض الشيء ، فاكتفوا بذبح الحيوان قربانا — ؛ حتى إذا ما حلّ موسم الحصاد فسّروه بأنه بَعْثٌ للرجل الذى مات ضحيةً ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ؛ ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التى تَرْوى فى ألف صورة مختلفة كيف يموت الله فى سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافرا[١٣٥] ؛ وعمل الشعر على زخرفة السحر حتى حوّله ضربا من اللاهوت ؛ واختلطت الأساطير تُروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطا فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التى تَرْوِى عن موت الإله وعودة ولادته لا يقتصر مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض فى الربيع بل جاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين : الصيفى والخريفى ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ؛ ذلك لأن حاول الليل لم يكن إلا جزءا من هذه المأساة ؛ فإله الشمس يموت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة ؛ فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور .

والظاهر أن التضحية بالإنسان — التى ذكرنا من شتى صنوفها مثلا واحدا — قد أخذ بها الإنسان فى كل الشعوب تقريباً ، فتظهر هاهنا يوما وهنالك يوما ؛

فقد وجدنا فى جزيرة كارولينا فى خليج المكسيك تمثالا كبيراً معدنية أجوف لإله مكسيكى قديم ، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية ، لا شك أنها ماتت بالحرق قربانا لله[١٣٣] ، وكلنا يسمع عن « مُلُخْ » الذى كان الفينيقيون والقرطاجنيون ، وغيرهما من الشعوب السامية حينا بعد حين ، يقدمون له القرابين من بنى الإنسان ؛ ولقد شهد عصرنا الحاضر هذه العادة قائمة فى روديسيا[١٣٤] وربما كان منشأ هذه العادة أكل البدائيين للحوم البشر ، فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون ؛ ولما كانت العقيدة الدينية أبطأ تغيّرا من سائر العقائد ، ثم لما كانت الشعائر الدينية أبطأ تغيرا من العقائد نفسها ، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحم الإنسان ، وبقى التقليد قائما بالنسبة للآلهة[١٣٥] ؛ ومع ذلك فقد تغيرت حتى هذه الشعائر الدينية بفضل تطور الأخلاق ، بحيث طفق الآلهة يقلدون عبادهم الزيادة من اصطناع الرقّة ، واستسلموا للوضع الجديد فقبلوا لحم الحيوان طعاماً بدل لحم الإنسان ، فضُحِّى بغزال بدل التضحية بافچينيا (فى أساطير اليونان) كما ضُحِّى بكبش بدل التضحية بابن إبراهيم ؛ ومضى الزمان فى تقدمه ، فحرمت الآلهةُ حتى هذا الحيوان ، لأن الكهنة آثروا أنفسهم بالطعام الشهىّ ، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة ، ثم يَهَبون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها[١٣٦] .

ولما كان الإنسان الأول يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ، فقد كان من الطبيعي أن تَرِدَ على خاطره فكرة أكل الإله ؛ ففى كثير من الحالات كان يأكل لحم الإله البشرى ويشرب دمه ، ذلك الإله الذى عَبَدَه وسَمَّنَه استعدادا للتضحية به ؛ لكن الطعام كثرت موارده وضمن الإنسان اطّراده ، فانتهى ذلك إلى زيادة الرحمة فى فؤاده ، ولذلك استبدل بالتضحية الإلهية رموزاً على هيئتها ، واقتنع بأكلها ، ففى المكسيك القديمة ، كان يُصنع تمثالٌ لله من الغلال والحبوب والخضر ، يُعجن بدماء صبيان يضحَّى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلونه على أنه بديل

دينيّ لأكل الله نفسه ؛ وأشباه هذه الاحتفالات الدينية وجدناها بكثرة فى القبائل البدائية ، وكانت العادة أن يطلب إلى الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ، وكان الكاهن ساعتئذ يقول بعض العبارات السحرية ليحوِّل بها التمثال المأكول إلى إله حقيقى(١٣٧) .

ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهى بالعلوم ، فألوفٌ من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ، ثم نشأ عنها صلوات وطقوس عجيبة ؛ فقبيلة « كوكى » Kukis كانت تلهب حماسة أبنائها فى القتال بزعمها لهم أن الأعداء القتلى سيكونون لهم عبيداً فى الحياة الآخرة ؛ ولكنك من ناحية أخرى ترى الرجل من قبيلة « بانتو » Bantu إذا قتل عدواً له ، حلق رأس نفسه ، وطلى نفسه بروث الماعز ، ليمنع روح الميت من العودة إليه والفتك به ؛ وتكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على فِعْل اللعنات وشر « العين الحاسدة »(١٣٨) فلم يشك الاستراليون الأصليون فى أن اللعنة ينطق بها الساحر القوىّ ، تقضى على حياة اللعين وإن يكن منه على بعد مائة ميل ؛ وبدأت العقيدة فى السحر فى أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم تَزُل عن الإنسان قط زوالا تاما ؛ وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتمائم ، أرسخ فى القِدَم من السحر نفسه وأثبت منه جذوراً فى النفوس ؛ ولما كانت التمائم تُحَدَّدُ لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تميمة أثر فى ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تُثْقِل أنفسها بأحمال منها لكى يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفجأهم به الأيام(١٣٩) والأحجبة إن هى إلا صورة متأخرة فى الظهور ، ومَثَلٌ من الأمثلة التى تعاصرنا ، من الأصنام أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوروبا يلبسون المُدَلَّيَات والتمائم ليستمدوا بواسطتها وقاية ومعونة من وراء الطبيعة ؛ إن تاريخ المدنيّة ليعلّمنا فى كل خطوة من خطوات سيره ، كم تبلغ قشرةُ الحضارة من الرقّة والوهن ، وكيف تقوم المدنية على شفا جُرُف هارٍ فوق

قمة بركان لا يخمد سعيره ، من وحشية بدائية وخرافة وجهل مكبوت ؛ إن المدنيَّة العصرية ليست سوى غطاء وُضِع وضعاً على قمة العصور الوسطى ، ولا تزال تلك العصور ولن تزال باقية .

ولا يسع الفيلسوف إلا أن يَقْبَل راضياً هذا الفقر من الإنسان إلى معونة مما فوق الطبيعة تبعث فى نفسه الطمأنينة ؛ ويجد لنفسه العزاء فى علمه بأن الأدب المسرحي والعلوم تنشأ عن السحر ، كما ينشأ الشعر عن مذهب الروحانية ؛ فقد بيَّن لنا « فريزر » Frazer — فى شيء من المبالغة لا نستغرب به من مبدع موهوب — أن أمجاد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات السحر ؛ لأنه كلما أخفق الساحر فى سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافا لقانون من قوانين الطبيعة ، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطبيعية فى إحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر ؛ ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود وترجح كفتها شيئاً فشيئاً ، ولو أن الساحر كان دائماً يخفى هذه الوسائل الطبيعية ليحتفظ بمكانته عند الناس ، ما استطاع إلى إخفائها من سبيل ، بأن يعزو الظاهرة التى أحدثها للسحر الذى استمده من القوى الخارقة للطبيعة — وهذا شبيه جداً بأهل هـذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعى لوصفات وعقاقير سحرية ؛ وعلى هذا النحو كان السحر هو الذى أنشأ لنا الطبيب والصيدلى ، وعالم المعادن ، وعالم الفلك(١٤٠) .

لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها فى سائر ضروب العلماء ؛ ذلك لأنه لما تعددت طقوس الدين وتعقدت ، لم يَعُدْ الرجل العادىّ يقدر على استيعابها جميعاً والإلمام بها جميعاً ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها فى مهامّ الدين ومحافله ؛ وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الذهول الروحىّ وتلقّى الوحى وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى ما فيه نفع الإنسان ؛ ولما كان هذا الضرب من العلم والمهارة هو فى رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعاً ،

ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها فى حياة الإنسان عند كل منعطف فى الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ؛ وجعل الكاهن (أو القسيس) منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندىّ المقاتل فى سيادة الناس والإمساك بزمامهم ، حتى لقد راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا فى التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوروبا فى العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقا ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسى ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات ؛ فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألاعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ؛ نعم إن الكاهن قد أضرّ الناس بإبقائه على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة ، لكنه مع ذلك عمل على حصر الخرافة فى نطاق ضيق ، وكثيراً ما كان يحمل الناس على إهمال شأنها ، وهو الذى لقّن الناس بداية التعليم والتهذيب ، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافى الإنسانى المتزايد ؛ وكان عزاء للضعيف فى استغلال القوىّ له استغلالا لم يكن عنه منصرف ولا محيص ؛ كما أصبح الفعل الفعال الذى أعان الدّين على تغذية الفنون ، وتدعيم بناء الأخلاق الإنسانية المترنّح بدعامة من القوة العليا ؛ فلو لم يجد الناس بينهم كاهنا لخلقوه لأنفسهم خلقا .

٤ — مهمة الدين الخلقية

الدين والحكومات — المحرمات الجنسية — تأخر الدين — التحول العلمانى

الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرمات ، فالأساطير هى التى تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة ، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع (أو يريد الكهنة) بقاءها ؛ فما يرجوه الفرد فى السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب ، يضطره اضطرارا أن يذعن للقيود

التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعا رقيقاً طاهراً وليس شيء كالخوف من الآلهة — وذلك بعد القهر الذى خضع له الفرد قديما فأنشأ فى نفسه الضمير — أخضع الإنسانَ لهذه الفضائل التى لا تتفق وطبيعته إخضاعا مطّردا صامتا ؛ فأنظمة الملكية والزواج تتوقف إلى حدما على العقوبات الدينية وهى تميل إلى فقدان قوتها فى العصور التى يسود فيها الشك الدينى ؛ بل الحكومة نفسها التى هى أهم أداة اجتماعية اصطنعها الإنسان ، وأبعد أداة عن طبيعة الإنسان ، كثيرا ما استعانت بالتقوى وبالكاهن ، كما فعل أذكياء المراطقة مثل نابليون وموسولينى اللذين لم يلبثا أن كشفا عن هذه الحقيقة ؛ ومن هنا كان ثمة « ميل إلى قيام دولة دينية كلما نشأت الدساتير »(١٤١) ؛ فلئن كانت قوة الرئيس البدائى تستمد الزيادة من السحر والعرافة ، فإن حكومتنا(*) نفسها تستمد بعض القوة من اعترافها السنوى « بإله المهاجرين » .

وأطلق أهل « پولنيزيا » كلمة « تابو » (ومعناها التحريم) على ما يحرّمه الدين ؛ فلما تقدمت المجتمعات البدائية بعض الشيء ، اصطنعت هذه الحُرُمات الدينية مكانة هى التى أصبحت فى ظل المدنيّة مكانة القوانين ؛ وكانت صيغة التحريم عادةً سالبة : فبعض الأفعال وبعض الأشياء أعلن عنها أنها « مقدسة » أو « نجسة » وكان اللفظان فى الواقع يعنيان نذيراً واحداً ، وهو أن تلك الأفعال أو الأشياء لا يجوز لمسها ؛ « فتابوت العهد » مثلا كان محرّما ، ويُروى عن « عُزّى » أنه سقط صعقا عند لَمْسِه لمنعِه من السقوط(١٤٢) ؛ ويؤكد لنا « ديودورس » عن المصريين القدماء أنهم أكل بعضهم بعضا إبان المجاعة ، فذلك آثر عندهم من الاعتداء على تحريم أكل الحيوان الذى اتخذته القبيلة طوطما لها(١٤٣) ؛ وإنك لتجد فى معظم الجماعات البدائية عدداً كبيرا جدا من هذه المحرّمات ، فكلمات معينة وأسماء معينة ما كان لها قط أن تُنْطق ، وأيام معينة

(*) يقصد الولايات المتحدة . (المعرب)

وفصول معينة كانت من المحرمات بمعنى أن القتل لم يكن يؤذن به خلالها ؛ وكل معرفة البدائيين بحقائق الغذاء ، وبعض جهلهم بتلك الحقائق ، كان سبيلها إليهم تحريمات معينة أقامها الناس على ألوان الطعام ، فهُمْ لم يُلقَّنوا مبادئ الصحة عن طريق العلم أو عن طريق الطب العَلْمانى بقدر ما لُقِّنوها عن طريق الدين .

وكانت المرأة أهم ما اتجه إليه التحريم عند البدائيين فآلاف الخرافات نشأت عن المرأة لتجعلها ، آنا بعد آن ، مُحَرَّمة اللمس ، خطرةً ، « نجسة » ؛ إن منشئى الأساطير فى أنحاء العالم لم يكونوا أزواجاً موفَّقين ، لأنهم متفقون جميعاً على أن المرأة أساس الشر كله ، فلم يقتصر هذا الرأى على الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل جاوزهما إلى مئات من الأساطير الوثنية؛ وأدق التحريمات البدائية كان خاصاً بالمرأة إبان حيضها ، فكل مَنْ لمسها أو كل ما لمسها فى هـــذه الفترة فقَدَ فضيلته إن كان إنساناً ، وضاعت فائدته إن كان غير ذلك ؛ فحرَّم « الماكوزى Macusi » من أهل غيانة البريطانية على نسائهم أن يستحممن إبان حيضهن خشية أن يُسَمِّمْنَ الماء ، كما حرموا عليهن الذهاب إلى الغابة فى مثل هذه الفترات ، حتى لا تعضَّهن الثعابين غراماً بهن(١٤٥) ؛ حتّى الولادة كانت عندهم نجسة ، وكان على الأم بعدها أن تطهر نفسها فى كثير جداً من الطقوس الدينية ؛ والعلاقة الجنسية حرام فى معظم القبائل البدائية ، ليس فقط إبان فترات الحيض ، بل كذلك أثناء الحمل والرضاعة ، ولعل هذه التحريمات قد أنشأها النساء أنفسهن بما لهن من إدراك سليم وما يبغين لأنفسهن من وقاية وراحة ، لكن الأصول سرعان ما تُنسى ، وتنظر المرأة فإذا هى « مشوبة » وإذا هى « نجسة » ؛ وانتهى بها الأمر إلى أن توافق الرجل على وجهة نظره ، وراحت تشعر بالعار فى حيضها ، بل فى حملها ؛ ومن التحريمات وأمثالها نشأ الحياء ونشأ الشعور بالخطيئة ، والنظر إلى العلاقة الجنسية على أنها نجاسة ، وكذلك نشأ التقشف وعزوبة الرهبان ونشأ إخضاع النساء .

ليس الدين أساس الأخلاق ، لكنه عون لها ، فقد يمكن تصور الأخلاق

بغير دين ، وليس بالأمر النادر أن تتطور الأخلاق فى طريقها إلى التقدم بينا يبقى الدين لا يأبه لها ، أو يقاومها مقاومة عنيدة ؛ ففى الجماعات الأولى ، وفى بعض الجماعات المتأخرة ، كانت الأخلاق فيما يظهر على أتم استقلال عن الدين ، وفى مثل هذه الحالة لا يُعنى الدين بقواعد السلوك ، بل يُعنى بالسحر والطقوس وتقديم القرابين ، والرجل الطيب عندئذ هو من يؤدى محافل الدين أداء المطيع ، ويمدها بماله فى ولاء وإخلاص ؛ والدين بصفة عامة لا يَرْعى الخير المطلق (إذ ليس هناك خير مطلق) ، بل يرعى معايير السلوك التى وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؛ وهو كالقانون يلتفت إلى الماضى ليستمد منه أحكامه ، وهو قمين أنْ يتخلف فى الطريق كلما تغيرت الظروف وتغيرت معها الأخلاق ؛ فقد تعلّم الإغريق مع الزمن أن يمقتوا مضاجعة المحارم ، مع أن أساطيرهم كانت ما تزال تمجد الآلهة الذين يفعلون ذلك ، والمسيحيون يصطنعون نظام الزوجة الواحدة بينما إنجيلهم يحلل تعدد الزوجات ؛ وامتنع الرق امتناعاً تاماً بينما المتدينون كانوا يدافعون عن قيامه بشواهد من الإنجيل لا تُنْقَض ؛ وفى يومنا هذا نرى الكنيسة تقاتل قتال الأبطال لتقيم تشريعاً خلقياً قضت عليه الثورة الصناعية قضاء مبرماً لاشك فيه ؛ فالعوامل الأرضية هى التى تسود آخر الأمر ، والأخلاق تُوائم بين نفسها وبين المستحدثات الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، ثم يتحرك الدين كارها فيوفّق بين نفسه وبين الأخلاق الجديدة(*) ؛ إن الوظيفة الخلقية للدين هى أن يحافظ على القيم القائمة ، أكثر مما يخلق قِيَماً جديدة .

ومن هنا كان من علامات المراحل العليا فى كل مدنية أن يحدث التجاذب بين الدين والمجتمع ؛ يبدأ الدين بمَدَد من السحر يقدمه للناس فى حيرتهم وارتباكهم ؛ ثم يصعد إلى قمة مجده بمَدَد من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتجىء هذه

(*) مثال ذلك ضبط النسل الذى أحدثه الانقلاب الصناعى فى المدن ، ثم قبول الكنيسة لهذا الضبط فى خطوات بطيئة .

الوحدة مُعينةً أكبر العون للسياسة والفن ؛ ثم ينتهى بقتال يفنى فيه فناء المنتحر دفاعاً عن قضية الماضى الخاسرة ؛ ذلك لأنه كلما تقدمت المعرفة أو تغيرت تغيراً متصلا ، اصطدمت بالأساطير واللاهوت اللذيْن يتغيران تغيراً بطيئاً بطئاً لا يُحتمَل ؛ وعندئذ يشعر الناس برقابة رجال الدين على الفنون والآداب كأنها أغلال ثقيلة وحائل ذميم ، ويتخذ التاريخ الفكرى فى مثل هذه المرحلة صبغة النزاع بين العلم والدين » ؛ والأنظمة التى تبدأ فى أيدى رجال الدين ، مثل القانون والعقاب ، والتربية والأخلاق ، والزواج والطلاق ، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية ، حتى ليعدها الدين أحياناً خارجة عليه ؛ والطبقات المستنيرة تطّرح وراء ظهورها اللاهوت القديم ، ثم — بعد شىء من التردد — تطّرح معه التشريع الخلقى ؛ عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين ، وترتفع حركة التحرير إلى عبادة العقل عبادة المتفانى ، تكبو فيما يشبه الشلل الذى تسبّبه خيبةُ الأمل إزاء كل عقيدة وكل فكرة ؛ ويتدهور السلوك الإنسانى إذا ما سُلِبَ دعائِمَه الدينيةَ ، فينقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية ؛ بل إن الحياة نفسها ، وقد حَرَمْتَها ما فيها من إيمان يبعث العزاء فى النفوس ، تصبح عبئاً ثقيلا للفقير الشاعر بفقره ، وللغنى الذى مَلَّ غناه آن معاً ، وفى النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معاً فى ميتة واحدة كأنهما الجسد والروح ؛ على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين الناس إذ هم ينوءون تحت هذا العبء الفادح ، أسطورة تَصبّ الأمل الإنسانى فى قالب جديد ، وتمد الجهد الإنسانى بحماسة جديدة ، ثم تبنى مدنية جديدة بعد أن تنقضى قرون فى حالة من الفوضى .

الباب الخامس

العناصر العقلية فى المدنية

الفصل الأول

الآداب

اللغة – بطانتها الحيوانية – أصولها البشرية – تطورها – نتائجها –
التربية – التقليد – الكتابة – الشعر

كانت الكلمةُ بدايةَ الإنسان لأنه بالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ؛ فلولا هذه الأصوات الغريبة التى نسميها أسماء كلية لانحصر الفكر فى الأشياء الجزئية أو الخِبْرات الجزئية التى يذكرها الإنسان أو يدْركها عن طريق الحواس ، وخصوصاً حاسة النظر ؛ وأغلب الظن أنه لولا هذه الأسماء الكلية لما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ، ولا أن يدرك الصفات متميزة عن أشيائها التى تتصف بها ، ولا أن يدرك الأشياء مجردة عن صفاتها ؛ إنه لولا الكلمات التى هى أسماء لأنواع لاستطاع الإنسان أن يفكر فى هذا الإنسان وهذا وذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفكر فى « الإنسان » بصفة عامة ، لأن العين لاترى الإنسان العام ، بل ترى أفراداً من الإنسان فحسب ؛ العين لاترى الأنواع بل ترى الأشياء الجزئية ؛ ولقد بدأت الإنسانية حين جلس مِيسْخٌ نصفه حيوان ونصفه إنسان ، جلس متربعاً فى كهف أو شجرة ، يشحذ رأسه شحذا ليخلق أول اسم من الأسماء الكلية ، أول رمز صوتى يدل على طائفة من أشياء متشابهة : كاسم منزل الذى ينطبق على المنازل كلها ، وإنسان الذى يدل على أفراد الإنسان جميعاً ، وضوء الذى معناه كل ضوء لمع على يابس أو ماء ؛ ومنذ ذلك الحين ،

انفتح أمام التطور العقلى للإنسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ؛ ذلك لأن الكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل ، والإنتاج يتوقف إلى حد كبير على تطور الآلات[1] .

ولما كان تصويرنا لأوائل الأشياء لا يزيد أبدا عن حدس وتخمين ، فلخيالنا أن يرسل لنفسه العنان فى تصور بداية الكلام ؛ يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة — ويمكن تعريف اللغة بأنها اتصال عن طريق الرموز — صيحة حب بين الحيوان والحيوان ؛ وإنك لترى فى صيحات النذير والفزع ، وفى مناداة الأم لصغارها ، وفى الزقزقة والنقنقة التى يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته أو باتصاله بعشيره من الجنس الآخر ، واجتماعه أفرادا ليتبادل الأصوات من شجرة إلى شجرة ، إنك لترى فى هذا كله الخطوات التمهيدية التى يجهد الحيوان نفسه فى اجتيازها لكى يصل الإنسان إلى الذروة العليا ، ذروة الكلام ؛ ولقد وجدت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان فى غابة بالقرب من شالون فى فرنسا ، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع ؛ هذه الأصوات الحيّة التى تنبعث فى الغابات قد لا تكون ذات معنى لآذاننا التى تحضّرت ، فنحن فى هذا كالكلب المتفلسف « ريكيه » Requet الذى يقول عن « السيد برچريه » Bergeret « إن كل ما ينبعث به صوتى له معنى ، أما سيدى فيجرى من فمه هراء » ؛ ولاحظ « وتمن » Whitman و « كريج Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته ؛ واستطاع « ديبون » Dupont أن يميز اثنى عشر صوتا مختلفا يستعملها الدجاج والحمام ، وخمسة عشر صوتا تستعملها الكلاب ، واثنين وعشرين صوتا تستعملها الماشية ذوات القرون ؛ ووجد « جارنر » Garner أن القردة تمضى فى لغوها الذى لا ينتهى بعشرين صوتا على الأقل ، مضافا إليها عدد كبير من الإشارات ؛ ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت ، بعد تطور قصير المراحل ، الثلاثمائة كلمة التى تكفى بعض القبائل البشرية المتواضعة[2] .

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى ، وللكلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر فى العصور الأولى ؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الكلام فى الأداء ، وثبتْ الإشارات من جديد إلى الطليعة ؛ ففى القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، التى تستعمل من اللهجات ما لا يقع تحت الحصر ، يجيء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الفكر ويتفاهمان بالإشارات أكثر من الكلام ؛ ولقد عرف « لويس مورجان » Lewis Morgan عروسين ظلا يستخدمان إشارات صامتة مدى ثلاثة أعوام ؛ وكان التفهم بالإشارات من الأهمية فى بعض اللغات الهندية بحيث تعذر على أفراد قبيلة « أراباهو » Arapaho — كما يتعذر على بعض الشعوب الحديثة — أن يتحدثوا فى الظلام[3] ؛ وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هى الحال عند الحيوان ، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلَتْ ذلك أصوات مُقَلِّدة جاءت فى أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التى يمكن محاكاة أصواتها ، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوى على فئات من هذه الألفاظ التى تحاكى بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من آلاف السنين التى مضت مليئة ، بالتغيرات والتطورات التى طرأت على اللغة — مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة الخ[*] وعند قبيلة « تكونا » Tecuna فى البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليداً تاما يدلون به على الفعل « يعطس » وهو « هايتشو »[5] وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساساً للكلمات الأولية فى كل لغة من اللغات ؛ وحصر « رينان » Renan الألفاظ العبرية فى خمسمائة كلمة

(*) مثل هذه المحاكاة اللفظية لا تزال ملجأ تلوذ به اللغات ما واجهها معنى جديد طارئ ، فالإنجليزى الذى أكل أول وجبة له فى الصين وأراد أن يستفسر عن نوع اللحم الذى كان يأكله سأل فى وقار وتحفظ تمهدهما فى الانجلوساكسون : « كواك ، كوالا ؟ » فهز الصينى له رأسه مجيباً فى مرح : « بو — وو »[7] .

أصلية ، وحصر « سكيت » Skeat كل الألفاظ الأوربية تقريباً فى نحو أربعمائة كلمة أصلية(*)

ولا تحسبنّ لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، إذا أردنا بكلمة « بدائية » فى هذا السياق أى معنى من معانى البساطة فى التركيب ، نعم إن كثيراً منها بسيط فى ألفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو أرقى فى التكوين من اللغة الصينية[٧] ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها أن تحصر نفسها فى حدود الحسّىّ والجزئىّ ؛ وهى بصفة عامة فقيرة فى الأسماء الكلية والمجردة ؛ فسكان استراليا الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس فى لغتهم كلمة تدل على « ذيل » بصفة عامة[٨] وأهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، لكن ليس لديهم كلمة واحدة تدل على « الشجرة » بصفة عامة ، وكذلك هنود « تُشكْتُو » Choctaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة البيضاء ، وثالثاً على السنديانة الحمراء : لكنهم لا يعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة عامة ؛ ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهى من اسم العَلَم إلى الاسم الكلى ؛ وفى قبائل كثيرة لا تجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملوّنة ، كلا ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل : نغمة ، جنس ، نوع ، مكان روح ، غريزة ، عقل ، كمية ، أمل خوف ، مادة ، شعور . . . الخ[٩] ، فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد — فيما يظهر — مع تقدم الفكر ، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبّب ؛ وهى بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة ؛

ولما كانت الألفاظ تعود على الناس بكل هذه المزايا ، فقد حسبوها نعمة

(*) هنا يبين المؤلف ببعض الأمثلة كيف تتحد بعض الألفاظ الأوروبية فى أصولها .

إلهية وشيئاً مقدساً ، بحيث أصبحت مادة تصاغ منها صيغ السحر ، وهى تزداد فى أعين الناس تقديساً كلما ازدادت فراغاً من المعنى ؛ ولا تزال فى يومنا مقدسة إذا استخدمناها فى الأسرار الخفيّة ، حين تتحول « الكلمة » إلى « لحم » — مثلا إن الألفاظ لم تكن وسيلة التفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلا لإصلاح التنظيم الاجتماعى كذلك ، لأنها ربطت بين الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت لهم وسيلة أصلح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى ؛ فبظهور ألفاظ اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصُبَّ أفراد الشعب فى قالب واحد متجانس ؛ وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسَّعَتْ نطاقها ومضمونها ، فهل تعرف اختراعاً آخر يساوى فى قوته ومجده هذا الاختراع ، اختراع الاسم الكلى ؟

وأعظم هذه المزايا التى لألفاظ اللغة — بعد توسيعها للفكر — هى التربية ؛ فالمدنيّة ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والحكمة وألوان السلوك والأخلاق ، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد فى تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا أن هذا التراث البشرى يهبط إلى الأجيال جيلا بعد جيل ، لماتت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهى مَدِينةٌ بحياتها إلى التربية .

التربية بدايات ضئيلة من الشعوب البدائية ، إذ التربية عندهم — كما هى عند الحيوان — هى قبل كل شىء نَقْلٌ لضروب المهارة وتدريب الناشئ تدريباً يصوغ له شخصيته ، فهى علاقة مفيدة سليمة بين العلم والتعلم فى تلقين طرائق العيش ؛ وهذا التعليم العملى المباشر شجع عند الطفل البدائى نمواً سريعاً ؛ فى قبائل « أوماها » يكون الولد وهو فى سن العاشرة تقريباً قد تعلم معظم فنون أبيه ، مستعداً للحياة ؛ وفى قبائل «الألوت» Aleuts غالباً ما يؤسس الولد داراً لنفسه وهو فى العاشرة ، وأحياناً يختار زوجة وهو فى هذه السن ؛ وفى نيجريا يترك الأطفال وهم فى السادسة

أو الثامنة دُور آبائهم ليبنوا لأنفسهم أكواخاً ويزوّدوا أنفسهم بالقوت من الصيد والسَّماكة [١٠] ، والعادة أن ينتهى شوط التربية حين تبتدئ الحياة الجنسية ، ولما كان نضجهم يأتى مبكّراً فإن خمودهم يأتى كذلك مبكّراً ، فى ظروف الحياة عندهم ينضج الصبى فى الثانية عشرة من عمره ويشيخ فى الخامسة والعشرين [١١] ، وليس معنى ذلك أن « الهمجى » له عقلية الطفل ، بل معناه أنه لم يكن له حاجات الطفل الحديث ولا فُرَصُه ؛ وهو لم يتمتع بمثل ما يتمتع به الناشئ الحديث من مراهقة طويلة آمنة ، تسمح بنقل التراث الثقافى نقلا يكاد يكون كاملا ، وتضمن تدريبه على ضروب أكثر ومرونة أكبر فى الاستجابة للبيئة التى بعدت من الصورة الفطرية والتى زادت فيها عوامل التغير .

كانت بيئة الإنسان الفطرى ثابتة نسبياً ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تطلبت الشجاعة وتكامل الشخصية ؛ فكان الوالد البدائى يركّز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركّز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ؛ فقد كان يعنيه أن يبنى رجالا ، لا أن يكوّن العلماء ؛ ومن هنا كانت طقوس إدماج الناشئ فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت فى الشعوب الفطرية تعلن بلوغ الناشئ سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ؛ ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ؛ وكانت مهمتها أن تُعِدّ الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ؛ وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا ويفرحوا بإيقاع الأذى على الآخرين ؛ وبعض هذه الطقوس « يبلغ من البشاعة ومن إثارة النفس حدا تتعذر معه الرؤية وتصعب الرواية » [١٢] ؛ فى قبيلة « الكفير » — وهذا مثل معتدل — كان الصبيان الذين يطلبون عضوية القبلة يُمتحنون بعمل شاق فى النهار وحرمان من النوم فى الليل ، حتى يسقطوا من الإعياء ؛ لكى يزداد القائمون بامتحانهم يقينا بصلابة هؤلاء الصبيين ، كانوا يضربونهم بالسياط « على فترات قصيرة وبغير رحمة حتى ينزّ الدم من أجسادهم » وكان ذلك

يؤدى إلى قتل نسبة كبيرة من الغلمان ؛ لكن الكبار — فيما نظن — كانوا ينظرون إلى الأمم نظرة الفيلسوف ؛ وربما كانوا بفعلهم هذا يسبقون الانتخاب الطبيعى ويضيفون إلى عوامله عاملا جديدا[١٣] ؛ وكانت هذه الطقوس الممتحنة عادة علامة انتهاء المراهقة والاستعداد للزواج ؛ وكانت العروس تلح فى أن يثبت عريسها قدرته على تحمل الألم ؛ وكانت هذه الطقوس عند كثير من القبائل تدور حول عملية الختان ، فإذا تحرك الشباب أثناء إجرائها أو صرخ ، ضُربَ أهله ضربا ، ورفضْته عروسه المنتظرة — التى وقفَتْ لتشهد العملية فى عناية وانتباه — على أساس أنها لا تريد أن تتزوج من فتاة[١٤] .

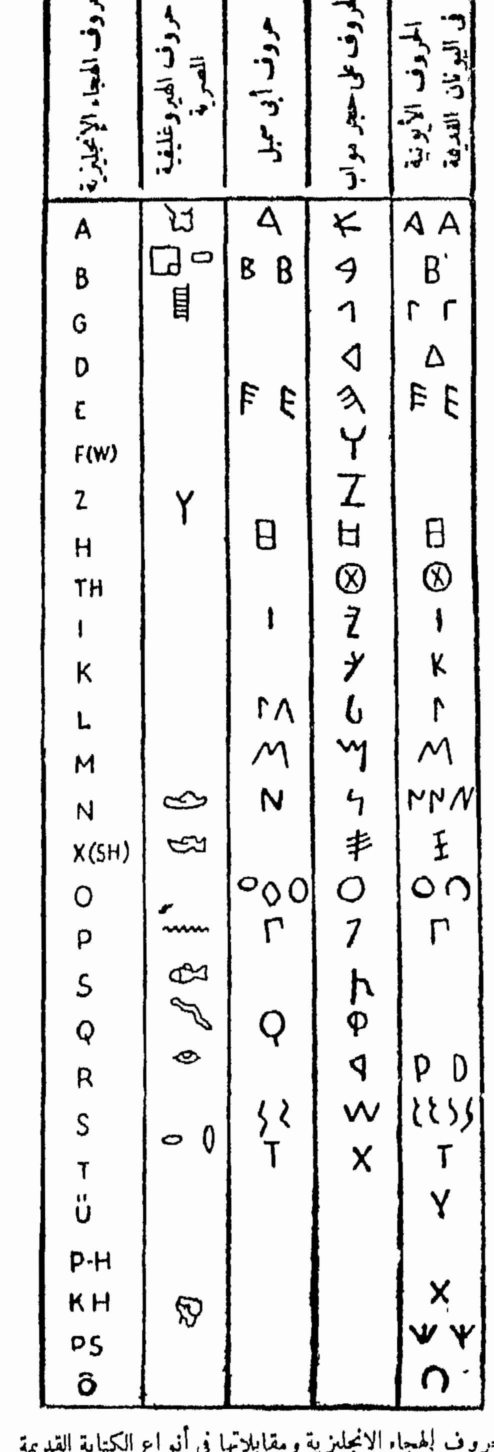
لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إلا قليلا ، أو لم تكن تنتفع بها إطلاقا ، فليس يَدْهَشُ الإنسانُ الفطرى لشىء دهشته لاستطاعة الأوربيين أن يتصل أحدهم بالآخر — وبينهما مسافة بعيدة — بوساطة خطوط سوداء تُخَطُّ على قطعة من الورق[١٥] ؛ وقد تعلمت قبائل كثيرة الكتابة بمحاكاتها لمن جاءوا لاستغلالها من المتحضّرين ، لكن بعض القبائل — كما هى الحال فى شمالى أفريقيا — لبث أميا على الرغم من خمسة آلاف عام أخذت هذه القبائل تتصل خلالها بالأمم الكاتبة اتصالا متقطعاً ؛ أما القبائل الساذجة التى تعيش معظم حياتها عيشا معتزلا بالنسبة إلى سواها ، وتنعم بالسعادة التى تنجم عن جهل الإنسان بتاريخه الماضى ، فلا تحسّ بالحاجة إلى الكتابة إلا قليلا ، ولقد قويت ذاكراتهم بسبب انعدام المخطوطات التى تساعدهم على حفظ ما يريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحتفظون . ويَعُون ، ثم ينقلون ماحفظوه وما وَعَوْه إلى أبنائهم بتسميعهم إياه ؛ وإنما هم يحفظون ويعون ويُسَمِّعون كل ما يرونه هاما فى الاحتفاظ بحوادث تاريخهم وفى نقل تراثهم الثقافى ؛ ويجوز أن يكون الأدب قد بدأ حين بدأ تدوين هذا المحفوظ وتدوين الأغانى الشعبية ؛ ولاشك أن اختراع الكتابه قد صادف معارضة طويلة من قِبَل رجال الدين ، على اعتبار أنها فى الأرجح ستودى إلى هدم الأخلاق

وتدهور الإنسان ، فتروى أسطورة مصرية أنه لما كشف الإله تحوت للملك تحاموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطيب أن يتلقى هذا الفن لأنه يهدم المدنيَّة هدما ؛ وقال فى ذلك : « إن الأطفال والشبان الذين كانوا حتى الآن يُرْغَمون على بذل جهدهم كله فى حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد (إذا ما دخلت الكتابة) ولن يروا أنفسهم فى حاجة إلى تدريب ذاكراتهم »[16] .

وبطبيعة الحال ليس فى وسعنا أكثر من التخمين إذا أردنا أن نقول شيئاً عن أصل هذه اللعبة العجيبة ؛ فيجوز أنها كانت نتيجة تفرعت عَرَضاً عن صناعة الخزف كما سنرى فيما بعد ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس فى إثبات « العلامات التجارية » على ما يصنعونه من آنية خزفية ؛ ويجوز أن تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وأن تكون أولى صورها تصاوير غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التى يتبادلونها فى تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ؛ لأنه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها ببعض ، فلابد من اتخاذ وسيلة للتدوين وللتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً ؛ وفى وسعنا أن نفترض أن قد كانت الأرقام بين أول طائفة من الرموز المكتوبة ، وأنها فى معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازنة تمثل الأصابع ؛ ولانزال نستعمل كلمة « أرقام » (فى اللغة الإنجليزية) التى تدل على ذلك الأصل المخطوط ، حين نريد أن نقول « أعداد »(*) ؛ ثم لا تزال كلمات مثل كلمة « خمسة » فى اللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية ، ترتدُّ إلى أصل لغوى معناه « يد »[17] ؛ وكذلك الأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى أصابع اليد ، فالعلامة التى معناها خمسة « V » تصور يدا مفتوحة ، والعلامة التى معناها عشرة « X » تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما ؛

---

(١) كلمة figure فى الإنجليزية معناها « شكل مخطوط » أو « رقم » . (المعرب)



حروف الهجاء الإنجليزية ومقابلاتها فى أنواع الكتابة القديمة

وكانت الكتابة فى بدايتها — كما لا تزال عند أهل الصين واليابان — ضرباً من الرسم أى كانت ضرباً من الفن ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره عبر المكان وخلال الزمان ؛ فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة ، كما هى الحال الآن فى العلامات التجارية وفى التعبير عن أبراج السماء ؛ والصور الصينية البدائية التى سبقت الكتابة كانت تسمى « كوروان » ومعناها الحرفى « صور للإشارات » ؛ وكانت القوائم الطوطمية كتابة تصويرية ، أو كانت — كما يقترح « ماسون » Mason رسماً تدونه القبائل لتعبر به عن نفسها ؛ فبعض القبائل كان يستعمل عصياً محزوزة لتذكرهم بشىء أو ليبعثوا بها رسالة ؛ وبعضها الآخر — مثل « هنود ألجونكوين » Algouquin لم يكتف بحز العصى ، بل رسم عليها أشكالا تجعلها صوراً مصغرة للقوائم الطوطمية ؛ أو ربما العكس هو الصحيح ، أى أن هذه القوائم الطبيعية كانت صورة مكبرة للعصى المحزوزة ، وكان هنود پيرو يحتفظون بمدونات طويلة من الأعداد ومن الأفكار ، بأن يعقدوا حبالا مختلفة الألوان بالعقد والعرى ؛ وربما ألقى شىء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرخبيل الشرقى وأهل پولنيزيا .

ولما أهاب « لاوتسى » Lao-Tse بقومه الصينيين أن يعودوا إلى الحياة الساذجة ، اقترح عليهم أن يرتدوا إلى ما كانوا يصنعونه فى عصورهم البدائية من حبال معقودة[١٨] وتظهر صور من الكتابة أرقى مما ذكرنا بين الشعوب الفطرية آنا بعد آن ، فلقد وجدنا رموزا هيلوغريفية فى جزيرة « إيستر » فى البحار الجنوبية ، وكشفنا الغطاء فى إحدى جزر « كارولينا » عن مخطوط يتكون من واحد وخمسين رمزاً مقطعياً تصور أعداداً وأفكارا[١٩] ، وإن الرواية لتروى كيف حاول رؤساء جزيرة إيستر وكهنتها أن يحتفظوا لأنفسهم بكل معرفة تتصل

بالكتابة ، وكيف كان الناس يحتشدون مرة فى كل عام ليسمعوا المدوّنات وهى تُقرأ عليهم ؛ فبديهى أن الكتابة كانت فى مراحلها الأولى شيئاً غامضاً مقدساً ، ولفظة « هيروغليف » معناها نقش مقدس ، ولسنا على يقين من أن هذه المخطوطات البولينزية لم يكن مصدرها إحدى المدنيّات التاريخية ؛ لأن الكتابة — على وجه العموم — علامة تدل على الحضارة ، وهى من أوثق المميزات التى تفرق بين أهل المدنيّة وأبناء العصور البدائية :

الأدب فى أول مراحله كلمات تقال أكثر منه حروفاً تكتب (على الرغم من أن الكلمة فى الإنجليزية تنتمى فى أصلها اللغوى إلى ما يدل على الكتابة) ؛ وهو ينشأ فى ترانيم دينية وطلاسم سحرية ، يتغنى بها الكهنة عادة ، وتنتقل بالرواية من ذاكرة إلى ذاكرة ؛ والكلمة التى معناها الشعر عند الرومان ، وهى « Carmina » تدل على الشعر وعلى السحر فى آن واحد ؛ والكلمة التى معناها نشيد عند اليونان ، وهى « Ode » معناها فى الأصل طلسم سحرىّ ، وكذلك قلْ فى الكلمتين الإنجليزيتين « Tune » و « Lay » والكلمة الألمانية « Lied » وأنغام الشعر وأوزانه ، التى ربما أوْحَى بها ما فى الطبيعة وحياة الجسد من انساق ، قد تطورت تطوراً ظاهراً على أيدى السحرة الذين أرادوا أن يحتفظوا وينقلوا ثم يزيدوا من « التأثير السحرىّ لأشعارهم »[٢٠] ، ويعزو اليونان أول ما قيل من شعر فى البحر العُشارى إلى كهنة دلفى ، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه فى نظم نبوءاتهم[٢١] ، وبعدئذ أخذ الشاعر والخطيب والمؤرخ يتميز بعضهم من بعض شيئاً فشيئاً ، ويتجهون اتجاهاً دنيوياً فى فنونهم ، بعد أن اتحدوا جميعاً فى هذا الأصل الكهنوتى ، فأصبح الخطيب مُشيدا رسمياً بأعمال الملك أو مدافعاً عن الآلهة ، وبات المؤرخ مسجلا لأعمال الملك ، والشاعر مغنياً لأناشيد كانت فى الأصل مقدسة ، ومعبراً وحافظاً لأساطير البطولة ، وموسيقيّاً صاغ أقاصيصه صياغة الألحان ليعلّم بها الشعب وملوكه جميعاً ؛ وهكذا كان لأهل فيجى وتاهيتى وكالدونيا

الجديده خطباء ومؤرخون رسميون ، عليهم أن يخطبوا الناس فى المحافل العامة ، وأن يثيروا حماسة المقاتلين فى القبيلة بذكر أعمال أجدادهم والإشادة بمجد أمتهم التليد الذى لاتضارعها فية أمة أخرى ؛ وكان للصومال شعراء محترفون يطوفون من قرية إلى قرية ينشدون الأناشيد مثل الشعراء المنشدين والشعراء الطوافين الذين عرفتْهم العصور الوسطى ، ولم تكن أشعارهم التى يتغنون بها عن الحب إلا فى حالات نادرة ، وأما فى أكثر الحالات فقد كانت تقال عن البطولة البدنية أو حومة القتال أو علاقة الآباء بأبنائهم ، وهاك مثلا من الشعر مأخوذاً عن أحد الآثار القديمة فى جزيرة إيستَرْ وهو رثاء والد لابنته أبعدتْها تصاريف الحروب عنه :

إن ركوب ابنتى لمتون البحار .
لم تُفسده عليها قط قبائل الأعداء
إن ركوب ابنتى لمتون البحار
لم يُفسده عليها التآمر من أهل هونيتى
فما فتئت ظافرة فى كل حروبها
هل اغْرَوْها بشرب الماء المسموم
من الزجاجة الحجرية السوداء ؟ هذا مستحيل .
هل يمكن لأحزانى أن يقلّ سعيرها
بينما يفصلنى عن ابنتى خضمُّ البحار ؟
أواه يا ابنتى ، أواه يا ابنتى !
إنه لطريق مائى فسيح
ذلك الذى أمدّ بصرى خلاله تجاه الأفق
يا ابنتى ، أواه يا ابنتى ![٢٢]

الفصل الثاني

العلم

البدايات – الرياضة – الفلك – الطب – الجراحة

يرى هربرت سبنسر ذلك الإخصائى العظيم فى جمع الشواهد للوصول إلى النتائج ، أن العلم – كالأدب – بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية التى كانت تحدد مواقيت المحافل الدينية ، ثم صينَ فى كنف المعابد ونُقِلَ عَبْرَ الأجيال باعتباره جزءاً من التراث الدينى(٢٣) ؛ ولسنا نستطيع الجزم برأى فى هـذا ، لأن البدايات لا تمكّننا من معرفتها ، سواء فى العلم أو فى غيره ؛ وكل ما نستطيعه هو التخمين والظن ؛ فيجوز أن يكون العلم – شأنه فى ذلك شأن المدنيّة بصفة عامة – قد بدأ مع الزراعة ؛ فالهندسة فى أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة ؛ وربما أنشأ علمَ الفلك حسابُ المحصول والفصول الذى يستدعى مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم ؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة ، وطَوَّرَتْ التجارة علم الرياضة ، كما وضعت فنونُ الصناعة أُسس الطبيعة والكيمياء .

وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولايزال العدُّ فى كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها ؛ فقد عَدَّ « التسمانيون » إلى العدد اثنين لم يجاوزوه : « پارْمَرى ، كالاباوا ، كارْديا » – يعنى : « واحد ، اثنين ، كثير » ؛ ثم ذهب أهل قبيلة « جوارانى » Guaranis فى البرازيل إلى أبعد من ذلك ، فقالوا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، كثير » والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظى ثلاثة أو أربعة ، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة « اثنين – واحد » وعلى أربعة كلمة « اثنين – اثنين » ؛ وأهل

« دامارا » لا يقبلون أن يبادلوا غنمتين باربع عصىّ ، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعَصَوَيْن ، ثم يكررون العملية مرة أخرى ؛ ولقد كان العَدّ وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشرى ؛ ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثنى عشر ، والأغلب أن يكون أدركه بعد حين من الزمن ، فرح به لأنه كان مريحاً للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ؛ وهنا وُلد النظام الاثنا عشرى فى الحساب ، وهو نظام لا يزال قائماً ، لا يريد لنفسه الزوال ، فى المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ؛ فاثنا عشر شهراً تكوّن عاما ، واثنا عشر بنساً تكون شلناً ، و « الدستة » اثنا عشر ، و « الجروسة » اثنا عشر « دستة » والقدم اثنا عشر بوصة ؛ أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الاقتسام ، ولذا أصبح بغيضاً عند الناس ، ومبعثاً للتشاؤم إلى الأبد ، ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ؛ ولا يزال استعمال هذا العدد فى العدّ ظاهراً فى قول الفرنسيين « أربع عشرينات » ليدلوا على « ثمانين » ؛ وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها « للشِّبْر » والإبهام للبوصة (اللفظتان فى اللغة الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) والذراع حتى المرفق للذراع ؛ والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) والقدم للقدم ؛ وفى عصر متقدم ، أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العدّ ؛ ولاتزال الكلمة الإنجليزية للعدّ ، (Calculate) تشير بأصلها اللغوى إلى أصلٍ معناه « حجر صغير » مما يدل على صغر المسافة التى تفصل القدماء السذّج عن المحدثين ، ولقد تمنى « ثورو » Thoreau أن يحيا هذه البدائية الساذجة ، وأجاد التعبير عن حالة كثيراً ما تعاود الإنسان فقال : « إن الرجل الأمين لا يكاد يجد الحاجة إلى عدٍّ يجاوز به أصابع يديه ، وقد يضيف إليها أصابع قدميه فى حالات نادرة ؛ ثم يكدس ما بقى له بعد ذلك فى كتلة واحدة ؛ فرأيى هو أن نُجرى أمورنا على نسق الاثنين او الثلاثة ، لا على نسق المائة أو الألف ، فبدل

المليون ، عُدّ ستة فقط ، وسجل حسابك على ظفر إبهامك »[٢٠] .

وربما كانت بداية الفلك فى قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية وكلمة « مقياس » نفسها (فى اللغة الإنجليزية measure) وكلمة شهر (month) – بل ربما كانت كلمة إنسان man أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس – كل هذه الكلمات ترْتَدُّ – بغير شك – إلى أصل لغوىٍّ معناه القمر (moon)[٢٦] ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعوام بزمن طويل ؛ فالشمس – مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ الأب لم تستكشف إلا فى وقت متأخر نسبيا ؛ وحتى اليوم ترانا نحسب موعد عيد الربيع « Easter » بأوجه القمر ؛ وكان لأهل پولنيزيا تقويمٌ ، العامُ فيه ثلاثة عشر شهراً ينظمها القمر ؛ فلما رأوا أن سنتهم القمرية تختلف اختلافا بيِّنا عن مواكب الفصول ، أسقطوا شهراً قمرياً ، وبذلك استعادوا التوازن بين سنتهم وبين الفصول[٢٧] ؛ لكن استخدام الأجرام السماوية على هذا النحو المتّزن كان شذوذاً بالقياس إلى التخبط فى استخدامها للتنجيم ، فالتنجيم قد سبق علم الفلك ، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك ؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماما بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن ؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم فى خُلُق الإنسان ونصيبه المقدور ، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهراً فى يومنا هذا[*] وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح ، ويجوز أن تكون ضربا آخر من الخطأ فى التعليل ؛ وما العلم نفسه إلا الضرب الأول من ذلك الخطأ .

والإنسان البدائى لا يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، ويكتفى بممارستها من الوجهة العملية ؛ فلئن لم يكن فى مقدوره أن يقيس مسار المقذوف فى الفضاء ،

(*) فيما يلى اقتباس من إعلان أذاعته قاعة البلدية فى نيويورك عن برنامجها يوم ٥ مارس سنة ١٩٣٤ : (فلان سيكشف الطالع لمن أراد ؛ وهو المنجم لعلية القوم فى نيويورك ولأرباب المهن الممتازين ؛ والساعة تكلف عشرة ريالات) .

إلا أنه يستطيع أن يصوّب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ؛ ولئن لم يكن لديه رموز كيماوية ، إلا أنه يستطيع أن يميز بلمحة سريعة أى النباتات سام وأيها طعام ، بل يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً فى شفاء أمراض البدن ؛ والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفه الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهن جعلن من فن التوليد — أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق — أقدم المهن جميعاً فحسب ؛ بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح ذلك لهن علماء أوسع بالنبات ، ومكّنهن من التقدم بفن الطب ، وميّزنه عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ؛ فمنذ أقدم العصور حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ؛ ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة[٢٨] .

وإنه لما يثير الدهشة فى نفسك أن تعلم كم من الأمراض كان يشفيها هؤلاء البدائيون على الرغم من قصور علمهم بالأمراض[٢٩] ؛ فالمرض عند هؤلاء السذّج — فيما بدا لهم — كان نتيجة لحلول قوة غريبة عنه أو روح غريب فى بدنه — وهو تصور لا يختلف من حيث الجوهر عن النظرية التى تسود الطب الآن من تعليل المرض بدخول الجراثيم فى الجسم ؛ وأوسع طرق العلاج شيوعا بين البدائيين هو اصطناع رُقية سحرية من شأنها أن تسترضى الروح الشريرة التى حلّت فى البدن العليل ، لعلها تنزاح عنه ؛ وإذا أردت أن تعرف مدى رسوخ هذه الطريقة فى أفئدة الناس بحيث لاتزول عنها أبداً ، فاقرأ قصة « خنزير جادارين » Gadarene Swine[٢٩أ] ، وحتى اليوم ترى الناس يعللون الصرع بحلول روح شرير فى البدن ؛ وبعض العقائد الدينية المعاصرة تنص على طرائق معينة لإخراج مثل هذه الروح الشرير من جسم العليل إذا أريد شفاؤه ؛ والكثرة الغالبة من الناس تعترف بالصلاة والدعوات على أنها تعين على الشفاء مع أقراص الدواء ؛ وربما

كان البدائيون يقيمون طريقتهم فى العلاج على نفس الأساس الذى يُقيم عليه أحدث الطب طريقته ، ألا وهو الشفاء بقوة الإيحاء ؛ غير أن أفاعيل أولئك الأطباء الأولين كانت أشد استلفاتاً للنظر بأساليبها المسرحية ، مما يصطنعه خلفاؤهم الذين ازدادوا عنهم حضارة ؛ فقد كانوا يحاولون طرد الروح الحالّ فى جسم المريض بتخويفه بما يلبسونه له من أقنعة مفزعة ، وما يغطون به أجسادهم من جلود الحيوان ، وبصياحهم وهذيانهم وتصفيقهم بالأيدى ، و « الشخشخة » بالصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض بوساطة أنبوبة مجوفة ؛ فكما كان يقول المثل السائر : « الطبيعة تشفى المريض ، والعلاج يسرُّ المريض » ، وأما قبائل « بورورو » Bororos البرازيلية فقد تقدمت بالعلم خطوة حين كانت تطلب إلى الوالد شرب الدواء ليشفى بذلك طفله المريض ، ولقد كان الطفل يشفى فى اطّراد كاد أن يكون شاملا كاملا[٣٠] .

وإلى جانب الأعشاب الطبّية نجد بين الأساليب الصيدلية الكثيرة التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى ، صنوفاً من المخدرات المنومة التى أريد بها أن تخفف الألم وتهوّن الجراحات ؛ فسموم مثل Curare الذى كثيراً ما يضعونه على أطراف سهامهم ؛ ومخدرات مثل نبات القنّب والأفيون والكافور ، هى أقدم تاريخاً من التاريخ ؛ حتى ليرجع أحد المخدّرات الشائعة بيننا اليوم إلى استخدام سكان پيرو لنبات الكوكا لهذه الغاية ؛ ويحدثنا « كارتييه » Cartier كيف كان أهل « إراكوا » يشفون مرض الإسقربوط بلحاء أشجار التنّوب والشوكران وأوراقها[٣١] وكذلك عرف الجراحون البدائيون طائفة مختلفة من الجراحات والأدوات ، فالولادة كانت تتم على نحو مُرْضٍ ، والكسور والجروح كانت تُضَمَّدُ وتُلَفُّ بمهارة[٣٣] ؛ وبوساطة مُدًى من الحجر الزجاجى الأسود ، أو من الصّوّان المرهف ، أو أسنان السمك ، كانوا يستخرجون الدم من « الخُرّاجات » ويجففونها ، كما كانوا يشرّطون الأنسجة ؛ وقد مارس البدائيون « تَرْبَنَة »

الجمجمة منذ أيام هنود بيرو الأقدمين إلى أهل مليزيا المحدثين ؛ وكان المليزيون ينجحون فى تسع حالات من كل عشر حالات بينما كانت الجراحة نفسها عام ١٧٨٦ تنتهى بالموت فى كل الحالات بغير استثناء فى مستشفى « أوتيل دييه » Hôtel Dieu فى باريس[٣٣]

إننا نبتسم لجهل البدائيين ، بينما نستسلم جادّين للأساليب الطبيّة الكثيرة التكاليف فى أيامنا ؛ يقول « الدكتور أولڤر وندل هولمز » Oliver Wendell Holms بعد حياة طويلة قضاها فى شفاء المرضى :

« لن يتردد الناس فى أداء شىء ، بل ليس هناك شىء لم يؤدوه فعلا ، فى سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة ؛ فقد رضوا أن يُغرَقوا فى المـــاء نصف إغراق ، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق ؛ ورضوا أن يدفنوا فى الأرض إلى أذقانهم ، وأن يوصموا بالحديد المُحَمَّى مثل عبيد قادس ؛ ورضوا أن يُقَصَّبوا بالمُدَى كأنهم سمك القُدّ ، وأن تثقب لحومهم بالإبَر ، وأن تُشْعَلَ المشاعل على جلودهم ، ورضوا أن يجرعوا كل صنوف المقززات ، وأن يدفعوا لذلك كله أجراً كأنما سَلْقُ الجسم وإحراقه ميزة ثمينة ، وكأنمـــا « الفقافيق » نعمة ، ودُودُ العَلَق ضرب من الترف »[٣٤] .

الفصل الثالث

الفن

معنى الجمال – معنى الفن – إحساس البدائي بالجمال – صبغ الجسم – دهان الوجه للتجمل – الوشم – الوصم – الثياب – الحلى – الخزف – التصوير – النحت – فن البناء – الرقص – الموسيقى – تلخيص للخطوات البدائية التى مهدت للمدنية .

بعد أن أنفق الفن من عمره خمسين ألف سنة ، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان ، ومبادئه فى عصور التاريخ ، فما الجمال ؟ – لماذا نُفتَتَنُ به ؟ لماذا نحاول أن نبدعه ؟ لما لم يكن هذا مجال المناقشة النفسية ، فسنكتفى بالردّ مختصراً وفى غير قطعٍ باليقين ، بأن الجمال هو أية صفة تجعل شيئاً أو شكلا ممتعاً لمن يشهده ؛ ولم يكن الشيء – من حيث الأصل والبداية – ليمتع الناظر إليه لأنه جميل ، لكن الأقرب إلى الصواب هو أن الرائى يسمى الشيء جميلا لأنه يمتعه ؛ وكل ما من شانه أن يشبع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينيه جميلا ؛ وعلى ذلك فالطعام جميل لمن يتضور جوعاً ، بينما « تاييس » ليست عنده حينئذ بذات جمال ؛ وقد يكون الشيءِ الممتع هو المشاهِدُ نفسه ، وقد لا يكون – كلا الفرضين على درجة واحدة من قوة الاحتمال ؛ ففى أعماق قلوبنا لسنا نرى شيئاً أجمل من أشكالنا ، ويبدأ الفن من تمجيد الإنسان لجسمه الرائع ؛ أو قد يكون الشيء الممتع هو العشير من الجنس الآخر الذى يرغب فيه الرائى ، وعندئذ يصطنع إحساسُنا بالجمال شدّةً وقوةَ إبداعٍ هما شدةُ الشهوة الجنسية وقوةُ إبداعها ؛ ثم يوسّع من هالة الجمال حتى تشمل كل شيء يمس الحبيب من بعيد أو قريب – فتشمل كل صورة جاءت شبيهة بصورتها ، وكل الألوان التى تزينها أو تسرّها أو تتحدث عنها ، وكل الحلىّ والثياب التى تلائمها ؛ وكل الأشكال

والحركات التى تذكّر بما لها من تناسق ورشاقة ؛ أو قد يكون الشكل الممتع هو صورة الذكر المطاوب ؛ ومن الجاذبية التى تجذب ضعف الإنسان نحو عبادة القوة يأتى إحساسنا بروعة الفخامة — فتطمئن نفوسنا فى حضرة القوة — وهو إحساس يخلق أرفع آيات الفن جميعاً ؛ وأخيراً قد تصبح الطبيعة نفسها — بمعونة منا — فخمة وجميلة فى آن معاً ، لالأنها تشبه وتوحى برقة المرأة كلها وقوة الرجل كلها فحسب ، بل لأننا تخلع عليها مشاعرنا وما أصبناه من حظوظ ، وحبنا لأنفسنا ولغيرنا — فنحن نستمتع فيها بمدارج صبانا ، ونستمتع فيها بالعزلة الهادئة لأنها مهرب من عاصفة الحياة ؛ ونحيا معها فى تقلّب فصولها الذى يكاد أن يكون إنسانىّ المراحل : فيفاعة نضيرة ، ونضج متّقد ، وإثمار يانع ، ثم انحلال بارد ؛ ونرى فيها على نحو غامض أمًّا وهبتنا الحياة ، وستتقبلنا عند الموت .

الفن هو إبداع الجمال ، هو التعبير عن الفكر أو الشعور فى صورة تبدو جميلة أو فخمة ، فتثير فينا هزة هى هزة الفرح الفطرىّ التى تثيرها المرأة فى الرجل ، أو الرجل فى المرأة ؛ وقد يكون الفكر إدراكا لمعنى من معانى الحياة كائناً ما كان ، وقد يكون الشعور إثارة أو استرخاء لوتر مشدود من أوتار الحياة كائناً ما كان ؛ وقد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا لما فيها من تناسق دَوْرِىٍّ يسرّنا لأنه يتجاوب فى طبائعنا مع نوبات الأنفاس ، وثبضات الدم ؛ وتداول الشتاء والصيف على نحو يبعث على الإجلال ، وتعاقب الجزر والمد والليل والنهار ؛ أو قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من تماثل هو بمثابة الوزن فى الشعر قد تجمد ، يمثّل القوة أمام أبصارنا ، ويصوّر لنا التناسب المنتظم فى النبات والحيوان ، وفى النساء والرجال ؛ أو قد تحدث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لألوانها التى تضىء الروح بضيائها أو تعمق بالحياة من السطح إلى الغزير ؛ وأخيراً قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من صدق ، إذ نرى فيها محاكاة واضحة ناصعة للطبيعة أو للواقع الخارجى ، حين تلقف لمحة من جمال النبات أو الحيوان كان

قينا أن يزول ، أو تلمح معنى عابراً لظرف قائم لكنه وشيك الزوال ، ثم تعرضه ساكناً ثابتاً أمام حس ٍّ يتلكأ فى استمتاعه بما يرى ، أو أمام عقل يحبُّ أن يتأمل على مهل ؛ من هذه المصادر الكثيرة يأتى ما فى الحياة من ألوان الكماليات السامية — الغناء والرقص ، الموسيقى والمسرحية ، الخزف والتصوير ، النحت والعمارة ، الأدب والفلسفة ؛ فما الفلسفة إن لم تكن فنا ؟ ما الفلسفة إن لم تكن محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سائر الفنون فى أن تُفيض على فوضى ما يقع لنا فى دنيا التجربة « صورة لها معنى » ؟

فإذا كان الإحساس بالجمال ضعيفاً فى الجماعة البدائية فقد يكون ذلك بسبب انعدام الفارق الزمنى بين الشعور بالشهوة الجنسية وبين تحقيقها ، لأن ذلك لا يتيح الفرصة للخيال أن يضفى على موضوع الشهوة ألواناً من عنده ، تزيد من جماله زيادة كبيرة ؛ إن الإنسان البدائى قلما يفكر فى اختيار النساء على أساس ما نسميه نحن فيهن بالجمال ، بل هو أدنى إلى التفكير فيهن على أساس نفعى ، ويستحيل أن يدور فى خلده أن يرفض عروساً مفتولة العضلات بسبب قبحها ؛ فرئيس القبيلة من الهنود حين سئل أىّ زوجاته أروع جمالا ، اعتذر عن عدم الجواب لأنه لم يفكر قط فى هذا الموضوع ، وقال فى حكمة ناضجة تشبه حكمة فرانكلين : « قد تكون الوجوه أكثر جمالا أو أقل جمالا ؛ لكن النساء فى جوانبهن الأخرى لا يختلف بعضهن عن بعض فى شىء » ؛ وحتى إن كان للإنسان البدائى إحساس بالجمال ، فهو أحياناً يُفْلت منا فلا نراه ، لشدة اختلافه عن إحساسنا نحن بالجمال ؛ يقول « رتشارد » : « كل مَن أعرف من أجناس الزنوج ، يعدُّون المرأة جميلة إذا لم تكن نحيلة عند خصرها ، وإذا ما كان جذعها من الإبطين إلى الردفين ذا عَرْض واحد — حتى يقول عنها زنجى الساحل : إنها كالسُّلَّم » والآذان المطروقة كآذان الفيل ، والبطن المتثنّى هما من مفاتن المرأة عند الرجال فى إفريقيا ؛ وفى أرجاء أفريقيا كلها ، أجمل النساء هى المرأة السمينة ؛ فيقول « منجوپارك »

Mango Park عن نيجيريا : « يظهر أن لفظتى السِّمنة والجمال تكادان تكونان مترادفتين ؛ فالمرأة التى تزعم لنفسها ولو قليلا من جمال ، لابد أن تكون ممن يتعذر عليهن المشى إلا إذا سار إلى جانبها عبْدان ، يسير كل منهما تحت ذراع ليكون لها دعامة ؛ والجمال الكامل تبلغه المرأة إن ساوت بوزنها حِمْل الجمل » ويقول « بريفو » Briffault : « إن معظم الهمج يؤثرون ما نظنه نحن من أقبح ما تتصف به المرأة ، وأعنى به الأثداء الطويلة المتدلية »[٣٥] ؛ ويقول « دارون » : « إنه من المعلوم لنا جميعاً أن العَجز عند كثيرات من نساء الهوتنتوب يبرز بروزاً عجيباً ولا يشك « سير أندرو سمث » أبداً فى أن هذه الخصيصة للعجيبة موضع إعجاب من الرجال ، فلقد رأى ذات يوم امرأة هى عندهم من ربات الجمال ، كانت من الضخامة فى أردافها بحيث إذا ما أجلسوها على أرض منبسطة استحال عليها الوقوف إلا إذا زحفت زحفاً حتى دنَت من سفح مائل . . . ويروى لنا « برتُن » Burton عن أهل الصومال أن الرجال إذا ما أرادوا اختيار الزوجات ، صفّوا النساء صفاً واختاروا من بينهن أكثرهن بروزاً فى العجز ؛ وليس أقبح فى عينى الزنجى من المرأة النحيلة »[٣٦]

لكن الرجل الطبيعى فى أرجح الظن — يقيس الجمال بمقياس نفسه هو أكثر مما يقيسه بمعيار شكل المرأة ، «فالأقربون — فى الفن — أولى بالمعروف» ؛ وقد لا يُصَدِّقُ النساء ما نزعمه لهن من أن الرجال البدائيين والمحدثين يأخذهم العُجْبُ بأنفسهم سواء بسواء ؛ فالذكر لا الأنثى فى الشعوب الساذجة — كما هى الحال فى الحيوان — هو الذى يتزين ويُنزل بجسده الجروح ؛ سعياً وراء الجمال ، فيقول « بُنْوِك » Bonwick : « إن التزيُّن فى استراليا يكاد يكون كله احتكاراً للرجل » وهكذا قُل فى مالنيزيا وغينا الجديدة وكالدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة ، وهانوفر الجديدة وهنود أمريكا الشمالية[٣٧] وفى بعض القبائل يستنفد تجميل الجسم وقتاً أكثر مما تستهلكه أية مهمة أخرى من

مهام النهار[٣٨] وواضح أن أول صورة للفن هى صبغ الجسم صبغة صناعية وهم يصبغون الجسم ليجذبوا النساء حيناً وليخيفوا الأعداء حيناً آخر ؛ والرجل من أهل أستراليا الوطنيين ـ كأحدث فاتنة من فاتنات أمريكا اليوم ـ كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء والحمراء والصفراء ، ليُصلح من جماله حيناً بعد حين ، فإذا ما أوشكت أصباغه على النفاد ، قام برحلات بعيدة خطرة ليزوّد نفسه منها بمقدار جديد ، وهو يكتفى فى الأيام العادية ببقع من اللون على خديه وكتفيه وصدره ، ولكن كان فى مناسبات الأعياد ، يُحِس ما يُحِسّه العُرْيان من خجل إذا لم يصبغ جسده كله من أعلاه إلى أسفله[٣٩] .

فى بعض القبائل يحتكر الرجال لأنفسهم حق صبغ الجسم ، وفى قبائل أخرى يحرَّم على النساء المتزوجات أن يصبغن أعناقهن[٤٠] ؛ لكن ما لبث النساء أن ظفرن لأنفسهن بفن التجمل بالأصباغ ، وهو أقدم الفنون جميعاً ؛ فلما وقف « كابتن كوك » Captain Cook فى زيلندة الجديدة حيناً ، لاحظ أن بحارته حين عادوا إليه من جولاتهم على الشاطئ ، كانوا حُمْرَ الأنوف أو صُفْرها بأصباغ صناعية ، ذلك لأن أنوفهم قد لصقت بها الأصباغ التى كانت الجميلات من أهل ذلك الإقليم قد طلين بها أجسادهن[٤١] ؛ ونساء « الفَلاّتة » Fellatah فى أفريقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم فى تجميل أنفسهن : فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية بأن يلففنها طوال الليل فى أوراق الحناء ، ويصبغن أسنانهن بالأزرق والأصفر والأرجوانى على هذا التوالى ؛ ويطلين شعرهن طلاء أزرق ، ويخططن جفونهن بالكحل[٤٢] وكل سيدة من قبيلة «بُنْجو» تحمل فى حقيبة أدوات التجميل ، ملقطاً تنزع به الرموش والحواجب ، ومشابك شعر على هيئة الرماح ، وخواتم وأجراساً ، وأزراراً ومشابك[٤٣] .

لكن السُّذّج الأوّلين ـ مثل الإغريق أيام بركليز ـ ضاقوا صدراً لسرعة زوال هذه الأصباغ ، فابتكروا الوشم والوصم والثيابَ أدواتٍ للتزين أدوم بقاء ،

فني كثير من القبائل أسلم الرجال والنساء أنفسهم للإبرة الصابغة وتحملوا في غير تململ حتى وشم الشفاه ؛ ففي جريلنده تشم الأمهات بناتهن في سن مبكرة ليمهدن لهن الزواج عاجلا(٤٤) ؛ لكن الوشم في أغلب الحالات لم يكن له ما أراده الناس من وضوح وتأثير ؛ لذلك طفق عدد من القبائل في كل قارة يَصِمُ الجسمَ بوصمات عميقة ليكونوا أجمل منظراً في أعين زملائهم ، أو أبشع هيئة في أعين أعدائهم ؛ فكما قال عنهم « ثيوفيل جوتييه » Théophil Gautier : « إنهم لما عزت عليهم الثياب ووسائل الزينة ، زينوا جلودهم»(٤٥) ، فكانوا يجرحون أجسامهم بحجر الصوّان أو بقواقع المحار ، ثم كثيراً مايضعون في الجرح كرةً من الطين لتوسّع من الوصمة ؛ فأهالي « مضيق تورس » كانوا يشخنون في جسومهم وصمات ضخمة ، وقبائل « أبيوكوتا » Abeokuta كانوا يجعلون وصماتهم شبيهة بشكل الضب أو التمساح أو السلحفاة(٤٦) ، ويقول « جيورج » Georg : « لست تجد من أجزاء الجسم جزءاً لم يجمّلوه أو يزينوه أو يشوهوه أو يصبغوه أو يحرقوه أو يشموه أو يصلحوه أو يبسطوه أو يقبضوه ، مدفوعين إلى ذلك بالعجْب بأنفسهم والرغبة في التجمل(٤٧) فقبيلة « بوتوكودو » Butocudos استمدت اسمها هذا من خابور يغرزونه في الشفة السفلى وفي الأذنين حينما يكون الناشئ في سنته الثامنة ، ثم ما ينفكون يستبدلون به خابوراً أكبر حتى تبلغ الفتحة اتساعاً طول قطره أربع بوصات(٤٨) ؛ والنساء الهوتنتوت يعملن على إطالة الشفرتين الصغيرتين حتى تبلغا طولا عظيما ، بحيث يتكون منها ما يسمّى بـ « فوطة الهوتنتوت » التي تلقى عند رجالهم إعجاباً عظيما(٤٩) ، وكانت أقراط الآذان وأقراط الأنوف ضرورات لاغنى عنها ؛ حتى لقد ذهب سكان « جپسلنده » Gippsland إلى أن من يموت بغير قرط في أنفه سيلاقي في الآخرة عذاباً أليماً(٥٠) ؛ وكأني بالسيدة العصرية تقول عن ذلك كله إنه وحشية فظيعة ، تقول هذا إذ هي تثقب أذنيها للأقراط ، وتصبغ شفتيها وخديها ، وتلقط شعرات حاجبيها ، وتقيم أهداب جفنيها ،

و « تُبَدِّرُ » وجهها وعنقها وذراعيها وتضغط قدميها ؛ إن بحّارنا الموشوم ليتحدث عن « الهمج » الذين رآهم فى رحلاته حديث الرجل الرفيع يعطف على هؤلاء الأدْنين ؛ والطالب من أهل أوربا ، يفزعه ما يحدثه البدائيون فى أجسامهم من تشويه ، لكنه مع ذلك يُزْهى بما عليه هو من وصمات يعدّها علائم الشرف .

والغالب أن تكون الثياب فى بدايتها ضرباً من الزينة ، فهى عامل يعوق الاتصال الجنسى أو يشجع عليه ، أكثر منها وقاية نافعة من البرد أو ستراً للعورة(51) ؛ فقد كانت العادة عند قبيلة « كمبِرى » Cimbri أن يزحفوا على الثلج بأجسام عارية(52) ، ولما أشفق « دارونْ » على الفويجيين من عُرْيهم ، أعطى أحدهم قطعة من القماش الأحمر ليتقى بها البرد لكن الرجل مزقها أشرطة ، ووزعها على زملائه ، فاستعملوها للزينة ؛ فهم كما قال عنهم « كوك » إنهم منذ الأزل « قد رضوا لأنفسهم العُرى لكنهم ما زالوا يطمعون فى الجمال »(53) ، وكذلك حدث أن مزّق نساء أورينوكو ما أعطاهن إياه الآباء الجزويت من ثياب ، ولبسنها أشرطة حول أعناقهن ، قائلات فى غير تردد « إنهن يستحين أن يلبسن الملابس »(54) ويصف كاتب قديم أهل البرازيل الأصليين بأنهم عراة الأجسام عادة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وبعضهم الآن يلبس الثياب ، لكنهم لا يقدرونها كثيراً حتى إنهم ليرتدونها على سبيل البدْع أكثر مما يرتدونها التزاماً للاحتشام ، أو يلبسونها لأنهم مأمورون بذلك . . . وإنك لتشهد ذلك فيمن يخرجون أحياناً من ديارهم ، لا يرتدون من الثياب ما يغطى أجسامهم أبعد من سُرّة البطن ، أو هم يضيفون إلى ذلك طاقية على رءوسهم ، مخلّفين سائر الثياب فى دُورهم »(55) ؛ فلما زادت الثياب على كونها أداة للزينة ، أصبحت علامة تدل على أن المرأة متزوجة ومخلصة لزوجها ، أو استُخْدمت لإبراز قوام المرأة وجمالها ؛ وفى معظم الحالات ، ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ماتتطلبه النساء فى العصور التى تَلَتْ ، وهو ألا تكون الغاية تغطية العُرْى ، بل أن تزيد من فتنة

أجسامهن أو توحى بها ؛ إن كل شىء فى تغيّر إلا المرأة والرجل .

وكلا الجنسين منذ البداية آثرا الزينة على الثياب ؛ فالتجارة البدائية قلما تعنى بالضرورات ، إنما هى تحصر نفسها عادة فى مواد الزينة واللعب[٥٦] ؛ والأحجار الكريمة هى من أقدم عناصر المدنيَّة ؛ فلقد وُجدت أصداف القواقع والأسنان معقودة فى عقود للزينة ، وُجدت فى مقابر لبثت على وجه الدهر عشرين ألف عام »[٥٧] ثم من البدايات الساذجة ، سرعان ما تتطور أمثال هذه الحلىّ حتى تبلغ من ضخامة الحجم حدا بعيداً ، وتلعب فى الحياة دورا عظيما ؛ فنساء قبيلة « غالا » كن يلبسن خواتم بلغ وزنها ستة أرطال للمرأة الواحدة ، وبعض نساء « الدِّنكا » يحملن نصف قنطار من الزينة ؛ وحدث لجميلة من جميلات أفريقيا أن لبست خواتم نحاسية حميت فى حرارة الشمس بحيث اضطرت أن تستخدم خادما خاصاً يظللها أو يُروِّح عليها ؛ وكانت ملكة « الوابونيا » Wabunias على نهر الكنغو تلبس حول عنقها إطارا نحاسيا يزن عشرين رطلا ؛ فكان لزاماً عليها أن ترقد حينا بعد حين لتستريح ؛ أما النساء الفقيرات اللائى لم يسعفهن الحظ إلا بمقدار خفيف من المعادن الكريمة ، فقد كن يحاكين فى دقة مشية أولئك اللائى يحملن من تلك الزينة البشعة حملا ثقيلا[٥٨] .

إذن فأول مصادر الفن قريب الشبه بزهو الحيوان الذكر بألوانه وريشه أيام التزاوج ؛ والدافع إليها هو الرغبة فى تجميل الجسم وتزيينه ؛ وكما أن حب الإنسان لنفسه وحبه لعشيره من الجنس الآخر ؛ إذا فاض عن القدر المطلوب ، صبَّ فيضه من الحب على الطبيعة ، فكذلك الدوافع إلى التجميل ينتقل من العالم الخاص إلى الدنيا الخارجية ؛ فتحاول النفس أن تعبر عن نفسها فى أشياء موضوعية ؛ متخذة فى ذلك وسيلتى اللون والشكل ؛ ولذا فالفن يبدأ حقيقة حين يبدأ الناس فى تجميل الأشياء ؛ ولعل أول ما تعلق به فن التجميل هو الخزف ، فعجلة الخزّاف — مثل الكتابة ومثل الدولة هى وليدة العصور التاريخية ؛ لكن البدائيين

ـ أو على الأصح النساء البدائيات ـ حتى قبل هذه العجلة التى يستعملها الخزّاف ، استطعن أن يرتفعن بهذه الصناعة القديمة إلى مرحلة الفن ، وأخرجن من الطين والماء وأصابعهن الماهرة صوراً لها اتساق يبعث على الدهشة ؛ وإن أردت شاهدا فانظر إلى الخزف الذى صنعته قبيلة « بارونجا » Baronga فى أفريقيا الجنوبية(٥٩) أو الذى صنعته قبيله « بُويبْلُو » من الهنود(٦٠) Pueblo Indians .

والخزّاف حين يزخرف سطح الآنية التى صنعها بزخارف ملونة ، إنما هو بذلك يخلق فن التصوير ، فالتصوير فى أيدى البدائيين لم يكن بعد قد أصبح فنا مستقلا ، بل كان وجوده متوقفاً على فن الخزف وصناعة التماثيل ؛ والفطريون إنما يصنعون ألوانهم من الطين ، وأهل « أندامان » Andamanes يصنعون الألوان بخلط المغرة (تراب حديدى) بالزيوت أو الشحوم(٦١) ؛ واستخدموا مثل هذه الألوان فى زخرفة الأسلحة والآلات والآنية والمبانى ، وكثير من القبائل الصائدة فى أفريقيا وأوقيانوسيا ، كانت تصوّر على جدران كهوفها أو على الصخور المجاورة لها ، تصاوير ناصعة لصنوف الحيوان التى أرادت صيدها(٦٢) .

ويجوز كذلك أن يكون الخزف وصناعته أصل النحت كما كان أصل التصوير ؛ فتبيّن للخزّاف أنه لا يستطيع فقط أن يصنع الأوانى النافعة ، بل فى مقدوره كذلك أن يصور الأشخاص فى تماثيل يستفاد منها تمائم للسحر ، ثم بعدئذ أراد أن يصنع هذه الأشياء لتكون جمالا فى ذاتها ؛ لقد نَحَتَ الإسكيمو قرون الوعل وعاج فيلة البحر تماثيل صغيرة للحيوان والإنسان(٦٣) ، وكذلك أراد البدائى أن يميز كوخه بعلامة ، أو يميّز عمودَ الطوطم أو قبرا من القبور بتمثال صغير يدل على معبوده أو على ميّته ؛ فكان أول ما نحت من ذلك وجهٌ على عمود ، ثم نحت رأسا ، ثم نحت العمود كله ؛ ومن هذا التميز لقبور الآباء بتماثيل تصور الموتى ، أصبح النحت فنا(٦٤) ؛ وعلى هذا النحو أقام سكان جزيرة إيستر القدامى تماثيل هائلة على قبور موتاهم ، كل تمثال من حجر واحد ، ولقد وجدنا عشرات من هذه

التماثيل يبلغ كثير منها عشرين قدماً فى ارتفاعه ، وبعضها تراه الآن سطيح الأرض مهشما ، كان ارتفاعه لا يقل عن تستين قدماً .

لكن كيف بدأ فن العمارة ؟ إننا لا نكاد نستطيع إطلاق هذا الاسم الضخم على بناء الكوخ البدائى ، لأن العمارة ليست مجرد بناء ، لكنها بناء جميل ؛ وإنما بدأت العمارة فناً حين فكّر رجل أو فكّرت امرأة لأول مرة أن تقيم بناء للمظهر وللنفع معاً : وربما اتجه الإنسان بهذه الرغبة فى خلع الجمال والفخامة على البناء ، إلى المقابر قبل أن يَتَّجه بها إلى الدُّور ؛ وبينما تطور العمود التذكارى الذى أقيم عند المقبرة إلى فن التماثيل ، فقد تطور القبر نفسه إلى المعبد ، ذلك لأن الموتى عند البدائيين كانوا أهم وأقوى من الأحياء ، هذا فضلا عن أن الموتى مستقرون فى مكان واحد ، بينما الأحياء يتجولون هنا وهناك بحيث لا تنفعهم الدُّور الدائمة .

ولقد وجد الإنسان لذة فى الإيقاع منذ زمان بعيد ، وربما كان ذلك قبل أن يفكر فى نحت الأشياء أو بناء المقابر بزمن طويل ؛ وأخذ يُطَوِّرُ صياح الحيوان وتغريده ؛ وقفزه ونَقْرَه ، حتى جعل منه غناء ورقصا ؛ وربما أنشد — مثل الحيوان — قبل أن يتعلّم الكلام(٥٦) ورقص حين أنشد الغناء ؛ والواقع أنك لن تجد فنا يميز البدائيين ويعبر عن نفوسهم كما يميزهم الرقص ويعبّر ، ولقد طَوَّرَه من سذاجة أوّلية إلى تركيب وتعقيد أين منهما رقص المتحضرين ؛ ونَوَّعَهُ صوراً شتى تُعَدُّ بالمئات ؛ فالأعياد الكبرى عند القبائل ، كانت تحتفل أولا بالرقص فى صورتيه : الجمعى والفردى ؛ وكذلك كانت الحروب الكبرى تبدأ بخطوات وأناشيد عسكرية ؛ والمحافل الكبرى فى الدين كانت مزيجاً من غناء ومسرحية ورقص ؛ إن ما يبدو لنا ضرباً من اللعب ، قد كان على الأرجح أموراً جدية للإنسان الأول ، فهم حين كانوا يرقصون ، لم يريدوا بذلك أن يعبروا عن أنفسهم وكفى بل قصدوا إلى الإيحاء إلى الطبيعة وإلى الآلهة ، مثال ذلك استحثاث

الطبيعة على وفرة النسل كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذى ينتج عن الرقص؛ ويرى « سپنسر » أن الرقص يرجع فى أصله إلى ترحيب ذى طقوس برئيس عاد من الحروب ظافراً ؛ أما « فرويد » فرأيه أن الرقص أصله التعبير الطبيعى عن الشهوة الحسية ، وفن الجماعة فى إثارة الرغبة الجنسية ؛ فلو كان لنا أن نقول — غير متجاوزين هذه الآراء من حيث ضيق النظر — بأن الرقص إنما نشأ من الطقوس المقدسة وألوان العربدة ، ثم جمعنا النظريات الثلاث التى أسلفنا ذكرها فى نظرية واحدة ؛ كان لنا بذلك فكرةٌ عن أصل الرقص هى أدق ما يمكننا الوصول إليه اليوم .

ولنا أن نقول بأنه عن الرقص نشأ العزف الموسيقى على الآلات كما نشأت المسرحية ؛ فالعزف الموسيقى — فيما يبدو — قد نشأ عن رغبة الإنسان فى توقيع الرقص توقيعاً له فواصل تحدده ، وتصاحبه أصوات تقوّيه ؛ وعن رغبته كذلك فى زيادة التهيج اللازم للشعور الوطنى أو الجنسى بفعل صرخات أو نغمات موزونة ؛ وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء ، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر ؛ فقد بذل الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من نبوغ فى صناعة الأبواق بأنواعها والطبول والشخاشيخ والمصفقات والنايات وغيرها من آلات الموسيقى ، صنعها من قرون الحيوان وجلودها وأصدافها وعاجها ، ومن النحاس والخيزران والخشب ؛ ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة ؛ ومن وتر القوس قديما نشأت عشرات الآلات ، من القيثارة البدائية إلى الكمان والبيان الحديثين ؛ ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون ، وتطور السُّلَّم الموسيقى من غموض وخفوت حتى أصبح على ما هو عليه الآن(٦٦) .

ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة ، خَلَقَ لنا « الهمجى » المسرحية والأوپرا ، ذلك لأن الرقص البدائى كان فى كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة ،

فقد كان يحاكى حركات الحيوان والإنسان ولا يجاوز هذه المرحلة ، ثم انتقل إلى أداء يحاكى به الأفعال والحوادث ؛ فمثلا بعض القبائل الاسترالية كانت تقوم برقصة جنسية حول فجوة فى الأرض يوشّون حوافيها بالشجيرات ليمثلوا بها فرج المرأة وبعد أن يحركوا أجسامهم حركات نشوانة غَزِلَة ، يطعنون برماحهم طعنات رمزية فى الفجوة ؛ وقبائل استراليا الشمالية الغربية ، كانت تمثل مسرحية الموت والبعث لا تختلف إلا فى درجة البساطة عن مسرحية اللغز فى القرون الوسطى والمسرحية العاطفية فى العصر الحديث ؛ فكنت ترى الراقصين يهبطون إلى الأرض فى حركة بطيئة ، ثم يغطون وجوههم بغصون يحملونها ، تمثيلا للموت ؛ حتى إذا ما أشار لهم الرئيس ، نهضوا نهوضا مباغتا وهم يرقصون ويغنون رقصا وغناء عنيفين يَدُلون بهما على فوزهم الذى أحرزوه ، ويعلنون بعث الروح(٦٧) وعلى هذا النحو أو ما يشبهه ، كانوا يقومون بمئات الأوضاع فى التمثيل الصامت ، ليصفوا بها أهم الأحداث فى تاريخ القبيلة ، أو أهم الأفعال فى حياة الفرد ؛ فلما اختفى التوقيع من هذا التمثيل ، تحول الرقص إلى مسرحية ، وبهذا وُلِدَتْ لنا صورةٌ من أعظم صور الفنون .

بهذه الوسائل خَلَقَ لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة صور الحضارة وأسسها ؛ فإذا ما نظرنا إلى الوراء نستعرض هذا الوصف الموجز للثقافة البدائية ، وجدنا هناك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية وُضعت لنا أصولُها فى هـــذه المرحلة : الصيد والسماكة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال ؛ وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبتت جذورها فى هـــذه المرحلة : العشيرة والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة ؛ وكذلك ترى الحرية والنظام ــ هذان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنيّة كلها ــ قد تلاءما وتوافقا لأول مرة فى هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة ؛ وقامت أسس الأخلاق :

تدريب الأطفال وتنظيم الجنسين : وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء ؛ وكذلك وضعت أسس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه فى تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع ؛ وتطور الكلام إلى لغات معقدة ، وظهرت الجراحة وظهر الطب ، وبدَت بوادر متواضعة للعلم والأدب والفن ؛ وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لعهد تم فيه إبداع عجيب ، فنظام يُخْلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يُشَقّ من حياة الحيوان لينتهى إلى الإنسان الحكيم ؛ فبغير هؤلاء « الهمج » وما أنفقوه من مائة ألف عام فى تجريب وتحسّس ، لمـا كُتب للمدنيّة النهوض ؛ فنحن مَدِينون لهم بكل شىء تقريبا — كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل كذلك إنه اليافع المتحلّل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدّعة ، من أسلاف أمّيّين ورّثوه ما ورّثوه بكدحهم الطويل .

الباب السادس

بدايات المدنية فيما قبل التاريخ

الفصل الأول

ثقافة العصر الحجرى القديم

الغاية من دراسة ما قبل التاريخ – فتنة الدراسة الأثرية

إننا فى حديثنا السابق ، لم نلتزم الدقّة فى الحديث ، فهذه الثقافات البدائية التى عرضناها كوسيلة لدراسة عناصر المدنيَّة ، لم تكن بالضرورة الأصول التى تفرعت عنها مدنيَّتنا ؛ فليس ما يمنع أن تكون بقايا متحلّلة لثقافات أعلى تدهورت حين تحركت زعامة البشر فى إثر الثلوج التى تنزاح عن صدر الأرض ، فانتقلت من المداريْن إلى المنطقة الشمالية المعتدلة ، ولقد حاولنا أن نفهم كيف تنشأ المدنيَّة بصفة عامة وكيف يتم تشكيلها ؛ ولا يزال أمامنا أن نتعقب أصول مدنيتنا الخاصة فيما قبل التاريخ(*) ، ونحب الآن أن نبحث بحثاً موجزاً – لأن مجال هذا البحث لا يمس أغراضنا إلا من هوامشها – فنتعقب الخطوات التى خطاها الإنسان قبل التاريخ ، ليمهد السبيل إلى المدنيَّة التى عرفها التاريخ ؛ كيف أصبح إنسان الغابة أو إنسان الكهف هو المعمارىّ المصرى ، أو الفلكى البابلى ، أو النبى العبرى أو الحاكم الفارسىّ ، أو الشاعر اليونانى ،

(*) سنستعمل هذه العبارة « فيما قبل التاريخ » لندلّ بها على كل العصور السابقة للمدوّنات التاريخية .

أو المهندس الروماني ، أو القديس الهندى ، أو الفنان الياباني ، أو الحكيم الصيني ؛ لا بد لنا أن نسلك سبيلنا من علم الأجناس البشرية — عن طريق علم الآثار — لننتهى إلى التاريخ .

إن الباحثين يملأون بطاح الأرض كلها تمبونها بحثاً : طائفة تريد الذهب ، وطائفة تريد الفضة وثالثة تنشد الحديد ، ورابعة تسعى وراء الفحم ، وكثيرونَ إلى جانب هؤلاء يطلبون المعرفة ؛ فيالها من مهمة عجيبة هذه التي يضطلع بها مَنْ يستخرجون آلات العصر الحجرى من جوف الأرض عند ضفاف السوم ، ويدرسون بأعناق مشرئبة الصور الناصعة المرسومة على أسقف الكهوف من عهد ما قبل التاريخ ، ويخرجون جماجم قديمة من مدافنها عند « تشوكوتين » Chou Kou Tien ويكشفون عن المدائن الدفينة فى « موهنجودارو » Mohengo-daro أو « يقطان » Yucaton ؛ وينقلون الأنقاض فى سلال تحملها القوافل فى مقابر المصريين التى استنزل أصحابها اللعنة على نابشيها ، وينفضون التراب عن قصور « مينوس » و« بريام » ويزيلون الغطاء عن « برسوبوليس » ، ويحفرون الأرض فى إفريقيا حفراً ليجدوا بقية من قرطاجنة ، وينقذون من ثنايا الغابات معابد « أنجور » العظيمة ! لقد عثر فى فرنسا « چاك بوشيه دى پرت » فى سنة ١٨٣٩ على أول أثر من الصوّان مما خلّفه العصر الحجرى ؛ ولبث العالم يسخر منه تسعة أعوام كاملة ، لأنه كان فى رأى العالم عندئذ مخدوعاً ؛ وفى سنة ١٨٧٢ أزال « شليمان » — بماله الخاص ، ويوشك أن يكون قد اعتمد على يديه دون غيرهما فى ذلك — أزال التراب عن أحداث مدائن طروادة وإنها لكثيرة ؛ لكن العالم كله ابتسم له ابتسامة المرتاب ؛ ولعل التاريخ لم يشهد من قرونه قرناً اهتم أهله بالتاريخ كالقرن الذى تلا رحلة شمپوليون الشاب فى صحبة نابليون الشاب إلى مصر (عام ١٧٩٨) وعاد نابليون من رحلته خالى الوفاض ؛

أما شمپوليون فقد عاد وفى قبضته مصر بأسراها ، ماضيها وحاضرها ؛ ومنذ ذلك الحين ، أخذ كل جيل يستكشف مدنيات جديدة وثقافات جديدة ، ويرجع خطوة وراء خطوة بحدود معرفة الإنسان بتطوره ؛ فلن تجد جوانب كثيرة من حياة هــذا النوع البشرى السافك للدماء ، أجمل من هذا الشغف الشريف بالاستطلاع ، هذه الرغبة القلقة المغامرة فى سبيل العلم .

الفصل الثانى

أهل العصر الحجرى القديم

بطاقة چيولوچية — الأنماط البشرية فى ذلك العصر

كتب لنا الكُتَّابُ عدداً ضخما من الكتب ليوسّعوا نطاق علمنا بالإنسان البدائى ، ويخفوا معالم جهلنا به ؛ ونحن نترك للعلوم الأخرى ذات الخيال المبدع مهمة وصف الناس فى العصرين الحجريين القديم والحديث ، ونكتفى هنا بما نحن مَعْنيُّون به ، وهو تعقّب الإضافات التى أضافتها الثقافات الحجرية بعصريها القديم والحديث ، إلى حياتنا المعاصرة .

إن الصورة التى ينبغى أن نكوّنها لأنفسنا بطانةً للقصة التى نرويها ، هى صورة أرض تختلف اختلافاً بيّنا عن الأرض التى تحملنا اليوم فى حياتنا العابرة ؛ هى صورة أرض ربما كانت ترتجف بأنهار الثلج التى كانت تجتاحها حيناً بعد حين ، والتى جعلت من المنطقة المعتدلة اليوم منطقة متجمدة مدى آلاف السنين ، وكوّمَتْ جلاميد من الصخر مثل جبال الهملايا والألب والبرانس ، فى طريق هذا المحراث الثلجى الذى كان يشق الأرض فى سيره شقاً(*) .

فلو أخذنا بنظريات العلم المعاصر على سرعة تغيّرها ، قلنا إن الكائن الذى أصبح فيما بعد إنساناً حين تعلّم الكلام ، كان أحد الأنواع القادرة على الملاءمة بين نفسها وبين البيئة ، التى بقيت بعد هذه القرون المتجمدة بجليدها ؛ وبينما كان

(*) تحدد النظرية الچيولوچية القائمة الآن تاريخ عصر الجليد الأول بسنة ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الأولى التى توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ٤٧٥,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر الجليد الثانى بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد . والمرحلة الثانية التى توسطت عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدى الثالث بسنة ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الثالثة التى توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ١٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدى الرابع (والأخير) بسنة تقع بين ٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد(٢) ونحن الآن فى مرحلة أعقبت عصراً جليدياً لم يحسب تاريخ نهايته حسابا دقيقاً .

الجليد يتراجع فى المراحل التى تتوسط العصور الجليدية ، (بل قبل ذلك بكثير فيما نعلم) استكشف هذا المخلوق العجيب النار ، وطَوَّرَ فنَّ نحت الصخر والعظم ليصنع أسلحة وآلات ، فمهد السبيل بذلك لقدوم المدنيّة .

ولقد وجدت بقايا كثيرة ترجع إلى هذا الإنسان السابق للتاريخ — ولو أن هذه المعلومات أصابها كثير من التعديل فيما بعد — ففى سنة ١٩٢٩ كشف صينى شاب عالم بالحفريات الحيوانية والنباتية ، وهو « و . س . پى » W. C. Pei فى كهف عند « تشو كو تين » — وهو يبعد عن « پيپين Peiping نحو سبعة وثلاثين ميلا — عن جمجمة ، وقد قال عنها علماءُ خبراءُ مثل « الأب بريل » Abbé Breuil و « ج . إليَتْ سمِثْ » G. Eliot Smith إنها جمجمة بشرية ووجدت آثار من النار بالقرب من الجمجمة ؛ كما وجدت أحجار استخدمت آلاتٍ بغير شك ؛ لكنهم وجدوا كذلك عظام حيوان ممزوجة بتلك الآثار ، أجمع الرأى على أنها ترجع إلى عصر البليستوسين الأول وهو عصر تاريخه مليون سنة مضت(٣) ؛ هذه الجمجمة التى وجدت عند « پيپين » هى بإجماع الآراء أقدم ما نعرف من القواقع البشرية ، والآلات التى وجدت معها هى أقدم مصنوعات فى التاريخ ؛ وكذلك وَجَدَ « دُوسُنْ » Dawson و « وُودْوُرْدْ » Woodward عند « پِلْتداون » فى مقاطعة سَسِكْس بإنجلترا ، سنة ١٩١١ قطَعاً من العظم يمكن أن تكون بشرية ، وهى التى تعرف اليوم باسم « إنسان پِلْتداون » أو باسم « يوانثروپس » Eoanthropus (معناها إنسان الفجر) والتاريخ الذى يحددونه لها يتراوح على مسافة طويلة من الزمن ، من سنة مليون إلى ١٢٥٫٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ومثل هذه التخمينات يدور أيضاً حول عظم الجمجمة وعظام الفخذ التى وجدت جاوه سنة ١٨٩١ وعظمة الفك التى وجدت قرب هيدلبرج سنة ١٩٠٧ ؛ وأقدم القواقع التى لا شك فى أنها بشرية وجدت فى « نياندرتال » بالقرب من دسلدورف بألمانيا سنة ١٨٥٧ ، وتاريخها فيما يظهر هو سنة ٤٠٫٠٠٠

قبل الميلاد ، وهى تشبه البقايا البشرية التى كُشف عنها فى بلجيكا وفرنسا واسپانيا بل وعلى شواطئ بحر جاليلى ؛ حتى لقد صَوَّر العلماء عصراً بأسره من « إنسان النياندرتال » ساد أوروبا منذ حوالى أربعين ألف عام قبل عصرنا هذا ؛ وكان هؤلاء الناس قصاراً ، لكن لهم جماجم سعة الواحدة منها ١٦٠٠ سنتيمتر مكعب أى أنها أكبر من جمجمة الرجل فى هذا العصر بمائتى سنتيمتر مكعب(٤)

ويظهر أن قد حل جنس جديد اسمه « كرو — مانيون » **Crô-Mangon** حول سنة ٢٠,٠٠٠ قبل الميلاد محل هؤلاء السكان الأقدمين لأوروبا ، كما تدلنا الآثار التى كُشف عنها (سنة ١٨٦٨) فى مغارة بهذا الاسم فى منطقة « دوردونى » فى فرنسا الجنوبية ؛ ولقد استخرجت بقايا كثيرة من هذا النمط ترجع إلى العصر نفسه ؛ من مواضع مختلفة فى فرنسا وسويسرا وألمانيا ويلز . وكلها تدل على قوم ذوى قوة عظيمة وقوام فارع يتراوح طوله من خمس أقدام وعشر بوصات إلى ست أقدام وأربع بوصات ولهم جماجم سعة الواحدة منها تختلف من ١٥٩ إلى ١٧١٥ سم مكعب(٥) ، وتعرف فصيلة « كرو — مانيون » كما تعرف فصلية « نياندرتال » باسم « سكان الكهوف » ذلك لأن آثارهم وجدناها فى الكهوف ، لكن ليس هناك دليل واحد على أن الكهوف كانت كل ما لديهم من المساكن ؛ فقد يكون ذلك سخرية بنا من الزمن ، أعنى أن علماء الحفريات لم يجدوا من آثار هؤلاء الناس إلا آثار من سكنوا الكهوف ولاقوا فيها مناياهم ؛ والنظرية العلمية اليوم تذهب إلى أن هذه الفصيلة العظيمة إنما جاءت من آسيا الوسطى مارة بإفريقية . حتى بلغت أوروبا ، وأنها شقت طريقها فوق جسور من اليابس يقال إنها كانت عندئذ تربط إفريقية بإيطاليا وأسبانيا(٦) . وإن طريقة توزيع هذه القواقع البشرية لتميل بنا إلى الظن بأنهم لبثوا عشرات من السنين بل ربما لبثوا قروناً طوالا يقاتلون فصيلة « نياندرتال » قتالا عنيفاً لانتزاع أوروبا من أيديهم . وهكذا ترى أن النزاع بين ألمانيا وفرنسا ضارب بجذوره فى القدم ؛ ومهما يكن من

أمر فقد زال إنسان « نياندرتال » عن ظهر الأرض حيث عمرها إنسان « كرو ـ مانيون » الذى أصبح السلف الأساسى الذى عنه جاءت أوروبا الغربية الحديثة ، وهو الذى وضع أساس المدنية التى انتهت إلى أيدينا اليوم ؛

إن الآثار الثقافية لهذه الأنماط البشرية التى بقيت فى أوروبا من العصر الحجرى القديم تقع فى سبعة أقسام رئيسية تختلف باختلاف المواضع التى وجدنا فيها أقدم الآثار أو أهمها فى فرنسا . وكلها جميعاً إنما يتميز باستخدام آلات غير مصقولة ؛ والأقسام الثلاثة الأولى منها قد تم لها التكوين فى الفترة المضطربة التى توسطت العصرين الجليديين الثالث والرابع .

١ ـ الثقافة (أو الصناعة) السابقة للعهد الشيلى Pre-Chellean وهو عصر يقع تاريخه حول سنة ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ومعظم الأحجار الصوّانية التى وجدناها فى هذه الطبقة الوطيئة من طبقات الأرض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صاغوها بصناعتهم والظاهر أنهم قد استخدموها كما صادفوها فى الطبيعة [ذلك إن كانوا قد استخدموها إطلاقا] لكن وجود أحجار كثيرة بينها لها مقبض يلائم قبضة اليد ، ولها حَدٌّ وطَرَفٌ (إلى حدٍّ ما) يجعلنا نزعم هذا الشرف للإنسان السابق للعهد الشيلى ، شرف صناعة أول آلة استخدمها الأوربيون ، وهى المدية الحجرية .

٢ ـ الثقافة الشيلية ويقع تاريخها حول سنة ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد وقد تحسنت فيها هذه الآلة بإرهاف جانبيها إرهافا على شىء من الغلظة وبتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة ، ثم بتهيئتها تهيئة تكون أصلح لقبضة اليد البشرية .

٣ ـ الثقافة الأشولية Acheulean ويقع تاريخها حول ٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوربا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وإفريقية والشرق الأدنى والهند والصين ؛ وهذه المرحلة لم تُصْلِح من المدية الحجرية إصلاحا يجعلها أكثر تناسقا وأحَدّ طرفا فحسب ، بل أنتجت إلى جانب ذلك

أنواعا كثيرة من الآلات الخاصة كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورءوس السهام وسنان الرماح والمدى ، وفى هذه المرحلة تستطيع أن ترى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية .

٤ ـ الثقافة الموستيرية mousterian ، وتوجد آثارها فى القارات كلها ، مرتبطة ارتباطاً يسترعى النظر ببقايا إنسان النياندرتال ، وذلك فى تاريخ يقع على نحو التقريب قبل الميلاد بأربعين ألفا من السنين ؛ والمدية الحجرية نادرة نسبيا بين هذه الآثار ، كأنما أصبحت عندئذ شيئا عفى عليه الزمان وحل محله شىء جديد ؛ أما هذه الآلات الجديدة فقوام الواحدة منها رقيقة واحدة من الصخر ، أخف من المدية السابقة وزنا وأرهف حداً وأحسن شكلا ، صنعتها أيد طال بها العهد بقواعد الصناعة ؛ فإذا صعدت طبقة من الأرض فى طبقات العهد البليستوسينى فى جنوب فرنسا وجدت بقايا الثقافة التالية :

٥ ـ الثقافة الأورجناسية Aurignacian وتقع حول عام ٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ، وهى أولى المراحل الصناعية بعد أعصر الجليد ، وأولى الثقافات المعروفة لإنسان « كرو ـ مانيون » ؛ وهاهنا فى هذه المرحلة أضيفت إلى آلات الحجر آلات من العظم ـ مشابك وسندانات وصاقلات الخ ـ وظهر الفن فى نقوش غليظة منحوتة على الصخر ، أو فى رسوم ساذجة بارزة ، أغلبها رسوم لنساء عاريات[٧] ؛ ثم جاءت فى مرحلة متقدمة من مراحل تطور إنسان « كرومانيون » ثقافة أخرى ، هى :

٦ ـ الثقافة « السولترية » Solutrean التى ظهرت حول سنة ٢٠٠٠٠ قبل الميلاد فى فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولنده ؛ وهنا أضيفت إلى أسلحة العهد الأورجناسى السالف وأدواته ، مُدًى وصفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ؛ وصُنِعَتْ كذلك إبَرٌ دقيقة حادة من العظم ، وقُدَّتْ آلات كثيرة من قرن الوعل ؛ وترى قرون الوعل منقوشة أحيانا برسوم جسوم حيوانية أرقى بكثير من

الفن فى العصر الأورجناسىّ السابق ، وأخيرا عند ما بلغ إنسان كرومانيون ذروة تطوره ، ظهرت :

٧ — الثقافة المجدلية Magdalenian التى ظهرت فى أرجاء أوروبا كلها حول سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهى تتميز فى الصناعة بمجموعة كبيرة منوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وهى تبلغ حدها الأقصى فى مشابك وإبر متواضعة لكنها تصل حد الكمال فى الإتقان ، وهــذه المرحلة هى التى تميزت فى الفن برسوم « أَلْتَاميرا » Altamira وهى أدق وأرق ما صنعه إنسان كرومانيون .

وضع إنسان ما قبل التاريخ ، فى هذه الثقافات التى شهدها العصر الحجرى القديم ، أسس الصناعات التى كُتِبَ لها أن تبقى جزءا من التراث الأوروبى حتى الثورة الصناعية ، وكان مما سهَّل نقلها إلى المدنيَّة الكلاسيكية والمدنيَّة الحديثة انتشار صناعة العصر الحجرى القديم ؛ والجمجمة وتصاوير الكهوف التى وجدناها فى روسيا سنة ١٩٢١ ، والأحجار الصوّانية التى كشف عنها فى مصر « دى مورجان » De morgan سنة ١٨٩٦ ، وآثار العصر الحجرى القديم التى وجدها « سِتُنْ كار » Seton-Karr فى الصومال ؛ ومستودعات العصر الحجرى القديم فى منخفض الفيوم(*) وثقافة جليج ستِلْ فى جنوب أفريقيا ، كلها تدل على أن « القارة المظلمة » قد اجتازت نفس المراحل تقريبا التى أوجزناها فيما سلف عن أوروبا قبل التاريخ ، وذلك من حيث صناعة الرقائق الحجرية[٨] ؛ بل ربما كانت الآثار التى وجدناها فى تونس والجزائر ، مما يشبه آثار العصر الأورجناسىّ ، يؤيد النظرية القائلة بأن أفريقيا هى الأصــل فى تلك الثقافة ، أو هى الحد الذى وقف عنده إنسان «كرومانيون» ، وبالتالى الإنسان الأوروبى[٩] ولقد احتُفِرَتْ آلات من العصر الحجرى القديم فى سوريا والهند والصين وسيبريا وغيرها من أصقاع آسيا[١٠] كما

(*) واحة إلى الغرب من النيل الأوسط .

عثر عليها « أندرو » وسابقوه من الجزويت فى منغوليا[11] ؛ وكذلك احتُفِرَتْ هياكل لإنسان النياندرتال وأحجار صَوَّانية كثيرة من العهدين « الموستيرى » و « الأورجناسىّ » فى فلسطين ، ولقد رأينا كيف كشف حديثا فى « پيپين » عن أقدم ما نعرفه من بقايا الإنسان وأدواته ، ووجدت آلات من العظم فى نبراسكا ، وأراد بعض العلماء الذين يتأثرون بالروح الوطنية أن يردّوها إلى عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ وكذلك وجدت رءوس سهام فى « أوكلاهوما » وفى المكسيك الجديدة ويؤكد لنا واجدوها أنها صنعت عام ٣٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهكذا تراه جسرا عريضا ذلك الذى نقل عَبْرَه إنسانُ ما قبل التاريخ أسس المدنيَّة إلى زميله الإنسان الذى يظهر فى عصور التاريخ .

الفصل الثالث

الفنون فى العصر الحجرى القديم

الآلات – النار – التصوير – النحت

لو أننا فى هذا الموضع أوجزنا ذكر الآلات التى صنعها إنسان العصر الحجرى القديم ، لصوّرنا لأنفسنا صورة عن حياته أوضح مما لو تركنا لخيالنا الحبل على الغارب ؛ وطبيعى أن يكون أول الآلات حجراً فى قبضة الإنسان ، فكم من حيوان كان فى مستطاعه أن يعلّم الإنسان هذه الآلة ؛ وإذن فقد أصبحت المدية الحجرية المُدَبَّبَةُ فى أحد طرفيها ، والمستديرة فى طرفها الآخر لتلائم قبضة اليد ، أصبحت هذه المدية الحجرية للإنسان البدائى مطرقة وفأسا وإزميلا وكاشطة وسكينا ومنشارا ؛ إلى يومنا هذا ترى الكلمة (الإنجليزية) التى نستعملها لتدل على المطرقة : (hammer) معناها حجر من حيث أصلها اللغوى[2] ثم حدث على مَرّ الأيام أن تنوعت هذه الآلات فى أشكالها حتى بَعُدَتْ عن أصلها المتجانس ، فثقبت الثقوب لتركيب مقبض ، وأُدْخلت الأسنان لتكون الآلة منشارا ، وغرزت فروع فى المدية الحجرية لتصبح مغرازا أو سهما أو حربة ؛ كما أصبح الحجر الكاشط الذى كان يتخذ شكل القوقعة ، مجرافا أو معزاقا ؛ وأما الحجر الخشن الملمس فقد جعلوه مِبْرَداً ، وجعلوا حجر المقلاع أداة للقتال بقيت قائمة حتى اجتاز بها الإنسان عصر المدنيّة الكلاسيكية ذاتها ؛ ولما ظفر إنسان عصر الحجرى القديم بالعظم والخشب والعاج إلى جانب الحجر ، صنع لنفسه مجموعة منوعة من الأسلحة والآلات : صنع الصاقلات والهاونات والفؤوس والصفائح والكاشطات والمثاقب والمصابيح والمدى والأزاميل والشواطير والحراب والسندانات ، وحافرات المعادن والخناجر وأشصاص السمك وحراب الصيد والخوابير والمغاريز والمشابك

وكثيراً غير هذه بغير شك[١٤] ؛ فكان يَعثُرُ في كل يوم على عِلمٍ جديد ، وكان له من قدرته العقلية أحيانا ما يُطوِّرُ به مكتشفات المصادفة إلى مخترعات مقصودة .

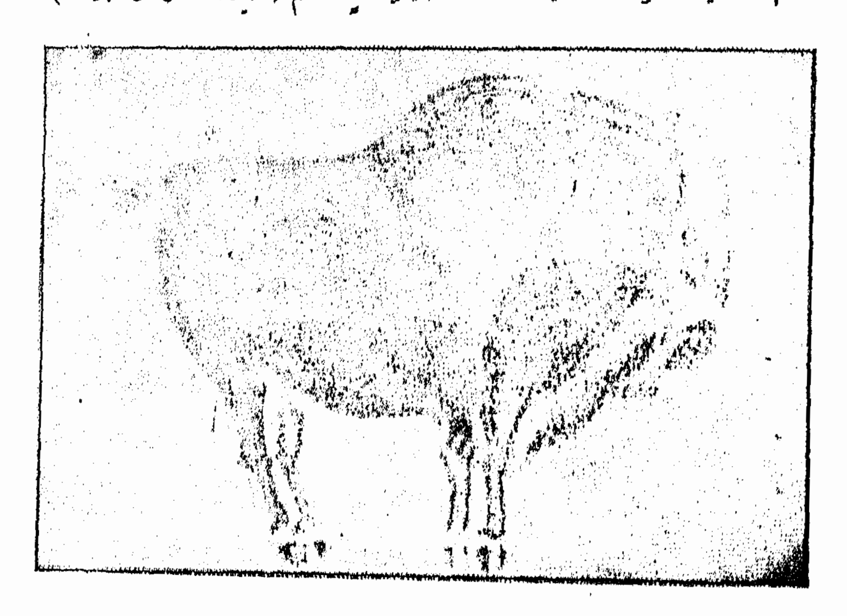
لكن آيته العظمى هي النار ، وفي ذلك أشار « داروِن » إلى أن حِمم البراكين الحار قد يكون هو الذي علّم الإنسان ما النار ؛ ويقول لنا « أسخيلوس »(*) إن « پروميثيوس » صنع النار بإشعاله حَطَبةً في فوهة بركان مشتعل على جزيرة « لمنوس »[١٥] ؛ وبين آثار إنسان النياندرتال قِطَعٌ من الفحم وقطع من العظم المحترق وإذن فالنار التي صنعها الإنسان تذهب في القِدَم إلى أربعين ألف عام مضت[١٦] ؛ وقد أعدّ إنسان « كرو — مانيون » لنفسه آنية خاصة تمسك الشحم الذي كان يشعله ليستضيء بضوئه ، وإذن فالمصباح كذلك له من العمر هذا الزمن الطويل ، والراجح أن تكون النار هي التي مكّنت الإنسان من اتقاء البرد الناشئ عن الجليد الزاحف ؛ وهي التي أتاحت له النوم في الليل آمنا من الحيوان الذي ارتعد لهذه الأعجوبة ارتعادا يَعْدِل عبادة الإنسان البدائي إياها ؛ وهي التي قهرت الظلام فكانت أول عامل من العوامل التي حَدّتْ من الخوف ، والتقليل من خوف الإنسان أحد الخيوط الذهبية في نسيج التاريخ الذي ليست كل خيوطه ذهبا ، وهي التي خلقت فن الطهي القديم الشريف ، فوسعت بذلك من نطاق الأطعمة الصالحة بحيث صلحت آلاف منها للأكل ولم تكن صالحة له من قبل ، وهي التي أدّتْ أخيرا إلى صهر المعادن والتحام بعضها في بعض ، وهو الخطوة الوحيدة الحقيقية التي تقدّمها الإنسان في فنون الصناعة من عهد إنسان « كرو — مانيون » إلى عصر الانقلاب الصناعي[١٧]

وإننا لنروي لك عجبا — وكأنما نرويه لنوضح قصيدة « جوتييه »(**) على

(*) أسخيلوس مسرحي يوناني قديم ، ومن أهم مسرحياته « بروميثيوس » الذي علم الإنسان سر النار [illegible] لآلهة لذلك ، إذ كان هذا السر من علم الآلهة وحدهم (المعرب)

(**) شاعر فرنسي عاش في القرن التاسع عشر ؛ والقصيدة المشار إليها عنوانها « الفن » وهي مترجمة إلى العربية في الجزء الثالث من قصة الأدب في العالم ص ١٤٢ — ١٤٤ (المعرب)

الفن الجبار الذى يحيا بعد فناء الأباطرة وزوال الدول — إننا نروى لك عجبا إذ نقول إن أوضح آثار خلّفها لنا إنسان العصر الحجرى القديم هى قِطَعٌ من فنه ؛ فقد حدث منذ ستين عاما أن وقع « السنيور مارسلينو دى سوتولا » Marceleno de Soutuola على كهف واسع فى مزرعته فى « أَلْتَامِيرا » فى شمال إسپانيا ، وكان هذا الكهف قد لبث آلاف الأعوام مقفل الباب كأنه صومعة راهب ، أقفلته صخور سقطت عليه وأمدّتها الطبيعة بملاط من لدنها حين ربطت بعضها ببعض بأعمدة من رواسب ؛ ثم جاء الإنسان فضرب فى هذا الموضع ضرباته لينشئ لنفسه جديدا ، فإذا به يكشف بضرباته عن مدخل الكهف بطريق المصادفة ؛ ومرت بعدئذ ثلاثة أعوام ثم جاء « سوتولا » ليستطلع الكهف فلحظ على جدرانه علامات غريبة ؛ وذات يوم صحبته ابنته الصغيرة ، ولما لم تكن بذات طول يلزمها الانحناء كما كانت الحال مع أبيها ، فقد صعّدت بصرها نحو السقف تشهد ما فيه ، فرأت تخطيطا غامضا لبَيْزُونٍ ضخم (البيزون هو ثور برّىّ)



صورة بيزون (ثور متوحش)
وجدت فى كهف من العصر الحجرى فى « ألتاميرا » باسبانيا

جميع الرسم ناصع الألوان ؛ فلما فُحص السقف وفُحصت الجدران فحصا دقيقا وجدت صور أخرى كثيرة ، وفى عام ١٨٨٠ نشر « سوتولا » تقريرا عن مشاهداته ، فقابله علماء الآثار بريبة هى من خصائصهم دائماً ؛ وتفضل عليه بعض هؤلاء العلماء بزيارة يفحص فيها تلك الرسوم ، وينتهى بها إلى الإعلان بأن الرسوم زائفة خطّتها يدٌ خادعة ؛ ودام هذا الشك — الذى ليس لأحد أن يعترض عليه مدى ثلاثين عاما ؛ ثم اكتُشِفت رسوم أخرى فى كهوف يُجمع الرأى على أنها من عهد ما قبل التاريخ (مما فيها من آلات صوَّانية غير مصقولة وعظم وعاج مصقولين) فأيدت ما كان وصل إليه « سوتولا » من رأى ، لكن « سوتولا » عندئذ لم يكن على قيد الحياة ؛ وجاء الچيولوچيون إلى « ألْتاميرا » وأقروا بإجماعٍ أدرك الحقيقة بعد أوانها ، أقروا بإجمـاع أن الرواسب التى كانت تغطى بعض الرسوم إنما ترجع إلى العصر الحجرى الأول(١٨) ؛ والرأى السائد الآن هو أن رسوم « ألْتاميرا » — والجزء الأكبر من بواقى الفن التى بقيت لنا من عهد ما قبل التاريخ — ترجع إلى الثقافة المجدلية ؛ أى إلى عهد يقع نحو سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد(١٩) ؛ وكذلك وُجدت رسومٌ أحدث تاريخا من هذه بقليل ، لكنها ما زالت من بقايا العصر الحجرى القديم ، فى كهوف كثيرة فى فرنسا(*) .

وتمثّل الرسوم فى معظم الحالات صنوفا من الحيوان — أوعالا وماموث وجيادا وخنازير ودببة وغيرها ؛ وربما كانت هذه الصنوف عند إنسان ذلك العصر طعاما شهيا ، ولذلك كانت موضع عنايته فى صيده ؛ وأحيانا ترى صورة الحيوان مطعونا بالسهام ، ومن رأى « فريزر » و « ريناخ » Reinach أن أمثال هذه الصور قُصد بها أن تكون رسوما سحرية تأتى بالحيوان فى قبضة الفنان أو الصائد ، وبالتالى تأتى به إلى معدته(٢٠) ومن الجائز أنها رسوم لم يقصد بها إلا

(*) مثل « كومبارل » و « ليزى يز » و « فون دى جون » وغيرها .

إلى الفن الخالص . دفع إليها الإبداع الفنى وما يصاحبه من لذة فنية خالصة ؛ ذلك لأن أغلظ الرسوم كان يكفى لتحقيق غايات السحر ، على حين ترى هذه الصور فى كثير من الحالات قد بلغت من الرقة والقوة والمهارة حداً يوحى إليك بما يحزنك ، وهو أن الفن — فى هذا الميدان على أقل تقدير — لم يتقدم كثيراً فى شوط التاريخ الإنسانى الطويل ؛ فهاهنا الحياة والحركة والفخامة قد عبُّر عنها تعبيراً قوياً أخّاذا بخط واحد جرىء أو خطّين ؛ وهاهنا خط واحد يصور حيواناً حيًّا مهاجماً (أم هل تكون سائر الخطوط قد محاها الزمن ؟) ترى هل تبقى صورة « العشاء الأخير » لـ « ليوناردو » Leonardo أو صورة الادّعاء للرسام « إلجريكو » El Greco كما بقيت رسوم « كرو — مانيون » فتظهر خطوطها وألوانها بعد عشرين ألف عام ؟

إن التصوير فن مُتْرَفٌ ، لايظهر إلا بعد قرون طوال تنقضى فى تطو عقلى وفنى ؛ ولو أخذنا بالنظرية السائدة اليوم (ومن الخطر دائما أن تأخذ بالنظريات السائدة) فالتصوير قد تطور عن صناعة التماثيل ، التى بدأت بتماثيل كاملة ، ثم تطورت إلى تماثيل بارزة على لوحة منحوتة ، وعن هذه جاءت خطوة التصوير بالخطوط والألوان ؛ وإذن فالتصوير عبارة عن نحت نقص بُعْدٌ من أبعاده ؛ والخطوة الوسطى من فن ما قبل التاريخ تراها ممثلة خير تمثيل فى نحت بارز يدهشك بقوة وضوحه ، والنحت تمثالٌ لرجل رامٍ بسهم (أو بحربة) وهو منقوش على الصخور الأورجناسيّة « بلُوسِيلْ » فى فرنسا ؛ وكَشَفَ « لوى بِجوان » Louis Begouen فى كهف « بأرْبِيج » فى فرنسا — بين آثار مجدليّة أخرى عن كثير من المقابض المزخرفة صُنِعَتْ من قرون الأوعال ؛ وأحد هذه المقابض يدل على فن ناضج ممتاز ، كأنما كان الفن عندئذ قد اجتاز أجيالا من التدريب والتطور ؛ وكذلك ترى فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط منذ عهد ما قبل التاريخ — فى مصر وكريت وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا — صوراً لا عدد لها لنساء سمينات

قصيرات تدل إما على عبادة هؤلاء الناس للأمومة ، وإما على تصور الإفريقيين عندئذ للجمال ؛ واستُخرجت من الأرض فى تشكوسلوفاكيا تماثيل حجرية لحصان وحشيٍ ووعل وماموث ، وجدت بين آثار ترجع — على سبيل الشك — إلى سنة ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد[٢٢] .

إن تفسيرنا لسَيْر التاريخ على أنه سَيْرٌ إلى الأمام ، لينهار من أساسه إذا شككنا فى أن هذه التماثيل وهذه النقوش البارزة وهذه الصور — على كثرة عددها — قد لا تكون إلا جزءاً صغيراً جداً من الفن الذى عَبَّرَ به الإنسان البدائى عن نفسه ، أو الذى زَيَّنَ به حياته ؛ إن ما بقى لنا كله فى كهوف ، حيث عَزَّ على عوامل المناخ أن تتسلَّلَ إليها فتفسدها ، ولكن ذلك لايقتضى أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن فنانا إلا حين سكن الكهوف ؛ فربما نحتوا فى كل مكان كما يفعل اليابانيون ، وربما أكثروا صناعة التماثيل مثل اليونان ، وربما لم يقتصروا فى تصويرهم على صخور الكهوف ، بل صوروا كذلك رسومهم على أقمشه وخشب وعلى كل شىء آخر — غير مستثنين أجسامهم ؛ ربما أبدعوا فى الفن آيات تفوق بكثير هذه القطع التى بقيت لنا ؛ ففى أحد الكهوف وجدنا أنبوبة مصنوعة من عظم الوعل وملآنة بمادة ملوِّنة لجلد الإنسان[٢٣] ؛ وفى كهف آخر وجدنا لوحة مصور فنان مما يوضع عليه الألوان عند التصوير ، ووجدناها لا تزال تحمل على سطحها طلاء مَغْرَة (تراب حديدى) أحمر ، على الرغم من مائتى قرن مضت عليه[٢٤] ؛ فالظاهر أن الفنون بلغت درجة عالية من التطور ، واتسع نطاقها بين الناس منذ ثمانية عشرة ألف عام ؛ فيجوز أن قد كان بين أهل العصر الحجرى القديم فنانون محترفون ، ويجوز أن قد كان بينهم كذلك همجٌ متأخرون يتضورون جوعا ويسكنون الكهوف الحقيرة ، حيث ينكرون الطبقات الغنية من التجار ، ويتآمرون على قتل المجامع العلمية ، ويصنعون بأيديهم أشياء وصلت إلينا فأصبحت تُحَفا ؛

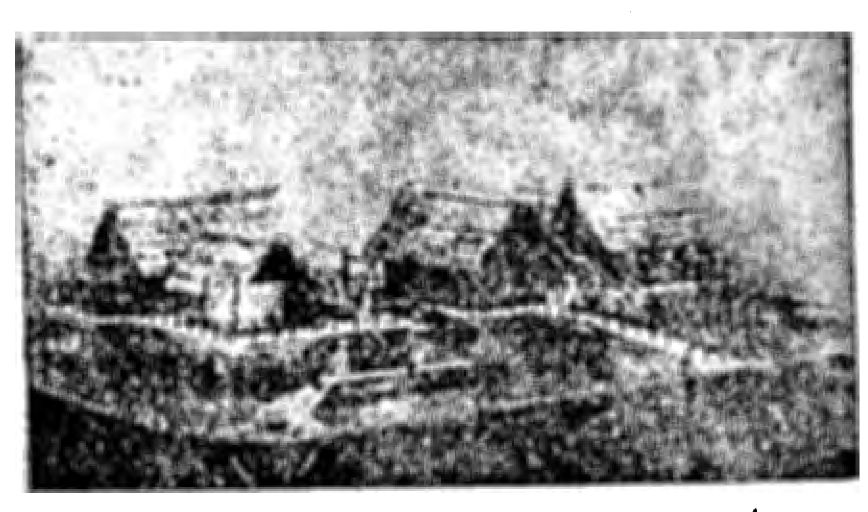
الفصل الرابع

ثقافة العصر الحجرى الحديث

فضلات المطبخ – سكان البحيرة – ظهور الزراعة – استئناس الحيوان – الأساليب الفنية – النسيج فى العصر الحجرى الحديث – صناعة الخزف – البناء – النقل – الدين – العلم – موجز لما تم فيما قبل التاريخ من تمهيد للمدنية

حدث فى فترات مختلفة من القرن الأخير أن وُجِدت أكداس هائلة مما يرجح أنه من فضلات ما قبل التاريخ ، وجدت فى فرنسا وساردينيا والبرتغال والبرازيل واليابان ومنشوريا ، ثم وُجدت فوق ذلك كله فى الدانمركه حيث أطلق عليها هذا الاسم العجيب « فضلات المطبخ » الذى أصبحت تعرف به أمثال هذه الأكداس من آثار القديم ؛ وتتألف أكداس الفضلات هذه من قواقع ، خصوصا قواقع المحار وبلح البحر وحلزون البحر ، ومن عظام كثير من الحيوانات البرية والبحرية ، ومن آلات وأسلحة صنعت من العظم والقرن والحجر غير المصقول ، ومن بقايا أرضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ؛ وهذه الآثار التى لا تأخذ العين بجمالها – دلائل واضحة على ثقافة تكونت فى تاريخ يقع حول سنة ثمانية آلاف قبل الميلاد ؛ وهو تاريخ أحدث من العصر الحجرى القديم بالمعنى الدقيق ، لكنه كذلك لا يبلغ من الحداثة أن يكون من العصر الحجرى الحديث ، لأنه لم يكن قد وصل بعد إلى عصر استخدام الحجر المصقول ؛ ولا نكاد نعلم شيئا عمَّن خلَّفوا لنا هذه الآثار ، سوى أن ذوقهم كان أصيلا إلى حد ما ؛ ويمكن اعتبار « فضلات المطبخ » – بالإضافة إلى ثقافة « مادزيل » Mas d'azil فى فرنسا ، وهى أقدم من الفضلات قليلا – ممثلة لعصر حجرى وسيط ، هو بمثابة مرحلة انتقال بين العصرين الحجريين القديم والحديث :

وفى عام ١٨٥٤ حيث كان الشتاء من الجفاف بدرجة خارقة للمألوف ، هبط مستوى الماء فى البحيرات السويسرية ، فكشف عن عصر آخر من عصور ما قبل التاريخ ؛ فوجدت أكوام فيما يقرب من مائتى موضع فى هذه البحيرات ؛ ووجد أن هذه الأكوم ظلت مكانها تحت الماء زمنا يتراوح بين ثلاثين قرنا وسبعين ؛ ولقد كانت تلك الأكوام مصفوفة



صورة أكملها المصور بخياله للمنازل التى بقيت آثارها تحت ماء البحيرات السويسرية من عصور ما قبل التاريخ

على نحو يبيِّن أن قد شيدت فوقها قُرًى صغيرة ، وربما شيدت هناك رغبة فى العزلة أو فى الدفاع ؛ وأن كل قرية كانت تتصل باليابس بجسر ضيق لم تزل آساس بعضها فى أماكنها ؛ وكانت قوائم المنازل نفسها ما تزال باقية هنا وهناك ، لم تُزِلْها الأمواه بفعلها الدءوب(*) وبين هذه الخرائب الباقية وجدت آلات من العظم والحجر المصقول الذى أصبح

(*) وجدت مساكن فى البحيرات شبيهة بهذه الدور ، فى فرنسا وإيطاليا وسكتلنده والروسيا وأمريكا الشمالية والهند وغيرها ؛ ولا تزال قرى كهذه موجودة فى بورنيو وسومطره وغينا الجديدة وغيرها(٢٦) والذى أطلق على فنزويلا اسم « البندقية الصغيرة » هو « ألونسو دى أوجدا » الذى استكشفها من الأوربيين (سنة ١٤٩٩) فوجد أن أهلها يعيشون فى مساكن على هيئة الأكوام فى بحيرة ماراسيبو(٢٧)

فى رأى علماء الآثار علامة مميزة للعصر الحجرى الجديد الذى ازدهر حول سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد فى آسيا، وحول سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد فى أوروبا[٢٨]: وشبيه بهذه الآثار ما تركه الجنس البشرى العجيب الذى نسميه باسم «بُنَاة الجبال» من بقايا هائلة ضخمة فى وديان المسسبى وفروعه ؛ ولسنا ندرى عن ذلك الجنس من أجناس البشر إلا أنه فى هذه الجبال التى بنوها وتركوها على هيئة مذابح القربان أو على أشكال هندسية مختلفة أو على هيئة حيوانات الطوطم ، وُجدت أشياء صنعوها من حجر وقوقع وعظم ومعدن مطروق ، مما يضع هؤلاء الناس الملغزين فى خاتمة العصر الحجرى الجديد :

فلو حاولنا أن نلفّق صورة من هذه الأشتات الأثرية عن العصر الحجرى الجديد ، لرأينا فى الصورة على الفور خطوة جديدة خطاها الإنسان ، تثير فيك الدهشة عند رؤيتها ، ألا وهى الزراعة ؛ إنك تستطيع أن تقول إن التاريخ الإنسانى كله — بمعنى من معانيه — يدور حول انقلابين : الانقلاب الذى حدث فى العصر الحجرى الحديث فنقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة ، والانقلاب الذى حدث أخيرا فنقله من الزراعة إلى الصناعة ؛ ولن تجد فيما شهد الإنسان من ضروب الانقــلاب ما هو حقيقى أساسىّ كهذين الانقلابين ؛ فالآثار تدلنا على أن « سكان البحيرة » كانوا يأكلون القمح والذرة والجويدار والشعير والشوفان ، فضلا عن مائة وعشرين نوعا من أنواع الفاكهة ، وأنواع كثيرة من البندق[٢٩] ؛ ولم نجد فى هذه الآثار محراثا ، ويجوز أن تكون علة ذلك هى أن سنان المحاريث كانت تصنع من خشب ، فيُدَقّ جذع شجرة إلى فرع بمسمار من حجر الصَّوان ؛ لكن نقشا محفورا على الصخر من العصر الحجرى الحديث يدل دلالة لا يأتيها الشك على أنها صورة فلاح يسوق محراثا يَشُدُّه ثوران[٣٠] وهذا يحدد لنا اختراعا جاء بمثابة بداية لعصر جديدة من عصور التاريخ ؛ إن الأرض قبل أن تدخلها الزراعة كان فى مستطاعها أن تهيئ أسباب العيش لمـا يقرب من عشرين مليونا من

الأنفس البشرية (فى تقدير سير آرثر كيث غير الدقيق) ، وحياة هؤلاء الملايين العشرين كانت معرضة لموت سريع بسبب الصيد والحرب[31] ، أما بعد الزراعة فقد بدأ تكاثر الناس تكاثراً أيّدَ سيادة الإنسان على الأرض سيادة مكينة لا شك فيها .

وفى الوقت نفسه كان أهل العصر الحجرى الحديث يقيمون أساسا آخر من أسس الحضارة ، وهو استئناس الحيوان وتربيته ؛ ولاشك أن قد استغرق هذا العمل حينا طويلا من الدهر ، قد تكون بدايته أسبق تاريخا من العصر الحجرى الحديث ؛ فحب الإنسان بغريزته للاجتماع بغيره ربما كان عاملا مساعدا على اتصال الإنسان والحيوان ، كما لا نزال نرى علائم ذلك واضحة فى فرحة البدائيين بتدريب الوحوش المفترسة ، وفى ملء أكواخهم بالقردة والببغاوات وأمثالها من سائر الزملاء[32] وأقدم العظام فى آثار العصر الحجرى الحديث (حوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد) هى عظام الكلب — الذى هو أقدم زملاء الجنس البشرى عهدا وأشرفها خلقا ؛ ثم جاءت بعد ذلك (حوالى ٦٠٠٠ قبل الميلاد) الماعز والخروف والخنزير والثور[33] وأخيرا جاء الحصان الذى لم يكن عند أهل العصر الحجرى القديم إلا حيوانا يصاد ، إذا حكمنا من الرسوم التى فى الكهوف ؛ أما فى هـــذا العصر الحجرى الحديث فقد أخذه الناس إلى حيث يسكنون واستأنسوه وجعلوا منه عبداً محبباً إلى نفوسهم[34] إذ استخدموه على شتى الصور ليزيد من ثروة الإنسان وفراغه وقوته ؛ وهكذا أخذ هذا الإنسان الذى بسط سيادته على الأرض آخر الأمر ، فى الإكثار من موارد طعامه بتربية الحيوان إلى جانب صيده له ؛ وربما عرف الإنسان كذلك فى هذا العصر الحجرى الحديث نفسهُ — كيف يستخدم لبن البقرة طعاماً .

وأخذ المخترعون فى العصر الحجرى الجديد شيئاً فشيئاً يوسّعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا نرى بين مخلّفاتهم بَكَرات ورافعات ومُرْهِفات ومغارز

وملاقط وفؤوساً ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج وإبرا ومشابك صدْر ودبابيس[٣٥] ثم هاهنا فوق هذا كله ترى العجلة ، وهى مخترع آخر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورة متواضعة من ضرورات الصناعة والمدنيَّة ؛ فهى فى هذه المرحلة من العصر الحجرى كانت قد تطورت إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ؛ وكذلك استعملوا كل صنوف الحجر فى هذه المرحلة — حتى العصِىّ منها كالحجر الزجاجى الأسود — فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتُفِرت الصوّانات على نطاق واسع ؛ فوجدت فى أحد محافر العصر الحجرى الحديث ، فى مدينة براندُن بانجلترا ، ثمان حافرات من قرن الغزال ، ورؤيت على أسطحها المعفّرة بصمات العمّال الذين وضعوها هناك منذ عشرة آلاف من السنين ؛ وفى بلچيكا كشف عن هيكل عظمى لعامـل من عمال المناجم فى العصر الحجرى الحديث ، سقط عليه حجر فأرداه ، كُشف عنه ولا تزال الحافرة فى قبضة يده[٣٦] فعلى الرغم من مائة قرن تفصلنا عنه ، نحسّ كأنه واحد منا ونشاطره بخيالنا الضعيف فزَعَه وآلامه ؛ فكم من آلاف السنين قضاها الإنسان وهو يمزّق أحشاء الأرض يستخرج الأسس المعدنية التى قامت عليها المدنيَّة !

فلما أن صنع الإنسان الإبر والدبابيس ، بدأ ينسج ، أو إن شئت فقل إنه لما بدأ ينسج حرّكته الضرورة إلى صناعة الإبر والدبابيس ؛ ذلك أن الإنسان لم يعد يرضيه أن يدثّر نفسه بفراء الحيوان وجلوده ، فنسج صوف خرافه وألياف النبات أردية كانت هى أساس الثوب الذى يلبسه الهندوسىّ ، والشمْلة التى كان يلبسها اليونانى ، والثوب الذى يغطى أسفل الجسم الذى كان يرتديه المصرى ؛ وسائر الصنوف الخلابة التى تراها فى الثياب عند الإنسان ، ثم اصطنع الناس صبغة استخرجوها صنوفا من أخلاط عصير النبات أو مستخرجات الأرض ، وصبغوا بها الثياب لتكون علامة ترف ينفرد بها الملوك ؛ والظاهر أن الإنسان

أول ما نسج جعل يضفر الخيوط على نحو ما يضفر القشّ بأنه يجدل خيطا مع خيط ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى ثقْب جلود الحيوان وربطها من هذه الثقوب بألياف غليظة تتخللها ، كالمِشدّات التى كان يستعملها النساء حديثاً ، وكالأحذية التى نلبسها اليوم ؛ ثم أخذت الألياف تتهذب تدريجاً حتى أصبحت خيط ، وعندئذ أصبحت الحياكة من أهم الفنون عند المرأة ؛ فالمغازل التى بين آثار العصر الحجرى الحديث تكشف عن أصل من الأصول العظمى للصناعة الإنسانية بل إنك لتجد فى هذه الآثار حتّى المرايا[٣٧] ، وإذن فقد أصبح كل شىء مُعَدّاً للمدنيّة .

ولم نجد آثاراً خزفية فى قبور الجزء الأول من العصر الحجرى العظيم ، وإنما ظهرت منه قِطَع قليلة فى آثار الثقافة المجدلية فى بلچيكا[٣٨] ؛ لكنه العصر الحجرى الحديث الذى خلّفَ لنا « فضلات المطبخ » هو الذى نجد فى آثاره خزفاً على شىء من التقدم فى الصناعة ؛ ونحن بالطبع لا نعلم كيف نشأت هذه الصناعة ؛ فيجوز أن قد لاحظ الإنسان البدائى أن الفجوة التى تصنعها قدمه فى الطين ، كانت تحتفظ فى جوفها بالماء دون أن يتسرب[٣٩] ؛ ويجوز أن قد شاءت المصادفة أن تلقَى قطعة من الطين إلى جانب نار موقدة فتجف ، فتوحى بجفافها هذا إلى الإنسان الأول بالفكرة التى أفرزت فى النهاية هذا المخترع ، وكشفت له عما يمكنه استغلاله من هذه المادة التى توجد بكثرة ، والتى تطاوع يده فى تشكيلها ، والتى يسهل تجفيفها فى النار أو الشمس ؛ ولا شك فى أن الإنسان قد لبث آلاف السنين يحفظ طعامه وشرابه فى آنية طبيعية كهذه ، إلى جانب كؤوس القَرْع وجوز الهند وقواقع البحر ؛ ثم صنع لنفسه أقداحاً ومغارف من الخشب أو الحجر ، كما صنع السلال والمقاطف من الحلْفاء والقش ، وهاهو ذا قد صنع لنفسه كذلك آنية أدوم بقاء من الطين المجفف وبه ابتدع مخترعا جديداً يُعَدّ من أعظم الصناعات التى عرفها الإنسان ، لكن إنسان العصر الحجرى

الجديد لم يعرف عجلة الخزّاف ، فيما تدل الآثار الباقية لنا ؛ إنما صنع بيديه هذا الطين أشكالا ذات جمال ونفع فى آل معاً ؛ وزخرف الآنية برسوم ساذجة(٤٠) وهكذا جعل صناعة الخزف منذ بدايتها تقريباً لا تقف عند حد كونها صناعة فحسب ، بل جعل منها فنًّا كذلك .

وهاهنا كذلك نجد العلامات الأولى لصناعة أخرى من كبرى الصناعات الأولى : صناعة البناء ؛ فإنسان العصر الحجرى القديم لم يخلّف لنا أثراً كائناً ما كان لمسكن غير الكهوف ؛ حتى إذا ما بلغنا العصر الحجرى الحديث ، ألفينا بعض وسائل البناء مثل السلّم الخشبىّ والبكرة والرافعة والمفصلة(٤١) ؛ فقد كان « سكان البحيرة » نجارين مهرة يربطون أعمدة الخشب إلى أساس البناء بخوابير ثابتة من الخشب ؛ أو يصلونها وهى موضوعة رأساً لرأس ، أو يزيدونها قوة بدقّ عوارض تتطلب معها على الجوانب ؛ وكانت أرضيّة الغرفة عندهم من الطين ، وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين ، والسقف من اللحاء والقش والحلفاء والغاب ؛ ثم بمعونة البكرة والعجلة استطاع الإنسان أن ينقل مواد البناء من مكان إلى مكان ، وبدأ فى وضع آساس ضخمة من الحجر لقُراه ؛ وكذلك أصبح النقل صناعة من الصناعات ، فصُنِعت الزوارق التى لابد أن تكون قد ملأت البحيرات حركة ؛ ونُقِلت التجارة عبر الجبال وإلى القارات البعيدة(٤٢) ، وأخذت أوروبا تستورد من البلاد النائية أحجاراً نادرة كالعنبر والبَشْم والحجر الزجاجى الأسود(٤٣) وإنك لتجد فى أصقاع مختلفة من الأرض تشابها فى كلمات أو حروف أو أساطير أو خزف أو رسوم ، مما يدلك على ما كان بين جماعات البشر قبل التاريخ من اتصال ثقافى(٤٤)

ولو استثنيت الخزف ، وجدت أن العصر الحجرى الجديد لم يخلّف لنا فنا نستطيع مقارنته إلى ما كان عند إنسان العصر الحجرى القديم من تصوير وصناعة تماثيل ؛ فهنا وهناك بين مشاهد الحياة فى هذا العصر الحجرى الحديث ،

من إنجلترا إلى الصين ، ترى أكواما مستديرة من الحجر ، أو أعمدة قائمة أو آثاراً ضخمة من البناء لا نعرف الغاية من بنائها ، كالتى تراها فى « ستُونْهِـنْج » أو « موربهان » ، والراجح أننا لن نعرف معنى هذه الآثار البنائية أو وظائفها ، وربما كانت بقايا مذابح للقرابين أو معابد[٤٥] ذلك لأن إنسان العصر الحجرى الجديد لابد أن قد كانت له ديانات وأساطير يصوّر بها ما يعتور الشمس كل يوم من مأساة ونصر ، وما تصيب التربة من موت وبعث ، كما يصور بها تأثير القمر تأثيراً عجيباً على الأرض ، إنه ليستحيل علينا أن نفهم عقائد الإنسان فى عصور التاريخ بغير افتراض أصول كهذه تمتد إلى ما قبل التاريخ[٤٦] ؛ ويجوز أن يكون ترتيب الأحجار فى هذه الأبنية نتيجة لاعتبارات فلكية ، ويدل على معرفتهم بالتقويم — كما يظن « شنيدر » Shneider[٤٧] ، وكان للناس فى ذلك العصر أيضاً بعض المعرفة العلمية ، لأن بعض الجماجم من العصر الحجرى الجديد وجدت بها آثار تَرْبَنَة ، وبعض الهياكل العظيمة فيها أعضاء يظهر أنها كُسِرَت ثم جُبِرَت[٤٨]

ليس فى وسعنا أن نقدر ما أدّاه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديراً تاماً ، لأننا من جهة لا ينبغى أن ننساق وراء الخيال فى تصوير حياتهم بحيث نجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشكّ من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثاراً لو بقيت لضيّقَتْ مسافة الخُلْف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث ، ومع ذلك فما قد بقى لنا من أدلة على خطوات التقدم التى خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفى وحده لتقديره : فحسبنا ما تم فى العصر الحجرى القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقدم الفنون ، وحسبنا ما ظهر فى العصر الحجرى الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب . وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يَعُدْ منازَعاً فيها ، والتوسع فى عمرانها بأبناء الجنس البشرى ؛ هكذا وُضعت للمدنيّة كل آساسها ؛ كل شىء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ؛ فهيأ للإنسان سبيلا لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنيّة .

الفصل الخامس

مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية

١ – ظهور المعادن

النحاس – البرونز – الحديد

متى وكيف بدأ الإنسان استخدام المعادن؟ لسنا ندرى ، نقولها هنا مرة أخرى ؛ وكل ما نستطيعه هو أن نقول على سبيل الظن إنه بدأ بفعل المصادفة ، ونفترض أن قد كانت بداية ذلك فى نهاية العصر الحجرى الحديث ، ويؤيدنا فى ذلك عدم ظهوره فيما وجدناه من آثار العصور السابقة لذلك التاريخ ؛ فلو حددنا هـــذا التاريخ بسنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، أبصرنا أمامنا صورة لعصر المعادن (والكتابة والمدنيّة) لا تمتد إلى أكثر من ستة آلاف عام ، نراها بمثابة الذيل الصغير الذى أعقب عصراً حجرياً امتد على وجه الدهر أربعين ألف عام على أقل تقدير ، أو أعقب عمراً طويلا عاشه الإنسان مداه مليون عام(*) ؛ ألا ما أحدث العهد الذى يدوّنه لنا التاريخ .

كان النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان فيما نعلم ؛ فنجده فى مسكن من « مساكن البحيرة » عند « روبنهاوزن » فى سويسره ، ويرجع ذلك إلى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً[٤٩] ونجده أيضاً فى أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع إلى سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا ؛ ثم نجده فى مقابر البدارى فى مصر ، ويرجع عهده إلى ما يقرب من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجده كذلك فى آثار « أور » التى ترجع إلى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد

(*) ذلك إذا وافقنا على أن « إنسان بكين » يرجع إلى بداية العصر البليستوسينى .

تقريباً ، وفى آثار « بناة الجبال » فى أمريكا الشمالية ، التى ترجع إلى عصر لانستطيع تحديده(٥٠) وليست نقع بداية عصر المعادن عند تاريخ اكتشافها ، بل يبدأ ذلك العصر بتحوير المعادن بوساطة النار والطَّرْق بحيث تلائم غايات الإنسان ؛ ويعتقد علماء المعادن أن أول استعدان للنحاس من مناجمه الحجرية جاء بفعل المصادفة حين أذابت نارٌ أوقدها الناس ليستدفئوا ، نحاساً كان لاصقاً بالأحجار التى أحاطوا بها النار ؛ ولقد لوحظت أمثال هذه المصادفة مرارا فى اجتماعات البدائيين حول نارهم فى عصرنا هذا ؛ ومن الجائز أن تكون هذه الحادثة العابرة هى التى أدت بالإنسان الأول فى نهاية الأمر - بعد تكرارها مرات كثيرة - ذلك الإنسان الذى لبث أمدا طويلا لايساوره القلق فى استعمال الحجر الأصم الصليب ، أن يجعل من هذه المادة المرنة عنصرا يتخذ منه آلاته وأسلحته ، لأنها أيسر من الحجر صياغة وأدوم بقاء(٥١) ؛ والأغلب أن يكون المعدن قد استعمل بادئ ذى بدء بالصورة التى قدمته عليها يد الطبيعة ، وإنها لَيَدٌ فيها سخاء وبها إهمال فى آن واحد ؛ فكان نقيا حينا ، مشوبا فى معظم الأحيان ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل - وربما كان ذلك حول سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد - فى المنطقة التى تحيط بالطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، أن وقع الناس على فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها ؛ ثم بدءوا فى صبِّها نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد (كما تدل على ذلك النقوش البارزة فى مقبرة رخ - مارا فى مصر) ؛ فكانوا يصبّون النحاس المصهور فى إناء من الطين أو الرمل ، ثم يتركونه يبرد على صورة يريدونها ، مثل رأس الرمح أو الفأس(٥٢) ؛ فلما أن كشف الإنسان عن هذه العملية فى النحاس ، استخدمها فى مجموعة منوّعة من المعادن الأخرى ؛ وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبنى أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة ، وتهيأ له الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء ؛ ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس فى شرقى البحر الأبيض المتوسط

هى التى سبَّبَتْ قيام ثقافات جديدة قوية فى الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، فى « عيلام » و « ما بين النهرين » ومصر ، ثم امتدت من هاتيك الأصقاع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدّلتها حالا بعد حال[٥٣] .

غير أن النحاس وحده ليِّنٌ ، فهو على الرغم من شدة صلاحيته للتشكيل مما ينفع فى تحقيق طائفة من أغراضنا (ماذا كان يصنع عصرنا الكهربائى بغير نحاس ؟) إلا أنه أضعف من أن يحتمل مهام السلم والحرب التى تتطلب معدنا أقوى ؛ لهذا كان لابد من عنصر آخر يضاف إلى النحاس ليشدّ من صلابته ، ورغم أن الطبيعة قد أشارت إلى الإنسان بما عسى أن يضيفه إلى النحاس لهذه الغاية من مواد كثيرة الأنواع ، بل إن الطبيعة كثيراً ما قدمت له نحاسا تم بالفعل خلطه واشتدت صلابته بما فيه من قصدير وزنك ، مكوِّنةً بذلك برونزا طبيعيا أو نحاسا أصفر ، على رغم هذه المعونة من الطبيعة ، فقد لبث الإنسان — فيما نظن — قرونا قبل أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الصدد ؛ وأعنى بها خلط معدن بمعدن خلطا مدبَّرا مقصودا للحصول على مركبات أصلح لأغراضه ؛ وعلى كل حال فهذا الكشف قد اهتدى إليه الإنسان منذ خمسة آلاف عام على أقل تقدير لأننا وجدنا البرونز بين الآثار الكريتية التى ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وفى الآثار المصرية التى ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، وفى ثانى مدن طرواده سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد[٥٤] ؛ فلم يعد — إذن — فى وسعنا أن نتحدث عن « عصر البرونز » بمعنى الكلمة الدقيق ، لأن هذا المعدن قد ظهر لشعوب مختلفة ، فى عصور مختلفة ، وإذن فعبارة « عصر البرونز » ليس لها معنى زمنى تؤديه[٥٥] أضف إلى ذلك أن بعض الثقافات الإنسانية قد عَبَرَ مرحلة البرونز لم يَخْطُها ، بل وثب رأسا من عصر الحجر إلى عصر الحديد ، كما هى الحال فى ثقافات فنلنده وشمال روسيا وپولنيزيا وأفريقيا الوسطى وجنوب الهند وشمال أمريكا واستراليا واليابان[٥٦] ؛ بل إن الثقافات التى ظهرت فيها مرحلة البرونز ، لم يحتل فيها هذا

المعدن إلا مكانة ثانوية ، باعتباره تَرَفاً يتمتع به الكهنة وعِلْيَةُ الناس والملوك ، على حين ظل غمار الشعب مرغما على الوقوف عند مرحلة الحجر لا يجاوزها[٥٧] وحتى عبارتا « العصر الحجرى القديم » و « العصر الحجرى الحديث » فهما نسبيتان إلى حد كبير ، وتصفان صورا من الحياة أكثر مما تحددان أزماناً وعصورا فإلى يومنا هذا يعيش كثير من الشعوب البدائية فى عصرنا الحجرى (مثل الإسكيمو وسكان جزاير پولنيزيا) لا يعرفون الحديد فى حياتهم إلا على أنه تَرَفٌ يجيئهم به الرحّالة المستكشفون من خارج ؛ فعندما أرسى « الكابتن كوك » سفنه فى زيلندة الجديدة سنة ١٧٧٨ ، اشترى بضعة خنازير بمسمار ثمنه ستة بنسات (قرشان ونصف قرش) ، ووصف رحّالة آخر سكان « جزيرة الكلب » بأنهم « فى حاجة نَهِمَةٍ للحديد ، حتى لتحدثهم أنفسهم أن ينتزعوا المسامير من السفن »[٥٨]

ولئن كان البرونز قوياً شديد الاحتمال ، إلا أن النحاس والقصدير اللازمين لصناعته لم يكونا من الكثرة فى الكمية أو فى أماكن وجودهما بحيث يجد الإنسان حاجته من أجوده صنفاً لشئون الصناعة والحرب ؛ فكان لابد للحديد أن يظهر عاجلا أو آجلا ؛ وإنه لمن متناقضات التاريخ ألا يظهر الحديد — على وفرته — إلا بعد أن ظهر النحاس والبرونز ؛ وربما بدأ الناس استخدام الحديد بصناعة الأسلحة من حديد الشُّهُب ، كما قد صنع « بُنَاةُ الجبال » — فيما يظهر — وكما يفعل بعض البدائيين حتى يومنا هذا ؛ ويجوز أن يكون الناس قد عقّبوا على ذلك بإذابة المعدن من منجمه بوساطة النار ، ثم طرقوه إلى حديد مشغول ؛ ولقد وجدنا ما يشبه أن يكون حديداً شهابياً فى المقابر المصرية قبل عهد الأسرات المالكة ؛ وتذكر النقوشُ البابليةُ الحديدَ على أنه سلعة نادرة ثمينة فى عاصمة حمورابى (٢١٠٠ قبل الميلاد) ؛ وكشفنا عن مَسْبَك للحديد قد يرجع عهده إلى أربعة آلاف عام ، فى روديسيا الشمالية ، كما أن استنجام الحديد فى جنوب أفريقيا

ليس وليد العصور الحديثة ؛ وأقدم حديد مشغول مما نعرف ، مجموعةٌ من المُدَى وُجِدَتْ فى « جيرار » فى فلسطين ، حَدَّدَ « پترى » تاريخها بسنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ؛ ثم ظهر الحديد بعد ذلك بقرن كامل فى مصر ، فى عهد الملك العظيم رمسيس الثانى ؛ وبعد ذلك بقرن آخر من الزمان ، ظهر فى جزر بحر إيجه ؛ وأما فى غرب أوروبا فقد ظهر فى « هولستات » Holistatt بالنمسا حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، كما ظهر فى صناعة مدينة « لاتين » La Tène فى سويسرا حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وقد عرفته الهند حين أدخله فيها الإسكندر ، وعرفته أمريكا على يدى كولمبس ، كما عرفته أوشيانيا بفضل « كوك »(٥٩) ؛ وبهذه السرعة الوئيدة الخطى ، طفق الحديد ، قرناً بعد قرن ، يطوف بالعالم ليغزوه .

٢ - الكتابة

أصولها الخزفية الممكنة - « رموز البحر الأبيض المتوسط » - الكتابة الهيروغليفية - أحرف الهجاء

لكن أوسع خطوة خطاها الإنسان فى انتقاله إلى المدنيَّة هى الكتابة ؛ فى قطع من الخزف هبطت إلينا من العصر الحجرى الثانى ، خطوطٌ مرسومة بالألوان فسَّرها كثير من الباحثين على أنها رموز(٦٠) ؛ وقد يكون هذا موضعاً للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة - بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبّر عن أفكار - قد بدأت بعلاماتٍ مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو ليِّن ؛ بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفاً ؛ ففى أقدم كتابة هيروغليفية فى « سومر » توحى صورة الطائر بأوجُه شبه بينها وبين الزخارف الطائرية الموجودة على أقدم الآثار الخزفية عند « سوزا » فى « عيلام » ، كذلك أقدم صورة للغلال مما استُخدم فى الكتابة التصويرية ؛ نقلَتْ رأساً من الزخارف الغلالية الهندسية الأشكال فى « سوزا » و « سومر » ؛

والأحرف المستقيمة الخطوط التى ظهرت بادئ الأمر فى « سومر » حول سنة ٣٦٠٠ ق . م إن هي – فيما يظهر – إلا صورة مختصرة من الرموز والرسوم المصورة أو المطبوعة على الخزف البدائى فى الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين أو فى « عيلام » (١٦٠) ؛ وإذن فالكتابة – شأنها شأن التصوير والنحت – قد تكون فى نشأتها فناً خزفياً إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم ؛ وبذلك تكون الطينة نفسها التى استحالت فى يد الخزّاف آنية ، وفى يد النحات تماثيل ، وفى يد البنّاء آجُرًّا ، قد هيأت للكاتب مادته التى يخطّ عليها كتابته ؛ وطريق التطور من هذه البداية إلى الكتابة المسمارية فى بلاد ما بين النهرين ، منطقىُّ المراحل مفهوم التدرّج .

وأقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا هى تلك التى وجدها « فِلِنْدَرز بِتْرى » Flinders Petrie على قطع الفخار وآنيته وعلى قطع من الحجر ، مما كَشَفَ عنه فى مقابر ما قبل التاريخ ، فى مصر وإسبانيا والشرق الأدنى ، ولقد حَدَّدَ عمرها بسخائه المعهود فى تقدير الأعمار ، بسبعة آلاف عام ؛ وهذه الرموز الكتابية التى وجدت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ، معظمها متشابه فى جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفى البحر الأبيض المتوسط فى عهد يرجع فى التاريخ إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ولم تكن هذه الرموز صوراً ، بل كان معظمها علامات تجارية – علامات تدل على المِلْكية والكمية أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجارى ؛ فلئن كان هذا الأصل المتواضع مما يؤذى الطبقة الوسطى من الأغنياء، فإن لهم ما يعزّيهم فى أن الأدب قد اشتقّ أصوله من « فواتير » الحساب ومن شحنات المراكب ؛ ولم تكن العلامات حروفاً ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية ؛ ويستنتج « بِترى » من ذلك أن « مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً فى العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى

قطر ... حتى كتب النصر لنحو ستة رموز ، فأصبحت مِلكا مشاعاً لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التى اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت فى عزلتها شيئاً فشيئاً »(٦١) والنظرية القائلة بأن هذه العلامات الرمزية هى أصل الأحرف الهجائية ، جديرة بالاهتمام ، وهى نظرية امتاز الأستاذ « پترى » بأنه يعتنقها دون سائر العلماء(٦٢).

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموزية التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنبا إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم والتصوير ، وكان يعبّر بالصور عن فكر متصل ، ولا تزال صخور بالقرب من البحيرة العليا (بحيرة سوپيرير) تحمل آثاراً من الصور الغليظة التى استخدمها هنود أمريكا فى روايتهم لقصة عبورهم هـذه البحيرة الجبارة رووها للخاف ، أو ربما رووها لزملائهم ، روايةً يعبّرون فيها عن زهوهم بما صنعوا(٦٣) ؛ كذلك يظهر أن تطوراً كهذا نَقَلَ الرسم إلى كتابة فى أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط عند نهاية العصر الحجرى الحديث ؛ ويقيناً أنه ما جاءت سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد — وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل — حتى كانت « عيلام » و « سومر » ومصر قد طوّرتْ مجموعة من الصور التى يعبّرون بها عن أفكارهم ، وأطلقوا عليها اسم « الكتابة الهيروغليفية » لأن معظم من قام بها كان من الكهنة(٦٤) وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك ، فى كريت حول سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التى تمثل كلُّ صورة منها فكرة ، كيف استحالت بخطأ الاستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفى ، إلى مقاطع . أعنى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ؛ ثم كيف استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات . وبهذا أصبحت حروفاً ؛ وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد فى التاريخ إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد فى مصر ، وأما فى كريت فقد ظهرت

حول سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد[٦٥] ؛ إن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ، ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء ؛ فقد أخذوها – فيما نظن – من مصر وكريت[٦٦] وأدخلوها جزءاً جزءاً فى « صور » و « صيدا » و « بيبلوس» Byblos ، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا سماسرة لأحرف الهجاء يأخذونها من أصحابها ليذيعوها ، ولم يكونوا مبدعيها حتى إذا ما كان عصر هومر ، كان اليونان يأخذون هذه الأحرف الفينيقية – أو قُلْ الأحرف التى اتحد فى خلقها الآراميون جميعاً – وكانوا يطلقون عليها الاسمين الساميَّيْن للحرفين الأوَّلين (وهما : ألفا ، بيتا ؛ وبالعبرية أليفْ ، بيت)[٦٧] .

فالظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل التجارة المسهِّلة لأمورها ، فهاهنا أيضا ترى الثقافة كم هى مدينةٌ للتجارة ؛ ذلك أنه لما اصطنع الكهنـــة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبّية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتاً لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ؛ نستطيع أن نقول إن تطور الكتابة هو الذى كان يخلق الحضارة خلقاً ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعاً لدولة واحدة ؛ إن بداية ظهور الكتابة هى الحدُّ الذى يُعيِّن بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .

٣ - المدنيَّات المفقودة

بولينزيا - أطلانطس

ما دمنا الآن قد دنونا من تاريخ الأمم المتحضرة ، فلا بد لنا أن نلاحظ أننا سنكتفى من كل ثقافة نعرضها بجزء يسير نختاره منها ، وليس ذلك فحسب، بل قد لا نتناول بوصفنا إلا عدداً قليلا من المدنيَّات التى يجوز أن تكون قد قامت قوائمها يوماً على الأرض ؛ فليس فى وسعنا أن نُصمّ آذاننا فلا نسمع هذه الأساطير التى لم تنقطع روايتها طوال عصور التاريخ ، عن مدنيات كانت ذات يوم عظيمة عالية الثقافة ، ثم حلت بها كارثة من كوارث الطبيعة أو الحرب فحطمتها تحطيما لم يُبْقِ منها ولم يَذَرْ ، فإن حفائرنا الحديثة فى مدنيَّات كريت وسومر ويقطان تدل كلها على مدى احتمال الصدق فى هذه الأساطير

ففى المحيط الهادى آثار مدنيَّة واحدة على الأقل من هذه المدنيَّات الضائعة؛ فالتماثيل الضخمة فى جزيرة « إيستر » ، وما يرويه الرواة فى بولينزيا عن أمم قوية ومقاتلين أبطال كانوا ذات يوم يكتبون المجد لساموا وتاهيتى ؛ ثم ما لسكانها من قدرة فى الفن وحساسية فى الشعر ، كل ذلك يدل على مجد ذاهب ، يدل على شعب لا يبدأ اليوم نهوضـــه ليأخذ فى الحضارة ، بل يتدهور من منزلة عالية كان ينزلها ، وفى قاع المحيط الأطلسى ، يمتد جزء مرتفع تحت الماء(*) من ايسلنده شمالا إلى القطب الجنوبى ، فينهض دليلا جديدا يؤيد هذه الأسطورة التى نقلها إلينا أفلاطون(٦٨) فى صورة جذابة خلابة الأسطورة التى تروى عن حضارة ازدهرت يوما على قارة محاطة بالماء بين أوروبا وآسيا ، ثم ضاعت بين عشية وضحاها حين ارتجَّت الأرض ارتجاجا فابتلع اليمُّ تلك القارة فى جوفه ابتلاعا ؛ ويعتقد « شليمان »

(*) هنالك هضبة تحت سطح البحر بمسافة تتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف متر ، تمتد وسط المحيط الأطلسى من الشمال إلى الجنوب ، يحيط بها من الجانبين أعماق من الماء تتراوح من خمسة آلاف إلى ستة آلاف متر

ــ الذى بعث طروادة بعد موت ــ أن قارة أطلنطس كانت بمثابة حلقة اتصال بين ثقافتى أوروبا ويقطان ، وأن مصر كانت قد استمدت حضارتها من أطلنطس هذه(٦٩) ولعل أمريكا نفسها أن تكون هى أطلنطس وأنها كانت ذات حضارة قديمة متصلة بحضارات أفريقيا وأوربا فى العصر الحجرى الحديث ؛ ويجوز أن كل كشف جديد يقع عليه الإنسان اليوم ، هو كشف للمرة الثانية ، سبقه فى العصر السالف كشف أول .

لا شك أنه من الجائز ــ كما ظن أرسطو ــ أن يكون العالم قد شهد مدنيات كثيرة ، وصلت إلى كثير من المخترعات وأسباب الترف ثم أصابها الدمار وزالت من ذاكرات البشر ؛ ويقول « بيكُن » عن التاريخ إنه حطام سفينة ، إذ ضاع من الماضى أكثر مما بقى ؛ وإننا لنجد العزاء عن هذا الضائع فى الرأى القائل بأنه كما أن ذاكرة الفرد لا بد أن تنسى الجزء الأعظم مما يصادفه فى خبرته من حوادث ، لكى يحتفظ الفرد بقوته العاقلة ، فكذلك الجنس البشرى كله لم يحتفظ فى تراثه إلا بأنصع وأقوى ما مرّ به من تجارب ثقافية ــ أم هل استمد هذا المحفوظ نصوعه فى الذاكرة وقوته لأنه وحده ما أجادت الذاكرة الاحتفاظ به ؟ ــ ومهما يكن من أمر تراثنا الذى نعيه ، فحتى لو لم يكن إلا عُشْر ما مرّ بالإنسان من تجارب ، فليس فى وسع إنسان أن يلمّ به كله ؛ وسنجد قصة الإنسان رغم ذلك كله مليئة مترعة بما يكفى .

٤ ــ مهود المدنيّة

آسيا الوسطى ــ أناو ــ خطوط الانتشار

إنه من المناسب أن نختم هذا الفصل الذى ملأناه بأسئلة لا يمكن الجواب عنها ، بهذا السؤال : « أين بدأت المدنية ؟ » ــ وهو كذلك سؤال يعزّ على الجواب ؛ فلو أخذنا بما يقوله الجيولوجيون الذين يعنون فى أبحاثهم عما قبل التاريخ بضباب أين منه شطحات الميتافيزيقا ؛ لو أخذنا بما يقولونه ، لكانت المناطق

القاحلة فى آسيا الوسطى ذات ماضٍ فيه ماء وفيه اعتدال فى حرارة الجو ، وفيه ما يُزْهره من بحيرات عظيمة وأنهار كثيرة(٧٠) ، تراجعت عنها آخر الموجات الجليدية ، فجفّتْ شيئا فشيئا حتى لم يعد ما يسقط على ذلك الإقليم من مطر كافيا لقيام المدن والدول ؛ فأخذت المدائن تقفر من أهلها واحدة فى إثر واحدة ، حين هرب الناس غربا وشرقا وشمالا وجنوبا سعيا وراء الماء ؛ ولا تزال ترى أنقاض مدن مثـــل « باكترا » Bactrai غائصة فى الصحراء إلى نصفها — ولا بد أن تكون « باكترا » هذه قد ازدحمت بسكانها فى مساحتها التى يمتد قطر دائرتها اثنين وعشرين ميلا ؛ ولقد حدث فى عهد جدّ حديث — سنة ١٨٦٨ — أن اضطر عدد من أهل تركستان الغربية يقرب من ثمانين ألف نسمة ، أن يهاجر لأن الرمال الزاحفة قد غمرت موضعه من الأرض(٧١) وكثيرون يذهبون إلى أن هذه الأصقاع التى تسير اليوم فى طريقها إلى الفناء ، قد شهدت أول خطوة أساسية من خطوات التقدم ، فى هذا المزيج المؤلف من نظام وطعام وعرف وأخلاق وترف وثقافة ، والذى منه تتكون المدنيّة(٧٢) .

ولقد كشف « پَمْپِلى » سنة ١٩٠٧ فى « أناو » جنوبى التركستان ، عن خزف وآثار أخرى تدل على ثقافة قديمة أرجعها إلى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد ، وربما أسرف فى تقديره هذا فزاد أربعة آلاف(٧٣) ؛ وها هنا نجد زراعة القمح والشعير والذرة ، واستخدام النحاس واستئناس الحيوان ، وزخرفة الفخار بزخارف بينها من التشابه فى قواعد الرسم ما يدل على أنهم كانوا قد جمعوا التقاليد وبطانة فى الفنون لعدة قرون سلفت(٧٤) والظاهر أن ثقافة تركستان سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كانت قد قطعت من الزمن أشواطا ؛ وربما كان بينهم إذ ذاك مؤرخون يضربون فى أعماق ما ضيهم عبثاً للبحث عن أصول المدنية ، وفلاسفة أخذوا يندبون بعبارة فصيحة ما أصاب الجنس البشرى إذ ذاك من تدهور كان يؤدى به إلى الموت .

ولو اهتدينا بالخيال حيث يعزّ علينا العلم الصحيح ، لقلنا إنه من هذا المركز

هاجر الناس — يلوذون فراراً مما أصاب أرضهم من جفاف فى المطر وجفاف فى تربة الأرض — فساروا فى اتجاهات ثلاثة ، يحملون معهم ما لهم من فن ومدنية ؛ فبلغت فنونهم — إن لم يبلغوا بفصيلتهم — أرض الصين ومنشوريا وأمريكا الشمالية من جهة الشرق ؛ وبلغت شمال الهند فى سيرها إلى الجنوب ؛ ثم أدركت فى طريقها نحو الغرب بلاد « عيلام » و « سومر » ومصر ، بل إيطاليا وأسبانيا كذلك(٧٥) ؛ فقد وجدت فى « سوزا » وهى فى « عيلام » القديمة (فارس الحديثة) آثار تشبه فى نمطها آثار « أناو » شبهاً يكاد يبرر للخيال الذى يعيد قوته صورة الماضى ، أن يفترض أنه قد كان بين « سوزا » و « أناو » صلات ثقافية فى فجر المدنية (أى حول سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد)(٧٦) وكذلك يوجد شَبَهٌ كهذا فى الفنون والمنتجات القديمة يوحى بوجود علاقة كهذه بين بلاد ما بين النهرين ومصر فيما قبل التاريخ ، وبوجود ارتباط يدل على اتصال مجرى المدنية .

ويستحيل علينا أن نعلم علم اليقين أى هذه الثقافات جاء أولا ، وليس ذلك بكبير الأهمية ، لأنها جميعاً كانت فى جوهرها أفراد أسرة واحدة ونمط واحد ، فلو كان لنا أن نخالف الرأى الشائع الذى اكتسب احتراما لقِدَمه ، بحيث نضع « عيلام » و « سومر » قبل مصر ، فلسنا نصدر فى ذلك عن عبث يريد مخالفة المعروف لذاتها ، لكننا نعتمد على الحقيقة التى تدل على أن عمر هذه المدنيات الأسيوية ، إذا قيس إلى مدنيات أفريقيا وأوروبا ، يمتدّ طولا كلما ازداد علمنا بتلك المدنيات عمقا ؛ فمجاريف علماء الآثار بعد أن قضت قرنا كاملا فى بحثها المظفّر على ضفاف النيل ، انتقلت فى سيرها عَبْرَ السويس إلى جزيرة العرب وإلى فلسطين وبين النهرين وفارس ، وهى كلما خَطَتْ فى طريقها هذا ، ازددنا ترجيحا مع تزايد المعرفة التى تعود علينا من أبحاثنا ، أن الدلتا الخصيبة للأنهار التى تجرى فى أرض الجزيرة (ما بين النهرين) هى التى شهدت أول مناظر المسرحية التاريخية للمدنية الإنسانية ، فيما نعلم .